دكتور محمد رجب البيومي

مواقف تاريخية لعلماء الإسلام

دار الهلال

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عباد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٤٠٢ — رمضان ١٤٠٤ — يونية ١٩٨٤

No. 402 — June 1984

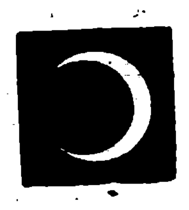
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية اربعة جنيهات مصرية و ٨٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات أو مايعادلها بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاشتراكات الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال





سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنانة بهيجة حسنين



دكتور محمد رجب البيومى

مواقف تاريخية لعلماء الإسلام

دار الهلال

مقدمة

حين أصدر الكاتب الكبير الاستاذ توفيق الحكيم مسرحيته التاريخية « السلطان الحائر » صادفت قبولا رائعا لدى القراء ، اذ صورت بعض المواقف الجريئة التى وقفها العالم البطل عز الدين بن عبد السلام حين تحدى الظلمة الطغاة من الملوك والامراء ، ورفع راية الحق فى وجوه أعدائه غير هياب ، وقد مثل بمواقفه الباهرة ادوار المصلحين من الانبياء وذوى الرسالات ، فكان قمة شامخة فى دنيا البطولة والايمان .

وقد قابلنى من جمهرة المثقفين من يدهش لبطولة العز ويعده فذا فريدا فى تاريخ العلماء ، ويعتبره من الشاذ النادر الذى لا تتمخض الاجيال عن نظيره الا بعد عسر جاهد ، وشح ضنين ، مع أن التاريخ الاسلامى حافل بأمثاله ممن صدقوا ماعدوا الله عليه ، فأعلوا كلمة الله فى معترك الطغيان .

لذلك رأيت ان أفرد لهؤلاء الابطال كتابا وجيزا يتحدث فى سرعة طائرة عن بعض روائعهم الباهرة . متجها الى تصوير هذه الادوار الحاسمة من مواقفهم الفذة دون اسهاب فيما عداها من جهودهم العلمية والفكرية لان كل

عالم من هؤلاء جدير ان يفرد له كتاب مستقل بتاريخه ، على نحو ماصنعت بتاريخ الامام أحمد حين افـردت له سفرا خاصا بشخصيته ، وحسبى هنا أن أشير واوجه ، تاركا لغيرى المزيد من التحليل والتشريح .

ولست ازعم ان هؤلاء الاعلام هم جميع من تعطـرت ببطولتهم صحف التاريخ ، فهناك عشرات من امثـالهم يستحقون الدراسة والتسجيل وفى مكنة الباحث الضليع أن يجد فى كل حقبة من الحقب السالفة نمطا رائعا مـن ذوى البسالة العجيبة فى طبقات العلماء ، وهانذا اخطو الخطوة الاولى راجيا ان أواصل السير مع غيرى ، ممن يعرفون من واقع هؤلاء الائمة مايضع حيواتهم نمـاذج حية لشبابنا المثقفين ، ممن يستغربون مواقف العز بن عبد السلام ، ويعتبرونها استثناء يخرج على القـاعدة ، لا نمطا مالوفا فى كثير من حيوات رجال الاسلام .

ان تاريخنا الاسلامى الرائع لم يكتب للآن على وجهه الصحيح ، اذ أن الكثرة من مؤلفى القرون السابقة قـد اتجهت الى تسجيل مواقف الخلفاء والوزراء والامـراء ، وحسبت ذلك انفس مايقال فى مضمار التاريخ ، ومـن يتعرضون من كتاب « الطبقات » لتواريخ العلمـاء والمصلحين لا يعمدون الى التفصيل الشافى لكل مـوقف خالد ، ولكنهم يلمون به المامة المتسرع العجول ، وعلينا الآن أن نتجنب هذا التقصير المعيب ، فنفسح المجال لذوى العظمة الباهرة ممن قدروا تبعات البطولة وحملوا رسالة العلم على وجهها الصحيح .

لو أن تاريخنا الباهر قد كتب كتابة وافية ، لما رأينا من شباب الجامعات من يعد العز واحدا لا ثانى له ، بل من

يجهل العز حتى يلفته اليه كاتب مسرحي شهير ! فهل جاءهم أن زملاء العز من ورثة الانبياء قد مثلوا دوره البطولي على مر التاريخ ، فسموا الى قمم الابطال ؟ هل جاءهم أن سعيد بن المسيب قد حارب الخلافة الاموية ، وترفع على عبدالملك وولي العهد كيلا يسير مع الباطل في طريق ؟

هل جاءهم ان سعيد بن جبير قد خاصم الحجاج ، واعلن الثورة الجريئة على طغيانه ، ثم استهزأ به في ساحة المحاكمة بين السيف والنطع حتى ظفر بالاستشهاد ؟

هل جاءهم ان ابا حنيفة قد أعتز بالله حين حارب الدولة الاموية في عناد ، ثم كافح ابا جعفر المنصور حين رآه يحيد عن الجادة المستقيمة ، فانهالت السياط المائة على جسده الناحل جلدا وتعذيبا ، ولم يخش الا الله ؟

هل جاءهم ان ابن حنبل قد واجه طغيان المأمون والمعتصم والواثق بنفس قوية عزيزة ، وتحمل عذاب السجن والسوط حتى اغمي عليه مرات دون اكتراث ؟

هل جاءهم ان ابن السكيت قد استشهد في ساحة الحق ، ولقي الله راضيا فخورا بمصرعه الباهر على رءوس الاشهاد ؟

هل جاءهم أن العز بن عبد السلام قد ترك من العلماء مدرسة جريئة حاربت طغيان سلاطين المماليك وملوك التتار ، وكان من تلاميذه الابطال محيي الدين النووي ، وابن دقيق العيد وابن تيمية وسواهم من الافذاذ ؟

هل جاءهم ثبات المنذر بن سعيد في وجه الناصر

بالاندلس او روائع عمرو بن عبيد ويحيى بن يعمر وابى جعفر البهلول بالكوفة وبغداد ؟

هل نظروا الى تاريخهم القريب ، فعرفوا جهاد علماء الازهر فى عهد المماليك والفرنسيين ، والموا بنضال الجبرتى والعروسى والمنصورى والدردير ؟

هل جهلوا باعث الشرق ومنقذه جمال الدين الافغاني . او نسوا ماشاهدوه عيانا من روائع عبد المجيد سليم !

اولئك حزب الله ، الا ان حزب الله هم المفلحون !

واني حين ابسط هذه المواقف فى صفحات هذا الكتاب أشعر اني أكتب دروس أخلاق وتربية ، قبل أن أسجل حوادث أناس وعصور ، لان القدوة الصالحة ، والاسوة الحسنة جديرة أن تجعل من الناشئة رجالا بسلاء ، يتخذون من اسلافهم الغابرين انماطا تحتذى ، وكواكب تهدى ، فتتحقق بذلك وراثة العلماء للأنبياء اذ لا تقتصر على المعرفة والافتاء بل تتجه الى العمل الجرىء والاصلاح المثمر والاستمساك بقول الله عز وجل « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون » .

سعيد بن المسيب يتحدى

سيرة سعيد بن المسيب تثير العجب والاعجاب ، فقد كان رضى الله عنه ، يعرف قدر نفسه ، ويزن قيمة علمه ، وقد ارتفع بغرائزه عن الرغبات البشرية المتهافتة ! وسما بروحه الى أجواز العزة والكرامة ، فعاش كريم النفس حميد الاثر ، وكان مثلا رائعا تقدمه التربية الاسلامية الصحيحة الى عشاق العزة والكرامة ، فما تعاظم يوما على فقير محتاج ! وما خشع لحظة لطاغية جبار ، بل كان يعظم أهل المسكنة ويسعى فى حوائجهم باذلا من جهده وماله ــ على تقدم السن وتأخر العافية ــ ما يستطيع ، أما الطغاة والفجرة من الولاة فقد جابههم مجابهات سافرة ، وامتنع عن لقائهم ومجالستهم ، وزاد فندد بفضائحهم المنكرة ومظالمهم الآثمة ، وبهذه السيرة الرفيعة ، قد نهج نهجه الصالح فى الحياة ، فأرى الناس كيف يكون عالم الاسلام رحيم القلب مع الضعفاء ، عزيز الجانب لدى الاقوياء ، فلا تأخذه فى الله لومة لائم ، بل يهتف بالحق الصريح ، وان لمعت الاسنة واشتجرت الرماح .

وقد نشأ الرجل نشأة مباركة ، فزكا غرسه فى تربة طيبة ، وشافه كبار الصحابة ، وجالس أهلَ الورع

والخشية من جند الله واتجه الى الفقه الاسلامي يبحث مسائله ، ويناقش فروعه ، والى الحديث المحمدي يصحب رجاله ، ويفحص اسناده ، وكانت المدينة لعهده زاخرة باعلام الشريعة من صحابة رسول الله ، فسمع من على وابن عمر وسعد وابن عباس وابى الدرداء ، وصهيب وجابر وابى سعيد ، واسماء ، وعائشة وام سلمة وغيرهم، ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه : اما ابو هريرة شيخ المحدثين ، فقد لزم مجلسه ، واستظهر أحاديثه ، وبلغ من نفسه مبلغا كبيرا ، حتى تزوج ابنته منساقا ، بدافع الرغبة الكريمة ، فى مصاهرة انسان يحفظ حديث رسول الله ! وقد تلقى ـ بمخالطته صحابة رسول الله ـ دروسا رفيعة فى الاخلاق العالية ، والكرامة الابية اذ شاهد بعينيه ما اسبغه الاسلام من العزة على أناس لم يذعنوا لغير الله ، ورأى من حرية العقيدة وشدة الحمية وقداسة المساواة ما رسم له الطريق السوي للمؤمن العريق الذى يتخذ القرآن أمامه ، ومحمدا قائده ، ويعلم ان الله من ورائه يقدر الحسنات ، ويحصى السيئات ! ويقيم الميزان العادل اذ يقول : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

وقد وهب الرجل ذكاء نافذا ، وحافظة بارعة ، فاستوعب جميع ماعرض عليه ، واستشف روح الاسلام من الاحاديث والآيات استشفافا يلج الى الاعماق ، ويرجع بالمتفرقات المتباعدة الى اصول ثابتة الدعائم ، وطيدة الاركان : حتى اشتهر فى نشاته الباكرة بالعلم ، واعترف ذوو الفضل من الصحابة والتابعين ومن وليهم ، بما شرف قدره وأعلى مكانته ، فقد كان عبد الله بن عمر اذا سئل عن الامر يشكل عليه يقول : سلوا سعيدا فقد

جالس الصالحين ، وقال على بن الحسين : سعيد بن المسيب اعلم الناس بما تقدم من الآثار ، وأفقههم فى زمانه وقال قتادة : ما رايت اعلم بالحلال والحرام منه ، وقال مكحول : طفت الارض فما وجدت أعلم منه ! وهذه الاقوال وامثالها لم تكن تقريظا زائفا يدفع الى التزلف والمحاباة . انما صدرت عن اناس لا حاجة لهم في تملق سعيد ، وهم ـ بعد ـ يعلمون أنهم محاسبون على مايقولون ! ولو عاش الرجل فى عهد الكتابة والتدوين لرأينا من آرائه وفتاواه مايحدد موضعه فى الفقه الاسلامى ، ولكننا نعلم ان الذين تناقلوا مسائل التشريع ودرسوا قضاياه جعلوه اماما يصدرون عنه ، فقد ذكر مالك والشافعى وأحمد واصحاب أبى حنيفة آراءه واستشهدوا بما تنوقل من فتاواه ! ومالنا نبعد ونحن نعلم ، أن عمر بن عبد العزيز ومحمد ابن شهاب ، وعمرو بن دينار ، وعطاء بن رباح ومحمد ابن الباقر ويحيى بن سعيد من تلاميذه . ولن يخرج هؤلاء غير فقيه عظيم !

وكان الفقه لعهد الرجل لا يقتصر على ماهو مصطلح عليه الآن من معرفة الاحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والاحوال الشخصية بل كان يشمل جميع مايتصل بالاسلام من سيرة وتاريخ وتوحيد واخلاق وارشاد ، اذ أن الفقه ـ فى العهد الاول ـ كان يطلق كما يقول الغزالي في «الاحياء» على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع الى نعيم الآخرة . وهذا المعنى الشامل المتسع ، قد نوع معارف سعيد ، واتجه به ـ مع دراسته مسائل العبادات والمعاملات ـ الى تفهم اسرار النفوس من جهة ، والى الورع

والتحفظ من جهة ثانية ! وتظهر الناحية الاولى فى براعته الخارقة فى تاويل الاحلام ، اذ ان دراسته للنفوس قـد كانت ـ مع غيرها ـ مددا زاخرا يستمد منـه عناصر التأويل ، واذا كان علماء النفس يعتمدون الآن فى تفسير الاحلام على دراسة العقل الباطن وحده ، واستكناه رموزه ومعرفة أعماقه السحيقة فى الماضى النازح ، فان سعيدا ـ مع خبرته النفسية بمن يخاطبه واحاطتـه بنوازعـه وخوالجه ، كان يعتمد فى التأويل على استشفاف روحى توحيه الفطرة الخالصة ، ويدعمه البصر بالمنازع والاهـواء كما يمده الأيمان القوى بشعاع مشرق يكشف له الغوامض وينير الطريق .

قال شريك بن نمر : قلت لابن المسيب : رايت فى النوم كان اسنانى سقطت فى يدى ثم دفنتها ؟ فقال : ستدفن اسنانك من أهل بيتك ـ فكان ذلك .

وقال رجل : انه راى فى النوم كانه يخوض النـار . فقال سعيد : ان صدقت رؤياك فلن تموت حتى تركب البحر وتصرع . فكان ذلك .

وقال الحصين بن عبيد : طلبت الولد فلم يولد ، فقلت لابن المسيب انى أرى انه طرح فى مجرى بيض ، فقـال ابن المسيب : البيض أعجمى ، فاطلب سببا الى العجم ، فتسريت : فولد لى .

هذا التفسير الصادق يجعلنا نشك كثيرا فيما يؤكـده انصار « فرويد » من ان العقل الباطن وحده هو مفتاح التأويل ، فلابد من التحليل الدقيق حتى ندرس الاغوار السحيقة فى حياة الرجل ، أقول : نشـك فى ذلك كثيرا ،

لانه يغفل الاستشفاف الروحي اغفالا تاما ، ولا يلجأ في حل الرمز الغامض الى مقارنة الشبيه بالشبيه ، والنظير بالنظير كما يفعل سعيد ! وعلى هؤلاء أن يضيفوا الى التحليل النفسي ـ الصادق في بعض حوادثه ـ شيئا من البصر الحاذق والاستشفاف النافذ ، ولن يكون ذلك بغير الهام سماوي يمده الايمان ويدعمه الاخلاص !

اما تقواه ونسكه وتقشفه فقد ازدحمت بها الاخبار المتواترة ، وما ظنك برجل واظب على حضور الجماعة اربعين سنة لا يشذ عنها وقتا واحدا ، واعتلت عينه يوما فقيل له : لو خرجت الى العقيق ونظرت الى الخضرة لنفع ذاك . فقال : وكيف اصنع بشهود العتمة والصبح ! وقد كان يتابع الصوم ويسرده سردا ، أما الحج فقد اكثر منه على تقدم السن وضعف البنية ، ووعورة الطريق ! ومع هذا التفاني في العبادة ، فقد نقلت عنه اقوال ترسم السبيل السوي للمؤمن المناضل في الحياة ، فقد قال له مولاه برد : مارأيت أحسن مما يصنع هؤلاء ! فقال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يصلي أحدهم الظهر ثم لا يزال صافا رجليه يصلي حتى العصر ! فقال سعيد: ويحك يابرد ، أما والله ما العبادة هذه ، انما العبادة الكف عن محارم الله ، والتفكر في أمره • واذن فالعابد التقي هو الذي يسعى الى رزقه مجتنبا محارم ربه . ولن تنفعه عبادته وامعاؤه تتلوى ، واطفاله يتضورون . وهذه الخبرة الدقيقة بحقائق العبادة وأوهام الناس جعلته يصدر آراءه عن تجربة ملموسة ، وعين ترى ، واذن تسمع فهو يقول : ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل الا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لاينبغي أن تذكر عيوبه :

فمن كان فضله أكبر من نقصه وهب نقصه لفضله ! هذه الخبرة الدقيقة بالنفوس ، جعلته يرثى للبشرية فيتجاوز عن هناتها ويؤثر الصفح والاغضاء عمن تبدر فى أعماله نوازع الخير ، عسى أن تطغى هذه النوازع الصالحة يوما فترفع صاحبها عن الضعف الانسانى ، وما يعقبه من مهلكات قواتل !!

على أن اغراق الرجل فى عبادته لم يصرفه عن السعى وراء رزقه ، فقد رفض عطاءه من بيت المال ، واندفع يتاجر فى الزيت ليعتصر طعامه من حلاله الصريح ، وليتحرر من رق هذه النفوس اللئيمة التى تعطى باليمين لتأخذ بالشمال وتمنح مال الله لاربابه لتضع أغلالا من المنن فى الرقاب فتسترق الاحرار وتحنى الرءوس !

لقد كان العصر الاموى ـ لعهد سعيد ـ عصر منافع واستغلال ، فالامراء والولاة لا يسيرون على سنن الراشدين من الخلفاء ، وقد بذلوا جهودهم المضنية فى تدعيم الملك باجتذاب الانصار واغراء النفوس بالمال والمنصب والنفوذ ، وقد رأوا التفاف العامة حول سعيد وتعظيمهم اياه ، فأرادوا أن يجذبوه الى ساحتهم ، ليلوذوا بركن وطيد من تعضيده وسعيد يعلم انهم أهل جور ومظلمة ، فيرفض كل رجاء يقدم منهم اليه ، ويراهم دونه فى كل شىء ، حيث قد اعتز بتقوى الله ، وذلوا بمعصيته ، وهو لا يفتأ يعلن رأيه صريحا شهيرا فى مناوأتهم الصريحة دون ان يأبه لعاقبة تسوء ، أو طامة تعم ، وقد أراد عبد الملك ان يخطب ابنة سعيد لولى عهده « الوليد » ليكسب بذلك محبة فى القلوب ، ويتخذ من سعيد دعامة تجذب نحوه الانصار والاتباع ، ولكن ابن المسيب يحتقر رغائب

الحياة وينظر فى صغار شبائن الى مقاييسها الواهنـــة فى منطق الدهماء ، فيرفض ان تكون ابنته اعظم سيدة فى المملكة الاسلامية ! يرفض ذلك ويستهوله ! لانه ينكر ان يكون مطية لظالم ، أو خديعة لشعب مرهق ذليل ! ثم ماذا ؟ يعجل بزفاف وليدته الى طالب علم فقير لا يملك غير قوت يومه ! فاى ملاك هذا الذى سما بانسـانيته الرفيعة فوق المقاييس الهابطة ، الى اوج رحيب تضيئه العزة ويغمره الجلال .

قال يحيى بن سعيد : كان لسعيد جليس يقال له عبد الله بن وداعة فابطأ عنه اياما ، فسأل عنه وطلبه ، فأتاه معتذرا عن تأخره بمرض زوجته وموتها ، فقـال له : الا اعلمتنا بمرضها فنعودها ، أو بموتهـا فنشـهد جنازتها ثم قال : يا عبد الله تزوج ، ولا تلق الله وانت أعزب ، فقال : يرحمك الله ومن يزوجنى وانا فقير ؟ فقال سعيد : انا أزوجك ابنتى ، فقال عبد الله : فسكت استحياء واستعظاما ، فقال سعيد : مالك سكت ، اسخطا واعراضا ؟ قلت : واين انا منها ؟ فقال قم وادع نفرا من الانصار ، فدعوت له فأشهدهم على النكاح ، فلما صلينا العشاء الآخرة توجه سعيد بابنته الى الرجل الفقير ومعها الخادم والدراهم والطعام ، والزوج لا يكاد يصدق ماهو فيه ! فليت شعرى من سمع قبل ذلك بانسان يرفض مصـاهرة الخليفة ، ويدفع بابنته الى طـالب علم فقير ! الا أن يكون عالما رفعه الاسلام من حضيض البشرية الطامحة الى سماء المثالية الرائعة ، ذلكم هو سعيد !

وقد كان النزاع بين الامويين والزبيريين على اشـــده بالمدينة ، وكل حزب يجتذب من الاشياع من يشـــد

عضده ويقوى شوكته ، وقد اتجهت انظار الفريقين الى سعيد ، والرجل فى قرارة نفسه لا يؤمن بهما معـــا ، ويرى الخلافة الاسلامية قد انحرفت عن نهجها الذى عرفه ايام عمر وعلى ! ولكن الرسل من الجانبين يتوافدون عليه وكلمة الحق تصرخ في فمه فتدمغ الباطل فينحدر ، وقد أرق أولو الامر لمخالفة سعيد ، وامتحن امتحانا رهيبا من الطائفتين ، فما تراجع عن رأى أو نكص عن حق بل ظل كالطود الشامخ ناهضا يندد بالطغاة ، ويرى الملأ كيف يقف الحق الاعزل فى وجه الباطل المدجج ، وكيف يحرص المسلم الابى على كلمة الحق وان حال دونه الباطل بسياطه وحرابه ، فلن يصيب الا جلدا وعظما ! أما النفس المؤمنة فمطمئنة بايمانها ملتذة بعذابها ، منتظرة مثـــوبة الله لاصفيائه ، ونكال الآخرة والاولى لذوى البهتـــان الآثم ، والطغيان الرهيب !

هذا جابر بن الاسود عامل عبد الله بن الزبير عـــلى المدينة يأمره بالبيعة فيمتنع ، فيضربه ستين ســـوطا ، فما تراجع عن موقفه ويرى ذلك هينا فى سبيل الله !

وهذا عامل عبد الملك على المدينة يأمره بالبيعة للوليـد ابن عبد الملك فيمتنع ، فيهدده بضرب عنقه ، فما يتراجع لحظة عن موضعه ، ثم يطول الحوار والجدل ، فيعـرض عليه واحدة من خصال ثلاث : أن يقرأ الوالى كتاب البيعة على الجمهور فيسكت سعيد دون أن يقول لا أو نعم ، أو أن يجلس فى البيت فلا ينهض الى المسجد اياما حتى تنتهى البيعة ، أو أن ينتقل من مكانه بالمسجد فلا يجده الرسول اذ يأتيه ، وقد رفض سعيد هذه العروض وكان له فى العرض الاخير مندوحة تقيه دون أن تخدش رأيه ، ولكنه

وضع نفسه موضع الزعامة الكريمة للمسلم الصادق ليسد كل ثنية يلج بها الباطل ماربه ، فهو أولا يخشى ان يخرج بالصمت عن لا ونعم ، فيعلم الناس أنه بايع ولم يعارض ، وهو ثانيا يتعاظمه ان يمكث بالبيت اياما فلا يخرح الى الصلاة وصوت المؤذن يلهبه ويستدعيه وهو ثالثا يربأ بنفسه أن ينتقل من مكانه حذرا من مخلوق لا يملك لنفسه ضرا أو نفعا !

وكان سعيد يعلم حقيقة ماينتظره من عذاب اليم ، فما أن أعلن مخالفته حتى جرد من ثيابه ، وضرب خمسين سوطا ، وطاف به الرعاع فى اسواق المدينة ، وهم يقولون: هذا موقف الخزى ! فيرد عليهم فى يقين حازم : بل فررنا من الخزى يوم القيامة بما فعلتموه وفعلناه !

هذه المحن السود تمر بالمؤمن فتزيده يقينا وايمانا ، ثم تنجلى غمرتها الفاشية عن روعة واستبشار ، فالظالم يتخاذل ويتقهقر ، حين يجد عقوبته الظالمة قد عادت على غريمه بالعزة وارتفاع الذكر وبعد الصيت !! وهذا ما استشعره بنو مروان ، فقد أسفوا لما صنعوا ، وهموا باسترضاء الرجل مرات فما ابه بخليفة أو أمير ، وقد قدم عبد الملك يوما الى المدينة ووقف على باب المسجد ، وارسل الى سعيد رجلا يدعوه ، فأتاه الرسول ، وقال: أمير المؤمنين بالباب يريد أن يكلمك !! فقال : مالى اليه من حاجة ، ومابه حاجة الى ، فرجع الرسول فأخبره فقال له : قل له : اجب امير المؤمنين ، فكرر سعيد ماقال ، فاستعظم الرسول ما صنع ، فقال له سعيد : اذهب يا بنى فان كان يريد بى خيرا فهو لك ، أو شرا

فليقض ماهو قاض ؟! ورجع الرسول بالاجابة الى سيده فطوى الضلوع على غيظ كظيم .

وقال عمرو بن عاصم : لما استخلف الوليد بن عبد الملك قدم المدينة ، فدخل المسجد ، ورأى شيخا قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا : فقالوا : سعيد بن المسيب ، فلما جلس ، ارسل اليه ، فأتاه الرسول فقال: اجب امير المؤمنين ،فقال سعيد : لعله ارسلك الى غيرى، فأتاه الرسول فأخبره ، فغضب الوليد غضبا شديدا ، وهم به فقال له جلساؤه : يا امير المؤمنين ، فقيه المدينة ، وشيخ قريش ، لم يطق اباك من قبلك واغض عنه ، ثم مازالوا به حتى تراجع !

وقد صلى الحجاج ذات يوم صلاة عاجلة ، لم يتم ركوعها وسجودها كما يجب ، فأخذ سعيد كفا من الحصى ورماه به ، فاستخذى فى صلاته ، واخذ يطمئن ، ولم يسكت طاغية العرب عن سعيد خشية واجلالا ، ولكنه خاف غضب بنى مروان اذ هم به ، فهم بعد موقفهم الاول منه يتحاشون أن يشعلوا الصدور بمؤاخذته فينكئون جراحا قد اندملت على صديد ، فهى تلتمس السبيل للثورة والانفجار !!

وايا كان فقد حاول هؤلاء ان يسترضوه ، فما رجعوا بطائل منه ، وقد كان له فى بيت المال عطاء كبير يتجاوز ثلاثين الفا ، فبعث اليه ، فرفض أن يأخذ منه درهما ، وقال : لا حاجة لى فيما عند الظلمة من حقوق فقيل له: الا تخاف على نفسك ؟ فقال لمحدثه : مهلا يا احمق فلن يضيعنى الله !!

هذا الايمان القوى ، وهذا الاعتزاز بالحق ، وهذا الورع الرفيع الاخاذ .. كل أولئك قد أضفى على الرجل حلة راهية من الهيبة والكمال ، فكان في حياته قوة مرهوبة عنيدة ، وبعد مماته فكرة سامية نبيلة ، ومثـــلا تشرئب اليه النفوس الطامحة بل حلمًا نادرا تتمناه القلوب، وترقبه الاجيال .

سعيد بن جبير
فى مواجهة الحجاج

بلغت قوة الحجاج بالعراق مبلغا اثار النفوس واشعل الصدور ، فقد كانت الدماء المراقة ، والاشلاء المتطايرة ، والسجون المكتظة مثارا للحنق والتبرم والضيق ، ولم يرع الحجاج فى قسوته دينا أو مروءة ، فكان يعنف ويبالغ فى التعنيف حتى لا يترك فى النفوس موضعا لسكينه واطمئنان ، واصبح الناس مابين خائف على نفسه يستكين ويذل ، ومجاهر بالثورة يستقبل الموت راضيا مسرورا ، متخلصا من حياة الذلة والهوان ، وقد انحى كثير من المؤرخين باللائمة على الرجل ، فكتبوا تاريخه بمداد الغيظ والتبرم ، وتربصوا به أسوأ العواقب يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ولم نجد غير قلائل يقفون معه فيتكلفون التبرير الفاشل ، ويختلقون السبب الواهن ؛ وقصارى جهدهم أن يزعموا أنه اضطر الى عسفه الزائد اضطرارا ليحمى الدولة العربية من السقوط !! وليقيم ملكا فخما تتجمع وراءه الكلمة ، وترتفع به الوحدة العربية فى دنيا السياسة المتألبة ، وقد نسى هؤلاء ان الظلم طريق فاشل لا يؤدى الى ثبات واستقرار ، وقد بالغ صاحبنا فى عسفه وارهاقه فلم يبلغ شيئا من مأمله كما

يدعون !! فامتلأت حياته بالثورات الجائحة ، والفتن الدامية ، وما كاد يفارق الحياة حتى التاث الامر ببنى مروان ، وقامت الفتن الحمراء فى كل مكان ! فأين الوحدة العربية التى دعم الحجاج أركانها واقام بناءها فى منطق هؤلاء ؟! وكيف نغمض عما أورثه الطاغية فى النفوس من ذل مزيف ، واستكانة كافرة ، فترى العيون الباطل السافر وتغمض عنه متلاهية وتسمع الآذان الافك الصراح وتتظاهر بتصديقه !! وتسير الاقدام فى مواكب النفاق مدعية انها تسعى فى ركاب العدالة والانصاف !! كل أولئك كان وبالا على الامة العربية ، ونكبة ماحقة بالدولة الاموية، فلم تلبث قليلا حتى انجاب ظلامها الحالك ، وأذن الله للباطل أن يندحر الى هوته تاركا وراءه عبئا ثقيلا مرهقا من المغارم الباهظة والاثقال الفوادح !!

وكان لقسوة الحجاج بواعث نفسية ترجع الى شعوره بضعة أصله ، وتعالى بعض الناس عليه ممن ينتمون الى قبائل جهيرة ويفوقهم الرجل ـ فى رأيه ـ ذكاء وتجربة وحزما ، هذا الى طموحه الخارق الى أسباب السيادة والسيطرة ، طموحا جعله رجل الدولة الصارم ، وسيف بنى مروان البتار ، ومع ماعرف عنه من التكبر والاستعلاء على الرعية ، فقد كان يتذلل وينخضع للخليفة وآل بيته تذللا مشينا لا يجدر بقائد كبير تناط به الجلائل ، وينهض لمواجهة الامور ، ولكن رغبته الحارة فى السيطرة أجبرته على تملق الرؤساء ، وكانت دافعه الأصيل الى هذه الدماء المراقة ، دون أن يرعى وجه الله فى روح تزهق ، ورأس يطيح ! وهذا التزلف الشائن لخلفاء بنى مروان ،

والتضعضع المتكبر لامراء الدولة وغلمانها ونسائها من ذوى الصلة الواشجة بالخلافة ، سبة شائنة فى سيرة رجل يدعى كمال البطولة ، واصالة السيطرة ، فالبطل الصارم يأبى على ظهره الانحناء والتكسر ، والفتى المسلم الاصيل يستنكف أن يتمسح بأذيال رجل يفوقه مكانة ونفوذا ، ولا سيما اذا اشتهر عنه انه الفارس الذى يحمى البيضة ويذود عن العرين !! ولكن الحجاج بذلك التضعضع المشين يدلنا على مفتاح شخصيته التى تتلمس السيطرة الدائبة بتملق الاقوياء وقهر الضعفاء !! دون نظر الى مروءة تأبى الضيم ، أو عطف يمنع البطش والارهاب !!

وطبيعى ان يحدث عدوان الحجاج موجة استياء تغمر القلوب ، وكان الفقهاء من أجلة التابعين ، والعلماء من ثقات الامة فى طليعة المتذمرين من هذا البغى الصريح ، فهم يرون النفوس ترد حتفها الوبىء فى غير حق ، وقد استشرى الطغيان استشراء لا يقف وراء حد ، وكلما سار أحدهم فى الطريق سمع اهات الثاكلة ، ورأى مدمع الباكية وزفرة المتحسرة ، مما يدفع الحليم الابى الى الغضب والكراهية فالثورة والاستفزاز ، وما كاد عبد الرحمن بن الاشعث يحمل الثورة على الحجاج حتى سارع هؤلاء الفقهاء الاماثل الى تأييده وتعضيده !! وفى طليعتهم سيد التابعين سعيد بن جبير !!

نشأ سعيد نشأة دينية ممتازة فصحب ابن عباس وورث علمه ، وبرع فى الفقه براعة أجلسته مجلس الصدارة بين زملائه ومناظريه ، وتصدر للفتوى الشرعية ، فسار الركبان بآرائه ، ونهل الرواد من علمه ، وأوجد بالكوفة

حركة فقهية ممتازة ، كانت دعامة قوية لما نشأ بعد ذلك في الفقه الاسلامى من مذاهب مختلفة !

ولا يمكن لمن يلاحظ تطور التشريع في أدواره المختلفة أن يغفل دور التابعين فى توجيهه وانمائه أو يجحد مكان سعيد فى انعاش الحركة العلمية لعصره ، واعتماده في ذلك على عقل بصير واطلاع شامل ، فقد بدات لعهده تظهر الفروق الاولى بين مذاهب الراى والحديث ، وتتجمع الاحكام المختلفة ، والآراء التى مهدت لظهور أبى حنيفة ومالك !!

ثم أعقبت هذه الذخيرة الحافلة التى يعتز بها تراثنا الفقهي ، ولو تأخر الزمن بسعيد الى عهد التدوين والتأليف لقرأنا من كتبه مايعين على تحديد موضعه بين أفذاذ الفقه الاسلامى ، على أننا نلاحظ من آرائه المتفرقة فى شعاب الكتب ماينبىء عن فضل سابغ ، ومجد تليد ، وقد اعترف أئمة العلم والورع ببراعته فى فقهه وتقواه ، فقال الامام أحمد بن حنبل : لقد قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الارض أحد الا وهو مفتقر الى علمه . وقال حصيف : أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب ، وبالحج عطاء ، وبالحلال والحرام طاووس ، وبالتفسير مجاهد ، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير . وقال الحسن البصرى : اللهم ائت على فاسق ثقيف ، فوالله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في دم سعيد بن جبير لكبهم الله على وجوههم فى النار !! وعالم فقيه له هذه المنزلة فى فقهه وتقواه لابد أن يحتل مكانه اللائق فى النفوس ، وقد كان الى ذلك كله شجاع اللسان جرىء القلب يقول الحق

السافر دون أن تأخذه فى الله لومة لائم ، وجراءة القلب لم تزل دافعة الى التحرش بالباطل ومهاجمة العدوان ، ولاسيما أن استندت الى رصيد ذهبى من التبصر والذكاء !!

رأى ابن جبير مظالم الحجاج وقسوته ، فلم يشأ أن يعتزل الناس فى مسجده ، بل عمل على تخفيف الحدة الطاغية بالنصيحة والموعظة ، وشارك فى بعض الوظائف مشاركة فعالة ، يدرأ بها ماقد يحيق من كيد وعدوان ، فكان نصيرا للضعفاء يبذل جهده الجاهد فى تخفيف الويلات ودرء المصاعب ، كما يفرق ما يتجمع لديه من أموال ، على من مسهم العوز والاحتياج . وقد أخذ عليه بعض الكتاب (١) اسهامه فى القضاء والمشورة ، اذ كان الاولى به فى رأيه أن يترك الحياة جانبا ، ويتفرغ لفقهه فى امارة ظالمة يحكمها طاغية غشوم ، ولسنا مع من يقول ذلك ، فكفاح المناضل المخلص يجلب منافع صائبة ، ويدفع نوائب كارثة واذا تعاون المصلحون ـ فى أوقات الطغيان ـ على الخير وأسهموا فى الكفاح فانهم لابد واصلون الى بعض مايبتغون من السداد ، ولئن لم يمكنهم اخماد النار المشتعلة ، فهم على الاقل يحضرونها فى نطاق أضيق .

واذا كان الحسن البصرى ـ معاصر سعيد وقريعه فى الفقه والتقوى ـ قد اعتزل وظائف الدولة ، وشاء لنفسه أن يقتصر على النصيحة والتوجيه فى رفق وحيطة ، فليس لنا أن نجبر سعيدا على ارتسام منهجه ،

---

(١) اقرأ ذلك فى كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام

فالانطوائيون فى كل عصر لا يساهمون فى توجيه النظم ودرء المفاسد كما يقوم بذلك المكافحون المناضلون !!
وعجيب جدا أن نرى بعض الذين كتبوا عن سعيد وصاحبه يحبذون اعتزال الحسن ويعدونه مثلا أمثل فى التقية والاحتياط ، وينظرون الى اشتراك سعيد فى وظائف الدولة كخطأ تتلمس له المعاذير !! وكان صاحب هذا الراى لا يعلم أن الاسلام دين كفاح وعمل ، وليست قيمة الورع أن تعتزل المناصب وتترك ميدان العمل ، بل عليك أن تزهد وتتورع والدنيا فى يدك ، تعرفها بميزان العدالة المنصفة ، فتدفع شرا يطرأ ، وتجلب خيرا يتاح .

ولم يتخلف سعيد بن جبير عن الغزو والجهاد فقد خف الى مقاتلة « رونبيل » ملك الترك حين تحرش بالمسلمين ، وهاجم سجستان فدك الحصون ، وأزهق الارواح ، ووقع العرب فى رعب شديد ، وفزع هائل ، وقد سار الجيش الاسلامى بقيادة عبد الرحمن بن الاشعث لتاديب الطغاة ، ومعه العدة الواقية من السلاح والرجال والخيول !!
وكان الموقف دقيقا يتطلب البطولة الحازمة والرأى الحصيف ، فالمسلمون مقبلون على اصقاع نائية ، ذات هضاب واشواك ، وعدوهم مستقر ببلاده يعرف الدروب والمسالك ، ويتمتع قائده بحيل ماكرة تذلل العسير ، وتقوم مقام القوة والعتاد ، فلابد اذن من العزيمة الصادقة ، والجلاد الصابر المرير ، وقد خطب عبدالرحمن جنوده وصور الموقف الدقيق داعيا الى الحمية والاستبسال ثم أخذ يتقدم فيحتل مواطن اعدائه بلدا بلدا ، ولا يندفع فى طريق دون أن يختبر دروبه ، ويلم بما أمامه من مرتفعات

وشعاب . وقد كتب الله له النصر فاحتل حصونا كثيرة ، ووضع المخافر المسلحة فى كل مكان مخوف ، واقام البريد بين الاماكن المحتلة ، لتأتيه الانباء فى أقرب مدى يمكن ، وقد فكر فى امره طويلا فرأى من الحيطة أن يكتفى الى أمد قريب بما أحرز من نجاح ، فلا يدفع بكتائبه المجهودة فى مطارح نائية دون أن تأخذ نصيبها من الراحة والاستجمام ، فتنقطع بها الاسباب وينقلب النصر هزيمة نكراء ، ثم كتب الى الحجاج ينبئه بما أصاب من غنم ، وما عزم عليه من هدنة مؤقتة يتم بعدها الاستيلاء التدريجى على البلاد ، وكان على الحجاج أن يقدر له موقفه فيشجعه بعبارات تفعل فعلها الحميد فى نفسية القائد المناضل وجنوده المغاوير ، ولكنه عارض الهدنة معارضة شديدة ، وأرسل الى عبد الرحمن خطابا مليئا بالزراية والاستهجان ثم أعلن عزله وتوعده مهددا منددا ، وتلك حماقة رعناء يرتكبها الحجاج دون روية وانتباه ، اذ كان يمكنه أن يصوغ أسلوبه صياغة هادئة تتجافى عن الاستهجان والوعيد ، ثم يعلن رغبته فى استئناف القتال مشجعا قائده ، مثنيا على جهوده . واذ ذاك لا تنفجر النفوس بالغيظ فتجنح الى التمرد والعصيان ؛ وقد كان الاشعث بمكانه من الكفاح وخبرته بالمواقع والدروب ، أبصر من الحجاج بما يجب أن يتبع مع الاعداء ، فقد درس البلاد وتمرس بخطوبها الفادحة ، ولن يستوى الغائب والشاهد بحال !! كان على الحجاج أن يفعل ذلك ، والا فاية نتيجة يتوقعها غير الثورة الهائجة

من اناس جاهدوا أعنف جهاد ، ثم قوبلوا من القيـــادة بالاستخفاف والتحقير والابعاد !!

على أننا نجزم جزما تؤيده شواهد التاريخ ، وتوحى به دلائل السياسة ، أن الحجاج كان على ثورته الرعنـــاء على ابن الاشعث ، يقدر اعتبارات شخصية لا تتعلـــق بمصلحة الحرب ، فهو يرى فى عبد الرحمن منافســا خطيرا يقوم الناس له ويقعدون ، ولئن وقعت الهدنة كما يريد فسوف يتفـرغ الى جمع القلـــوب نحوه والتفـــاف الناس حول رايته ، ومن ثم تعظم مكانته ، ويحتـــل فى بلاط الخلافة منزل المنافس العنيد ، لذلك بادر الحجـــاج بعزله وتهديده ، وكان فى النصح باستئناف الحـــرب مندوحة عن الوعيد والقهر لو خلصت النيات من دخلهـا المريب ، وكأنى بعبد الرحمن وقد لاحظ ذلك وتيقنه ، فحمل لواء الثورة النـــاقمة ، وتكتكت معه عصـــائبه الكثيرة وكتائبه الشداد !!

لقد ثار عبد الرحمن على الحجاج ! وثار معه أتبـــاعه وفى طليعتهم سيد التابعين سعيد بن جبير !! ولم يـــكن تهديد الحجاج وحده باعث هذه الثورة فى راى من انضـم الى غريمه العتيد ، بل ان تاريخ الحجاج المفعم بمآسيه النكراء قد ترك فى كل نفس هزة اليمة ، فلم تكد تتلمس القائد المغامر حتى هبت تجالد العدوان ، وتحلم بالانتقام حلما يدفعها الى التضحية والاستبسال ، وكان ســـعيد ابن جبير وعبد الرحمن بن ليلى وعامر الشعبى ، وغيرهم من اعلام الفقه وائمة العلم فى مقدمة الثائرين ، وقد لاقت الثورة تأييدا اجماعيا من العراق وكاد يتم لها النصـــر

الساحق فى مواقع متتالية اخذت تتلاحق وتتابع ، الا أن عزيمة الحجاج الصخرية قد استطاعت أن تتغلب على الصعاب ، وقد وردت اليه جحافل الشام واستعان الطاغية بمكائده الكثيرة ، فاندحر ابن الاشعث وفر هاربا تتقاذفه السبل والمشارف ، وتفرق جيشه أباديد ، فقبض الحجاج على ناصية الامر ، وعقد المحاكمات الدامية للثائرين ، فازهق مئات الارواح ، وختم حياته السياسية بهذه المحاكمات ختاما سيئا يذكره التاريخ بالفزع والاستنكار !!

تصدر الحجاج مجلس المحاكمة ، واخذ يرسل ضحاياه الى الجلاد شهيدا وراء شهيد لا يعبأ بعذر واضح أو يستشعر خشية مرهوبة ، وكانت محاكمة سعيد بن جبير حدثا رائعا يسجل آيات البطولة من مسلم يثق بعدل الله ورحمته ، ويرى من المحتم المؤكد عليه ، أن يجابه الطغيان فى جبروته ، ولا عليه اذا كانت نتيجة ذلك قاسية اليمة فهو يعلم أن حياة الذل والخنوع لا تقاس بالشهادة العالية فى مناضلة الفساد . والتشهير بذويه ، وقد كان فى وسعه أن يتفادى مصرعه بكلمات معسولة تظهر تدرعه واستكانته ، ولكنه وجد الحرج الزائد فى ضميره ، واستشعر الرغبة المخلصة فى الشهادة ، فأعلنها ثورة سافرة على الظلم البغيض ، وواجه الاسئلة القاسية باجابة تعدلها قسوة وصلابة ، فاذل كبرياء الحجاج وحطم غروره الكاذب فى موقف يترقب فيه المديح والاطراء ، بل ان سعيدا قد أبى ان يهرب فى طريقه الى المحاكمة ، وقد مهد له الحارس سبيل الفرار ، أبى ذلك ورفضه كى

لا يؤخذ بجرمه حارس ضعيف .!! وكيلا تسجل الاجيال عليه نكوصا عن مواجهة الطغيان فى موقف تقشعر به الجلود ، وترتعد الفرائص الشداد !! واليك بعض ما دارت به المحاكمة الرهيبة بين الطاغية الظالم ، وغريمه الابى الصبور !!

لقد انتفخ الحجاج فى جلسته ، وسأل فى استخفاف :

ما اسمك ؟ فسمع سعيدا يجيب فى صلابة وعزة :

« اسمى سعيد بن جبير !! ولكن الطاغية يتهكم فيقول مبالغا فى استخفافه : بل شقى بن كسير !! فيندفع سعيد ليجيبه بقوله : أبى كان اعلم باسمى منك !! واذ ذاك يتضايق الحجاج فيصيح فى تبرم وغيظ : لقد شقيت وشقى أبوك ، ويظن أنه بذلك قد قطع الرد على غريمه ! ولكنه يسمعه يجيب : الغيب انما يعلمه غيرك . فيستشرى غيظه ويلجأ الى الوعيد والتهديد فيصيح : لابدلنك نارا تتلظى ! وهنا يرده سعيد الى حقيقته فيقول له فى بساطة هادئة : لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت الهـا غيرك !!

لقد طالت الاسئلة ، ولم يصل الرجل الى افحام غريمه كما يريد ، فليسلك مسلكا آخر يقرب الفريسة من فخها المرصود !! وكان الكلام عن بعض الصحابة ـ آنذاك ـ مثارا للكيد ، والاتهام بمناوأة الدولة ، والثورة على سياستها العامة ، ولا سيما تطرق الحديث الى الامام على كرم الله وجهه ، وقد فطن الحجاج الى ذلك ، فأدار الدفة الى أهل البيت ، وسأل سعيدا : ماقولك فى محمد ؟ وهو سؤال لا يتطلب روية من عالم بصير كسعيد ، فصاح

يقول : نبى الرحمة وامام الهدى ، بعثـــه الله رحمة للعالمين ..

وهنا نفذ الطاغية الى هدفه فقال : وما رايك فى على ؟ أهو فى الجنة أم فى النار ؟ واستمع الرد فوجد حزما بالغا وحيطة تامة فى قول سعيد : « لو دخلتهــا وعرفت من فيها لعرفت أهلها » فقد أقفل بسداده الحازم باب اللجــاجة في وجه أموى حاقد ، يتربص الدوائر بشيعة علي وعشاقه !!! فتميز الحجاج حنقا وصــاح : ما قولك فى الخلفاء ؟ ولكن الرد يأتيه فى قول ســعيد : لست عليهم بوكيل !!

وسار النقاش فى طريقه الدقيق من باب الى باب دون ان يزل ابن جبير باتهام يدع حيثية الاعدام فى يد عدوه ، فاصطرعت فى نفسه أعنف ضروب الانفعالات المتناقضــة فكان رأسه يغلي بأفكاره كما يغلي القدر الفــائر ، ثم هــدأ قليلا ، وقال فى سخرية مريرة :

« اتريد أن أعفو عنك ؟! فاذا سعيد يقول فى ثقــة وايمان : « ان كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا تمــلك عفوا عن انسان ! ولو كان الحجاج ممن يخشعون لهيبــة الله لقنع بما سمع ، ولقدر للرجل ايمانه الراسخ ، ويقينه العميق !! ولكن حمى الانتقام الرعناء ترتعش فى كيانه ، ثم تصدع رأسه فيصيح : اختر أى قتلة تريد ان أقتلك بها ؟ فيجيبه سعيد فى هدوء الصابر وايمان المحتسب : بل اختر ياعدو الله لنفسك ، فوالله ما تقتلنى اليوم قتلة الا قتلتك فى الآخرة بمثلها !!

ثم تكون الخاتمة الاليمة فيساق الشهيد الى المذبحة الحمراء ، وكانت آخر دعوة ترددت بها انفاسه الطاهرة : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى !! وكأن السماء قد سمعت دعاء المظلوم الشهيد ، فمات الحجاج بعد مصرع غريمه بخمس عشرة ليلة دون أن يريق دما لانسان وحسم الموت شره عن الناس !!

لقد استشهد سعيد فى حومة المجد والكرامة !!! ولكن زميله فى الثورة الفقيه العالم ، عامر الشعبى ، قد نجا من الموت ، اذ اظهر الخنوع والاستكانة وطأطأ راسه للطغيان ، منتحلا شتى المعاذير ، وتقدم الى الحجاج يقول فى توبة النادم ، وأسف المذنب : « أصلح الله الامير ، لقد حبطتنا فتنة ، فما كنا فيها بأبرار أتقياء ، ولا فجار أقوياء ، وقد كتبت الى يزيد بن ابى مسلم أعلمه ندامتى على مافرط منى ، ومعرفتى بالحق الذى خرجت منه ، وسألته أن يخبرك بذلك ويأخذ أمانا منك !! »

ونحن حين نوازن بين الموقفين نجد عامرا قد اعترف بنكوصه عن الحق فى ثورته على الحجاج !! ومعنى ذلك ان الطاغية فى بطشه الماحق وقهره العنيف لا يستأهل ثورة قوية تزعزع باطله الجرىء !! فلو وقف سعيد موقف الشعبى لكان حدثا رائعا وخطبا جللا أن يعترف فقيهان كبيران ، بعدل الحجاج فى بغيه ، وانصافه فى جبروته !! وذلك مالا يرضى عنه أخو ورع يسمع ويرى مايزهق من الارواح ، وما يتطاير من الاشلاء كل حين ، لذلك آثر سعيد الآخرة ، وتقدم الى المحاكمة يحمل روحه على كفه ، ليعلم الناس جميعا ، أن الحرية تنال بالدماء ،

وان الشهادة فى سبيل الحق مثوبة رفيعة لا يدركها غير المثاليين من ذوى النفوس الرفيعة والمعدن الاصيل !!

على ان الحجاج الذى ازهق فى حياته ما يزيد على المائة والعشرين الفا من الارواح « هكذا قال التاريخ » ، قد استهول مصرع سعيد وحده ، فالتأث عقله ، وشرد رايه منذ شاهد راس الشهيد يتطاير عن جسمه فلم يذق النوم الا غرارا ، وكان يستيقظ فزعا وهو يصيح : يا قوم . مالى ولسعيد بن جبير ، كلما عزمت على النوم اخذ بحلقى !!! وكان يتخيل كأن هاتفا يصلصل فى أذنه : اى عدو الله .. فيم قتلت سعيدا !! ومات الطاغية وهو يذكر فى احتضاره سعيدا ، كما مات معاوية من قبله وهو يذكر فى سكراته حجر بن عدى !! وكلاهما يذكرنا فى انفعاله المؤرق بقول القائل :

اثنان لا يتهادنان دقيقة شبح الضحية والضمير المذنب

يحيى بن يعمر
بطل صريح

لو ازدهر التاليف فى القرن الاول من الهجرة كما ازدهر فيما تلاه من العصور لغنمت الثقافة الاسلامية خيرا كثيرا منه ، اذ ان هذا القرن الجليل قد حفل بعلماء امائل من اجلة الصحابة ، واهلة التابعين ، واذا كنا نرى اليوم آراءهم العلمية متفرقة فى مطاوى الكتب فنقف على الكثير من اجتهادهم الحافل ، واستنباطهم الدقيق ، فماذا كنا نغنم من المعرفة لو عكف هؤلاء الاعلام على تدوين ارائهم فى كتب خاصة بهم كما فعل الخلف ممن تلاهم على مر العصور ، وان سماء ساطعة يتالق فى افقها المنير كواكب وضاءة من امثال على وابن عباس وابن عمر وزيد ومعاذ وابن مسعود من مشيخة الصحابة ومن طراز الزهرى وابن المسيب وعطاء الشعبى وربيعة وابن جبير وحماد والحسن من اعيان التابعين ان سماء تسطع بهذه الكواكب لجديرة ان تبعث الضوء فى ظلمات الاحقاب ودياجى العصور لتهدى الى الطريق القويم .

ولقد كان يحيى بن يعمر العدوانى احد هؤلاء المتضلعين فى علوم الشريعة والعربية من افاضل التابعين ، وقد شارك مشاركة مثمرة فى غرس بذور النحو مع ابى الاسود

ثم انه كان كاتبا لا يتلقى العلم مشافهة فحسب بل يدون ويسجل ، وقد عثر على بعض الصحف الاثرية ممهورة باسمه كما أنه المخترع الاول لنقط الحروف بعد أن خاف اللبس من الاهمال فابتكر الاعجام ، هذا الى تضلع واسع فى اللغة ، اذ كان لا يسأل عن كلمة ينطق بها بدوى مصحر الا شرحها واستشهد عليها من محفوظه وقد دعاه هذا التتبع الواسع لمهجور الكلام فى بطون القبائل ، وافخاذ البداة أن ينطق فى بعض حديثه بالغريب ، حتى اشتط بعض الكاتبين فعده من المتقعرين ، وما أظن هكذا صحيحا ، لان المقعر هو الذى يجمع الحوشي من هنا وهناك ليتشدق به عن عمد ، على سبيل المباهاة !.

أما العالم اللغوى المتمكن فلابد أن يسيل على لسانه مالا يقصده من الغريب ، كما نرى اليوم بعض الاصطلاحات العلمية فى كتابات العلماء ، وخواطرهم الادبية ، دون أن يقصدوا الى تعالم شخصى ، انما يتحكم فيهم تخصصهم الضليع لا يقوون على الانفلات منه !! هكذا كان يحيى فيما ينطق به من الغريب ، حتى اشتهر عنه وتنوقلت منه طرائف وأفاكيه ، روى أن يزيد بن المهلب كتب الى الحجاج لقد لقينا العدو ففعلنا وفعلنا حتى اضطررنا ، الى عرعرة الجبل ، فقال الحجاج ما لابن المهلب وهذا الكلام ! فقيل له : ان يحيى بن يعمر لديه . فابتسم قائلا : هو ذاك .

هذا بعض مايشير الى مكانته فى علوم العربية ، أما آراؤه العلمية فى الفقه والتفسير والحديث فأكثر من أن يلم بها ملم فى نطاق وجيز ، ولسنا هنا بصدد ايضاح مركزه العلمى ، ولكننا نمهد لايضاح عظمته النفسية وعزته

الخلقية فقد كان من الشجاعة الادبية فى الحق ، والجراة الخلقية فى مواجهة الطغيان بالمكان السامق ، والمنزل المرموق ، وقد شاء له القدر أن يبتلى بالحجاج أو يبتلى الحجاج به ، فواجه وكابر وادى دوره مرفوع الرأس عالى الجبين .

كان الحجاج ، طاغية العراق ، يدين بفلسفة القوة والارهاب ، فليس من همه أن يستميل القلوب بمعسول القول وجميل الفعل اذ أن ظروف حياته وحوادث عصره، وفتن بيئته ، قد جعلته لا يعبأ بمهادنة واستمالة ، وانما يرى الطغيان سبيل الهدوء والاستقرار ، وقد اختاره عبد الملك ليقمع ويردع لا ليؤلف ويقرب ووجد بعد التجربة أن القمع يدنى من مأربه ، ويرفع من مكانته لدى الخلافة ، فتمادى فيه تماديا جائرا ، ووطن عزمه على ان يقوم السيف بواجب الطاعة والخضوع مهما امتلأت منه القلوب موجدة وغيظا ، وانه ليجلس على العراق عالما أن حاشيته ـ قبل رعيته ـ يضيقون به ويسعون للتخلص من شره ، ثم هو لا يعبأ بما يعلم مادام السيف فى يده والسجن من ورائه ، فليغضب الغاضبون كما يشاءون فالقوة الطاغية تقيه كل سوء ، وقد تغلغل اعتقاده هذا فى نفسه حتى سرى الى أسرته الخاصة فكان يجبر المرأة على الاقتران به ثم يعاملها معاملة من لا يستميل ودها أو يحرص على حنانها ، بل معاملة المتسلط المتحكم ، ولها أن تضيق فيما بينها وبين نفسها بزوجها ومنزلها وحياتها فليس بنمجيها منه تبرم أو ضيق ، واذا كان هذا سلوكه

مع احب الناس اليه فما ظنك بالجنيب البعيد . هذا المتحكم القاهر قد ابتلى بيحيى بن يعمر فيمن ابتلى بهم من العلماء فما وهنوا لما أصابهم ، بل ناوشوه وقارعوه ، وانتصروا عليه بالمنطق المفحم فى يوم مجموع له الناس !

لقد رأى الحجاج ان الكوفة تهيم حبا بالحسين بن على وتجعل من ذكراه المؤسية منحدرا للدمع ومصعدا للزفير، وقد كافح وجاهد فى تبديد هذا الحب الوثيق فما استطاع ، وكان يعلم أن قرابة السبط الشهيد من رسول الله تجمع عليه القلوب وتضعه بين الجوانح والشغاف ففكر وقدر ، ثم رأى أن يعلن أن الحسين هو ابن على بن ابى طالب بن عبد المطلب وليس من ذرية محمد بن عبد الله لان انتسابه لفاطمة لا يغير من الامر شيئا فالاب هو المعتبر فى النسب دون الام على قول من قال :

بنونا بنو أبنائنا , بناتنا بنوهن أبناء الرجال الاباعد

وقد خطب فى ذلك واطال ، واخذ يتتبع مخالفيه سجنا وتشريدا ، ويرسل عيونه فى الكوفة ليأتوه بمعارض يصدر عن غير رأيه ، فيجعل من عقابه مثلا رادعا لغيره ، وسرعان ماجاءه الخبر ان يحيى بن يعمر سئل عن الحسين وانتمائه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فاجاب فى المسجد الجامع أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ! وأن الحجاج يحكم ولا يفتي ، فاذا افتى فعن غير علم واعتقاد !!

لم يدهش الطاغية لما بلغه ، فهو يعرف فى يحيى جرأة وشجاعة ، وكثيرا ما اصطدم معه فى جدل مذهبى فكان صاحب الحجة الفاصلة والمنطق الراجح دون أن تعصف به رهبة أو يلين من لبانه ايعاد ، ثم هو بعد يتشيع فى اعتدال فلا يوازن بين الصحابة لينصر فريقا على فريق .

ولكن ليضع الحق فى نصابه مستعصما بالعروة الوثقى من الايمان ، على انه من وراء ذلك مسموع الكلمة ، محترم الرأى ، فاذا أفتى بما يعارض الحجاج فقد تمكن من قلوب الناس وذهبت دعوى الطاغية فى الحسين أباديد ، مـاذا عسى ان يصنع به وقد اصطدم منه بداهية دهياء ، لابد ان يتمكن منَ اسكاته عن طريق الادعاء والتعنت فيلزمـه بنص واضح من القرآن يؤيد دعواه !

وليس فى القرآن فى منطق الحجاج مايثبت ذلك ، فاذا اعلن يحيى عجزه عن الاستشهاد بالقرآن فقد قامت عليه الحجة فى راى الجمهرة من العامة وللطاغية بعد ذلك أن يتطاول عليه مستكثرا بالسلطان والجبروت حتى يخذله خذلانا لانجح بعده ـ هكذا قدر الحجاج واراد ، ثم تعجل فعقد مجلسا حاشدا من اعوانه ووجهاء الكوفة ، ودعا معهم شيعة يحيى ومقدرى علمه وفضله ، لينكشف أمامهم فى المعمعة ، فيضيع ماينسب اليه من علم وثبات ، ثم ارسل من يحضر يحيى ليتجرع كأس الهزيمة فى انكسار وحانت الساعة المرتقبة ، فحضر الرجل ليرى حفلا غاصا بالجموع ، وقد تصدره الحجاج كالح الوجه مقطبه الجبين وقد امتدت العيون ، واشرأبت الاعناق لترى العالم الوقور يتقدم فى اطمئنان فيلقى تحية الاسلام ثم يهم بالقعـود فيصيح به الحجاج :

« لا تقعد يايحيى واوضح لنا رايك فى صـلة الحسين برسول الله ! » .

فيرد يحيى فى كبرياء : الحسين والحسن من ذرية رسول الله ، وان غضب الحجاج !!

فيتنمر الحجاج متحفزا ويصيح : الديك دليل من كتاب الله ، فيرد يحيى فى ثقة بالغة : معى الدليل من القرآن !!
فيضرب الحجاج كفا بكف ويقول متهكما : ما شاء الله ، افى القرآن ان الحسن والحسين من ذرية رسول الله ! لقد قرأته مئات المرات فما وجدت ما تقول يارجل !

فيتطلع يحيى الى الحاضرين ثم يصيح بصوت مجلجل، وايمان وثاب :

قال الله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهـــرون وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين » .

ثم تلفت الى الجمهور قائلا : أيكون عيسى بن مـــريم من ذرية ابراهيم بنص القرآن ولا يكون الحسين من ذرية رسول الله ، وبينهما من القرابة الدانية اكثر مما بين عيسى وابراهيم أيها الناس !

لقد جاء الدليل صاعقا قاصما ، وقد اعتصم الحجـــاج بذكائه ليسعفه برد مضلل فما استطاع ، وبدت الفرحة والشماتة فى عيون الجالسين ، فزادت من ضيق الحجاج وانبهاره ثم رأى ان يتراجع فى موقف ضائق يضغط عليه بآصاره فابتسم فى تصنع ، وقال :

« اجلس يايحيى . فقد فاتنى هذا الاستنباط ! »

ولم يشأ ان يصرف القوم لوجوههم بعد مالحقه مـــن خزى فاشل ، فرأى أن ينهض فيعترف بأن القرآن بحر

لا ساحل له ، وان العربية الفصحى لا تسلس قيادها لغير من يحفظ القرآن ، وانه هو وحده الذى امر يحيى بن يعمر ان يضع النقط على حروف المصحف ، لتسهل سبيل الحفظ الدقيق ، والاستظهار الصحيح ، ورأى أن يجامل يحيى فاتجه اليه سائلا :

ـ اتجدنى الحن فى قولى يا ابن يعمر !

فابتسم يحيى ابتسامة المتهكم وقال فى لهجة ذات مغزى خاص ، الامير افصح من ذلك ـ فاغتاظ الحجاج وصاح قائلا : « عزمت عليك : اتجدنى الحن .

فقال يحيى بملء فمه : نعم ايها الامير !

فنظر منبهرا وقال : الحن فى اى شىء ؟ فصاح يحيى : فى كتاب الله !

فنهض الطاغية مغتاظا وهو يقول : ذلك اسوأ لو كان، ففى اى حرف لحنت ؟

فرد يحيى فى تحد : لقد قرأت بالمسجد الجامع « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخواتكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها احب اليكم » ، فضممت الباء وهى مفتوحة !

فتغير وجه الرجل ، وحدثته نفسه أن يهم بصاحبه ، ولكن انهياره النفسى أورثه ترددا لا عهد له به ، ثم انه خشى ان يصيبه بسوء فيتناقل الناس فى الامصار قصة حجاجه فى نسب الحسين ، وينتهى الى قصر دمشق ما كان من تهوره حين جادل فى أمر لا يقبل الجدل فمكن لخصوم الخلافة من الانتصار .

وشاء بعض الحاضرين أن يصرف الحديث الى موضوع اخر ، فاخذ يسأل الحجاج عن مدينة واسط التي شيدها باذلا جهده الجاهد في التعمير والتثمير ، وكان الطاغيه قد ارتاح الى هذا الانتقال المنقذ ، فأخذ يسهب في تقدير كفايته ، ويبين حسن اختياره للمكان ، وسخاءه في الانفاق والتشييد ، ويحصي اعداد من قاموا بالبناء من الفعلة والعمال وما استخدم من الماشية والحيوان وما انفق من الدرهم والدينار ، ثم راى أن يصانع يحيى ليظهر امام الناس بأن هزيمته لم تنل من نفسه ، وان الامر لا يخرج عن مجرد راى يخطيء ويصيب ، فربت على كتفه برفق ثم قال :

– لم تذكر لنا رايك في مدينة واسط يا يحيى !

فسكت الرجل ولم يرد !! وتوجهت العيون اليه فزادت من حرج الحجاج وتورطه فأعاد السؤال مغيظا !

فقال يحيى : ايها الامير ماذا اقول عن واسط ، وقد شيدتها من غير مالك ، وسيسكنها غير اهلك .

فلم يعد في قوس الصبر لدى الطاغية من منزع ، وتلهب الجمر في عينيه ثم صاح في انفعال : ما حملك على هذا ؟
فقال يحيى في اعتداد : ما أخذ الله تعالى على العلماء في علمهم الا يكتموا الناس حديثا !!

فاطرق الحجاج منخذلا ، وساد صمت حائر غمر المكان لحظات ورأى الطاغية أن يقوم بعمل ينقذ خشيته فصاح بيحيى :

– لا تساكني ببلد أنا فيه ، فاذهب منفيا الى خراسان!
ثم نهض من مكانه مخذولا ليتفرق الناس ، كل الى مثواه.

قال الراوى :

ـ وذهب يحيى بن يعمر الى خراسان ، فوجد صيته الطائر يسبقه هناك ، ورأى الجميع يتحدثون بمجابهته للحجاج مكبرين مقدرين ! ودنا خراسانى فسأله فى تعجب :

ـ الم تخش سيف الحجاج !؟ فرد فى ايمان الواثق : لقد ملأتنى خشية الله فلم تدع مكانا لخشية انسان .

مثل رائع من صراحة الإمام الأوزاعي

حين سقطت الدولة الاموية وابتدأ عهد بنى العباس تطلع المسلمون الى زمان مشرق بالعدالة يقوده آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مرافىء العدل والانصاف والامن ، وقد قام الدعاة فى كل مكان يعيدون مثالب الامويين وفظائعهم على الاسماع لاعنين منكرين ، ومبشرين بزمان صالح يتزعمه رجال يهدون الى الحق وهم به يعدلون . وقد بدأ امير المؤمنين الخليفة الاول ابو العباس عبد الله بن محمد بن على عهده بالصلاة الجامعة بالكوفة ورقى المنبر فحمد الله واثنى عليه وافتخر بقرابته لرسول الله ، وندد بما قام به الفجرة من بنى حرب ومروان ثم قال : « وانى ارجو الا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت الا بالله » ثم ادركته وعكة مرضية فجلس على المنبر وصعد عمه داود بن على ليقول من خطبته الشهيرة : « انا والله ماخرجنا فى هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا لنحفر نهرا ولا نبنى قصرا ، وانما اخرجتنا الانفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وما كرثنا من أموركم ، وبهظنا من شئونكم ،ولقد

كانت أموركم ترمضنا ونحن على فراشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى امية فيكم ، وخرقهم بكم واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله ان نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فوالله ماصعد منبركم هذا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا امير المؤمنين على بن ابى طالب ، وامير المؤمنين ابو العباس !! » .

ولكن الذين اعطوا الناس ذمة الله وذمة رسوله ان يحكموا بما انزل الله ويعملوا بسنة رسول الله ، ويسيروا فى العامة والخاصة بكتاب الله ، صاروا يمعنون فى الغدر وسفك الدماء وازهاق النفوس وخيانة العهد الى مدى بعث الفزع وزلزل الاطمئنان ، وعطفت النفوس الى الامويين حين وجدوا آلافا من الارواح تزهق ، وزلزال من الحروب تشب ، واخذوا بالظنة دون تحقيق ، ومبادرة الشر دون تريث ، حتى صار المصبح مشفقا أن يمسى دمه ريا للارض ولحمه طعاما للطير ، ومصرعه حسرة فى قلوب الاقربين ..

وكان أشد بنى العباس عصفا بالارواح وهيجانا للشر ، وزلزلة للسكينة عبد الله بن على عم امير المؤمنين حتى وصفته بعض الروايات التاريخية بالسفاح اذ انه احق بهذا اللقب من ابن اخيه ، وقد كتب استاذنا المغفور له عبد الحميد العبادى فى توضيح ذلك فصولا قوية

كانت مدعاة نقاش علمي مفيد بين كبار الكتاب منذ ربع قرن ! هذا العم الغاشم قد اعتقد انه ظل الله في أرضه، يعز من يشاء ويذل من يشاء وقد انهزم مروان بن محمد على يده في معركة الزاب فعد ذلك مبعث فخر متطاول ، وراى نفسه صاحب الامر الحقيقي اذ استطاع ان يهزم آخر خليفة مرواني ثم اخذ يتبعه بجنوده حتى تم مصرعه، واورثه ذلك جماحا ونزقا ، فاخذ يتبع العزل من بني حرب ، ليستاصل شافة الايتام والارامل والعجزة من النساء ! وكانه جرى في سباق دموى مع ابي مسلم الخراساني ، فاذا اباد احدهما معشرا نافسه الاخر باضعاف ما اباد ، لا يرقبان في الله الا ولا ذمة ! وحقت كلمة الله فوقع الباس بين الطغاة ، واكل بعضهم بعضا في النهاية .

والذين يخلطون روايات كتب الادب بروايات كتب التاريخ دون تحقيق ، يزعمون أن العفو الشامل قد عم بني امية اولا فصفح عنهم امير المؤمنين وتقاسموا مجالس السمر مع بني العباس في ابهاء الخلافة ، وباحات الامارات ، وكادت تندمل الجراح لولا ان عبدا شاعرا يقال له « سديف » كان مولى للخليفة ركب اليه من الحجاز فاستاذن متلثما دون ان يخبر باسمه ، وحلف الا يحسر اللثام عن وجهه الا في حضرة ابي العباس ، فاذن له فدخل ليرى الخليفة على سريره ، وبني هاشم دونه على الكراسي ، وبني امية دونهم على الوسائد مثناة على الارض ، فلما شاهد التئام الشمل حسر اللثام عن وجهه واخذ ينشد :

أصبح الملك ثابت الاساس
بالبهاليل من بنى العباس
بالصدور المقـدمين قديمـا
والرءوس القماقم الرواس
يا أمير المطهرين مـن الذم
ويا راس منتهى كل راس
لا تقيلن عبد شمس عثارا
واقطعن كل رقلة وغراس
انزلوها بحيث انزلها الله
بدار الهوان والاتعـاس
ذلها اظهر التـودد منها
وبها منـكمو كحز المواسى
اقصهم ايها الخليفة واحسم
عنك بالسيف شافة الارجاس

فتغير لون أبى العباس واصابه زمع ورعدة ثم التفت الى جنوده الخراسانية فاخذوهم بالسيوف حتى همدت جسومهم ورحل سديف الى عبد الله بن على فانشده :

لا يغـرنك ما ترى من انـاس
ان تحت الضـلوع داء دويـا
فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فـوق ظهـرها امـويا

فهاج هائج الامير ، واعدم الارواح بالمئات !! هـذا الذى ترويه كتب الادب وبعض كتب التاريخ لا يجوز ان يلقى بالتبعة على راس هذا العبد الشاعر وحده ! فما كان له أن يصدر امرا فى شعره يغير به سياسـة

خليفة وامير لوصفت سرائر العباسيين ، ومالوا الى التسامح ، ولكن الشاعر آنس رغبات سادته فى الانتقام والحفيظة ، فوضع الثقاب على النفط ، واخذ يشعل انلهيب ليرضى سادته غير عابىء بملامة ضمير ، أو ثورة هاجس ، بل ان عبد الله بن على لم يكن فى حاجة الى من يهيجه ، فمنذ فر مروان بن محمد وهو لا يدر امويا يعثر عليه ، وقد رجح الاستاذ العبادى أن استئصال بنى امية لم يكن بحضرة امير المؤمنين بالكوفة او الحيرة أو الانبار ، ولم يتم على يده كما تزعم روايات الادب والتاريخ ، لان العراق لم يكن فى وقت من الاوقات موطن بنى أمية وبخاصة فى أخريات عهدهم عندما انبثقت عليهم فيه البثوق وكادت أن تأتى على سلطانهم قبل زحف العباسيين انما كانت الشام موطن بنى أمية ، وعلى يد عبد الله بن على قد قامت جرائم الابادة والاستئصال ! فهو صاحب الاثم الكبير فيما كان !

كان فى أهل الشام غيرة وحفيظة فقد عز عليهم أن يفتك بالناس لمجرد الشبهة ، فكل من كانت له صلة ما ببنى امية لقى حتفه من عبد الله ! والشام حاضرة الامويين وعرين سلطانهم فلا ريب أن يكثر بها الاشياع والمريدون ، ولا ريب أن يستحر القتل والاغتيال ، وأن تعطى عهود الامان ، حتى اذا استسلم الخائف لقى مصرعه دون اكتراث بوفاء ! فتهامس المتهامسون مستائين ، وغمر القوم شعور لهيف بالمأساة ! فاخوانهم يتساقطون من حولهم مضرجين بالدماء ! واذا كان آل رسول الله من بنى العباس قد نهضوا ليحقوا الحق ! فمالهم يفعلون

مالا يقولون ، وما لعبد الله يشعل الحرائق أنى سار !
وجاءت الانباء لعبد الله بن على، فرأى أن يسكت الناقد بن باسم الدين ، وأن يكون ذلك على رءوس الاشـهاد اذ يستجوب فقيه الشام وعالمها الكبير « أبا عمرو عبد الله الاوزاعى » فى دماء بنى امية وأموالهم ، ولم يجرؤ الفقيه ـ فى ظن الطاغية ـ أن يفتى بما يخالف هواه وهـو يرى السيوف تبرق ، والدماء تسيل !

كان الامام الاوزاعى صاحب مهابة وجلال ، وله فى الفقه امامة ذات صدارة ، فقد تخرج فى مدرسـة الصحابة من امثال أبى عبيدة الجراح وبلال وشرحبيل ممن كان لهم بديار الشام مقام ، واخذ العلم عن عطـاء وابن سيرين ومكحول والثورى وروى عنه جمـاعة من مشيخة الفقهاء ممن كانوا فى طبقة أساتذته كقتـارة والزهرى وقد قال ابن خلكان فى ترجمته : « هو امام اهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه ثم حكى عنه ، أن سفيان الثورى بلغه مقدم الاوزاعى فخرج حتى لقيه بذى طوى فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه فى رقبته فكان اذا مر بجماعة قال ؛ الطريق للشيخ ، ومع أنه صاحب مذهب فقهى تبعه الناس احقابا ثم اندرس فقد كان أديبا فصيح اللسان ، قوى الاسلوب ، جزل العبارة ، وفى كتاب « أحسن المساعى فى مناقب الامام الاوزعى » نماذج من آثاره البليغة ، واذكر أنى قرأت قديما وعظا للاوزاعى ساقه الى ابى جعفر المنصور يصور به اليوم الآخر والنفخ فى الصور وقيام النـاس لرب العالمين ، والزام كل انسان طائره فى عنقه ، فمـا

رايت فى موضوعه اعذب وابدع مما صدر عن الاوزاعى للصدور من الوعاظ والمرشدين ، ولدينا فى مجـال الوعظ الدينى ادب حى يتطلب البعث والاشادة ، وهو تراث حافل يسوؤنا أن يضيع .

أحضر عبد الله بن على كبير علماء الشام وامام الفقه فى الاقليم ، فهش للقائه حين اقبل ، واجلسه فى صدر المجلس وكانه يحاول بالترحيب به أن يميله الى حاشيته ثم بدأ فتكلم عن مآثم بنى امية وما صنعوه بالحسين وآل البيت ثم ما قام به ولاتهم من امثال الحجاج وعمر ابن يوسف وعبد الله بن زياد من ارهاب وطغيان ،واتجه بالسؤال الى الاوزاعى فقال :

ـ يا أوزاعى ما تقول فى ثورتنا على الامويين ؟!

فرد الشيخ فى صرامة : قال صلى الله عليه وسلم « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى » .

فتمعر وجه عبد الله ، وظهر الغضب فى وجهه ، ولكنه كظم غيظه وسأل متجهما !

وما قولك فى دماء بنى امية ؟

فلم يلبث أن هتف الشيخ بالراى الصريح : قد كانت بينك وبينهم عهود وكان من الواجب شرعا أن تفى بها .

فلم يتمالك الطاغية أن صاح وقد اشرأبت اعناق القوم ـ اجعلنى واياهم لا عهد بيننا ! فنظر الاوزاعى فى حدة ثم صاح : دماؤهم عليك حرام !

ثارت ثائرة عبد الله وهم أن يبطش بالشيخ ، ولكن

ماذا سيكون بعد مصرعه ؟ ان الجريمة قد سجلت عليه دون افلات ! ولابد من ملاينته ليتراجع قليلا ، فاصطنع الهدوء وقال للأوزاعى : وما دليلك ياشيخ الشام ؟ .

فلم يمهله الاوزاعى أن هتف فى اعتداد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث ، النفس بالنفس ، والثيب الزانى ،والتارك لدينه المفارق للجماعة » !

تعقد المأزق واسود ، وضاقت الدنيا فى وجه عبد الله، ثم راى ان يتراجع عن الدماء ويسأل عن الاموال فقال فى استخذاء وما رايك فى اموالهم ؟.

وهنـــا اجاب الاوزاعى فى هدوء مستقر واطمئنان لا يتزعزع :

ان كانت اموالهم فى ايديهم حراما فهى حرام عليك ايضا . وان كانت حلالا فلا تحل لك الا بطريق شرعى . هنا بلغ الغيظ حدته بالطاغية فصاح محنقا : ما هذا اليس الامر لنا ـ آل البيت ـ ديانة ، فابتسم الاوزاعى قائلا : كيف هذا ؟ .

فرد عبد الله متحديا : الم يوص رسول الله صـلى الله عليه وسلم الى على ؟

فهز الاوزاعى راسه وقال فى ابتسام : لو اوصى اليه ما حكم الحكمين !! فاستشاط ابن على من الغيظ وصاح باتباعه أخرجوه ! اخرجوه ! واخذ يبيت فى نفســه للرجل الشر ليعصف به عن قريب ، انتشر فى الناس حوار الاوزاعى ، ولكن الطاغية يشغل عنه بالعبءالفادح اذ يجيئه النبأ بموت امير المؤمنين ومبايعة ابى جعفـر المنصور ، وكان يرى لنفسه الامر فيهيج هائجه ويهيىء

الجنود لمقاتلة المنصور زاحفا بكتائبه المتراصة ويرميه ابو جعفر بأبى مسلم ! فيتعارك الطاغيتان ، وتدور الدائرة على طاغية الشام ثم لا تمهل طاغية خراسان فيلقى مصرعه على يد طاغية ثالث ، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا.

مضت الايام وعاش الاوزاعى مبجلا مهيبا فى دمشق ثم ارتحل الى بيروت فأقام بها حيث جاءه اليقين ، فنفر الناس الى تشييع جنازته متزاحمين وتطلع عامل المدينة ليرى الجند المتزاحم خلف نعشه فيقول فى تعجب.

رحمك الله أبا عمر ! فقد كنت اخافك اكثر من امير المؤمنين .

عمرو بن عبيد
عالم مثالى

كان ابو جعفر المنصور من الهيبة والخشية بمنزلة توحى الرعب ، وتبعث الفزع فيمن يخالطونه ويشاركونه الحكم من أمراء ووزراء وقواد .

ولو نظرنا الى تاريخه نظرة فاحصة لرايناه ــ وان ملك الدنيا ودانت له الرقاب ــ غير سعيد بأبهته وسلطانه ؛ فقد راى الرجل من الاحداث المتناقضة المتضاربة منذ صباه الناشيء الى أن لقى ربه ما أورثه القلق والحيرة واليأس ، فقد كان يظن ابان نشأته الاولى فى حكم الامويين أن ما تعانيه نفسه من فزع ، وما تلقاه عشيرته من مضض سيزول حتما بزوال الدولة الاموية المستبدة ، ولذلك جاهد وجالد ، وانتقل الى شتى الاقاصى النائية ، ليبشر بيوم جديد ، تشرق فيه الشمس على العالم الاسلامى ساطعة منيرة ، ثم تغيرت الدنيا وتحقق الحلم المشتهى ، واصبح خليفة يأمر فيطاع ! فهل هدأت نفسه قليلا من شجنها الثائر ووجدها المقيم ! انه لينظر فيجد نفسه مضطرا الى أن ينقلب على أصدقاء الامس ممن بنوا مجده ، ورفعوا خلافته ، فتسيل دماؤهم على شفرات سيوفه ، وتتساقط رقابهم بضربات انانيته وحذره !! ثم

انه لا يقتصر فى ذلك على اصدقائه واعوانه ، ممن لا تربطه بهم أواصر الدم والنسب ، بل ينتقل الى ابنـــاء عمومته فيتخذهم خصوما اشد خطرا ، وأفزع أثرا من الاباعـد الغرباء ويعمل فيهم جبروته فيغتال الارواح ويســـفك الدماء !! وليت شره اقتصر علي بنى العمومة بل انتقـل الى بنى العباسى انفسهم ، فهو يقصى ولى عهده بتدبير ظالم ليمهد السبيل لنجله ثم يتتبع انصاره وخلصاءه فـــلا يفلت من يده أحد ، ويظن الظنون فى طوايا وزرائه ونيات قواده فيعصف فى الغد بصديق الامس ، ويحدث مـن الارتياب والقلق فى نفوس حاشيته ، ما يجعل الوزير المطاع يترقب يومه فى حذر واشفاق ، بل هو يسبر اغوار خلصائه ومعارفه محللا معللا فيجدهم مثله . طلاب جاه ونفوذ ، وعشاق اموال وقصور ، فليس فيهم من يخلص له النصيحة بنفس صادقة ، وسريرة طاهرة ، وانه ليرى فى وجوههم عيون الثعالب ، يديرونها ذات الشمال وذات اليمين ، وهو بعد مضطر الى مصانعتهم ، والتغاضى عن بعض مايأتون ، ليكونوا أعوان شدته ، ونصراء كريهته !! ليت شعرى : ـ أيستقيم له فى هذا العباب المضطرب هدوء واثق ، أو اطمئنان مريح لقد أخذ يستعيد تاريخ حياته ، ويفكر فى بعض من يعرفهم من ذوى النفـــوس الخيرة ، ليكونوا مستشاريه ونصحاءه ، فلم يكد يعثر على أحد ...

ثم لمع فى ذهنه فجأة خيال صديقه القديم العالم العابد الزاهد عمرو بن عبيد فراى فيه مثلا للصراحة المخلصـة والنزاهة الخالصة من المآرب والهوى ، والرجولة المترفعة

عن الرغبات والميول ، فبعث اليه من يستدعيه مكرما مبجلا ! وانه ليأمل ان يجد بعض الراحة معه حين يجلس لحظات مع نفس ملائكية لا تفكر فى غير نوازع الحق والخير والجمال ...

ولم يكن عمرو بن عبيد بالخامل الذكر او المجهول القدر فقد كان عالم البصرة وراس متكلميها وله جدل يفحم الخصم ، ولسان يفلق الصخر ..

وان اختلف اعداؤه معه فى آرائه الاعتزالية ، ومسلكه القدرى ورايه فى العدل والمعصية فهم متفقون جميعا الا من ندر على طهارة نفسه ، ونزاهة ضميره ، ومتانة خلقه ! وان أستاذه « الحسن البصرى » ليعبر عن شعور عارفيه ، حين يقول عن تلميذه التقى كلمة يفوح منها عبير المحبة والتقدير ، وقد خبره فى حلقات الدرس واكتشف سلوكه فى معاملة الانداد والنظراء ، فاندفع يقول عنه فى ثقة واعجاب :

ـ عمرو ماعمرو !؟ رجل كان الملائكة ادبته وكان الانبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به ، وان قعد لامر قام به ، وان امر بشيء كان الزم الناس له ، وان نهى عن شيء كان اترك الناس له ، ما رايت ظاهرا اشبه بباطن منه ، ولا باطنا اشبه بظاهر منه .

هذه التزكية المشرفة من امام خطير الراى والمكانة والثقافة فى عصره كالحسن البصرى .. لا تكفى لدفع لجاجة بعض خصومه فى الراى ، فاندفعوا وراء حقودهم الشخصية الى مهاجمته فى دينه وعقيدته . واذا كان الرجل قد افحم بالحجة والعقل ، ورمى تقولهم بالوضع

والافتراء ، واول مايعتمدون عليه من الآيات والاحاديث والنصوص ، فقد رموا منه بداهية دهياء ، على انه قد رزق من سلاسة القول وفصاحة العبارة ماملك ازمة العامة والخاصة ، فليس لخصومه معه فى جميع هذه النـواحى سبيل الى المجابهة والعناد ، وقد غلت الحقود المريضـة بعضهم فاندفعوا يسبونه سبابا جارحا ، يبرأ منه الخلق الاصيل ، حتى لقد جاء اليه بعض تلاميذه ذات صباح فقال له : يا ابا عثمان انى لارحمك مما يقول الناس فيك، فقال :

ـ يا ابن اخى اسمعتنى اقول فيهم شيئا ؟ قال : لا ، قال : فاياهم فارحم !

هذا الرد الوجيز البليغ يكفى على قصره ان يـكون مفتاحا لشخصية قائله ، فانه ليكشف لك النقاب عـن مشاعره واحاسيسـه لترى بذاته الداخلية افقا رحيبا من التسامح والعفة والنقاء ! وهذا بعض ماجذب المنصور اليه فبعث يستدعيه !!

لقد فكر عمرو بن عبيد فى دعوة المنصور اذ بلغته ، واخذ يسأل نفسه : ماذا يروم منى هذا الرجل ، وقد اعتزلت قصره وبلده ، وما فكرت فى زيارته منذ ولى امور الناس ، مع انه كان من اصدقائى الاقربين ايام شبابه فى الحكم الاموى ، فكان ينزل الى مسكنى فيعرف زوجتى واولادى واقربائى ، ويرى بنفسه ما آتى وما ادع مـن الامور !! لقد مضت السنون الطويلة دون ان اخطـر على باله فى مضمار عظمته المرهوبة ، وسلطانه العريض ! يعلم الله انى افر من هؤلاء المتسلطين فرار الصحيح من

الاجرب ، واعرف أن فى التقرب اليهم مشاركة ايجابية فيما يقترفون من المآثم ، ان لم يجابهوا بالنصيحة الحاسمة والمعارضة الصريحة ، كما أمر الاسلام ، ثم ماذا أصنع الآن ؟ أارفض الدعوة أم اجيبها ؟

هذا ما تردد فى نفس عمرو ! غير انه لم يلبث ان قطع كل تردد ، وصمم على زيارة أبى جعفر لا ليلاطفه ويخادعه بل ليقول له كلمة الحق فيما يأتى من الاشياء ، وهو بعد كما يعلم المنصور لا يخشى فى الله لومة لائم ! .. بل يقذف بالحق على الضلال .

فكر ابو عثمان فى أثناء طريقه فيما سيواجه به أبا جعفر من أشياء ، فهو فى ميزانه النزيه قد حاد عن طريق الخلافة الراشدة فيما قام به من تجبر وارهاب ، اذ جعل كل همه ان يثبت قوائم عرشه فتم ذلك على أشلاء الضحايا ، ومع رنات الثكالى والنادبات ، ولم يعتبر بما أصاب الدولة الاموية من انهيار ، حين سلك مسلكها الوبىء ، بل لم يعتبر بما حكاه القرآن عن ارم وعاد وفرعون ذى الاوتاد ممن طغوا فى البلاد ، ولابد أن يواجه بذلك ليرتدع عن غيه ، ولن يهتم عمرو بعاقبة . فحسبه ان أدى أمانة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى دنياه ، ثم ان الخليفة من ناحية ثانية قد نكس ببيعة ولى العهد واجبره على النزول عن حقه لولده المهدى ! وولاية العهد عن طريق الوراثة فى منطق عمرو وفى رأى الاسلام الصحيح مفسدة تضر بالدولة وتقدم الفشل الكسول ليحتل مكان الحازم الادارى الصبور ! فليواجه ابو جعفر بذلك ليكون على بصيرة مما تحت قدمه من بركان ، أما حاشيته المتملقة ،

فلابد ان ينالها نصيب من اللوم والتفريط ، فقد كانت عون الباطل على رسالته ، وما برحت تميل مع السلطان حيث يميل لتضمن الجاه الزائف ، وتختلس فى نطاق الرياسة ماتصل اليه الايدى من قصور وضياع وأموال ! وتلك ثالثة الاثافى فى منطق العالم الصابر الزاهد !

وحان موعد اللقاء ، فما إن علم ابو جعفر بوصول عمرو حتى اسرع فى استدعائه وتخطى الى حضرة الخلافة مئات الوجهاء من الاعيان والقواد والعلماء ، ممن قعدوا يلتمسون الاذن ، وينتظرون على احر من الجمر ان يشملهم الخليفة برعايته ، فيسرع فى قبول المثول ، وقد علم الخليفة من سيلقى من العلماء المخلصين ! فوطن نفسه على الاستكانة والامتثال ، وحسبه ان يسمع صوت الحق النزيه بريئا من الاغراض والشبهات ، وادركته حصافته فراى ان ينتقل من حجرة الخلافة ذات الارائك المذهبة ، والنمارق المزركشة الى حجرة متواضعة ، فرشت بالحصير كيلا يعلن الرجل احتجاجه قبل السلام !!

وقد هش للقاء صاحبه وعانقه وقبله ، ثم رفع اليه عينه وهو يقول فى انكسار : عظنى يا أبا عثمان !

نظر عمرو الى الخليفة نظرة تنطق بجميع ما يضمر من سخط وانكار ، ثم جللته سكينة وضيئة جعلت وجهه طاقة من نور ، واندفع يقرأ بعد البسملة قول الله :

« الم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الاوتاد الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك

لبالمرصاد » ، وكرر الآية الاخيرة فى تحد جريء عنيد ففهم امير المؤمنين مايعنى ابو عثمان ، وملكته رعشة مرنحة فتساقطت من عينه الدموع !!.

فلم ينقطع الرجل عن قوله ، وصاح : ان الله اعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، واعلم ان هذا الامر الذى صار اليك انما كان فى يد من كان قبلك ثم افضى اليك ، وكذلك يخرج منك الى من هو بعدك ، وانى لاحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة يا امير المؤمنين !!

وكان سليمان بن مجالد كبير حاشية المنصور يسمع ويرى فاستفظع ماطرا على الخليفة من حزن واضطراب ، وصاح بأبى عثمان رفقا بأمير المؤمنين فقد اتعبته منذ اليوم !

فرفع عمرو راسه وقال له : من انت ؟ فقال ابو جعفر: او لا تعرفه يا ابا عثمان ؟ قال : لا ، وما ابالى الا اعرفه! فأجاب المنصور : هذا اخوك سليمان بن مجالد ، فضحك عمرو متهكما وقال : هذا اخو الشيطان ويلك يا ابن مجالد! خزنت نصيحتك عن امير المؤمنين ، ثم اردت ان تحول بينه وبين من اراد نصيحته ! يا امير المؤمنين : ان هؤلاء اتخذوك سلما لشهواتهم ، فانت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ، فاتق الله فانك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ومبعوث وحدك ، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئا !!

اخذ الحاضرون من رجال الحاشية بصراحة ابى عثمان! وعلموا ان الرجل قد هتك بصائرهم المدخولة بما قال ، وعقدت رهبة الحق السنتهم فتدافعوا يتلاحظون بنظرات

ضارعة منكسرة ، وتطلعوا الى الخليفة فى حذر فسمعوه يقول : يا ابا عثمان أعنى بأصحابك فأستعين بهم دون هؤلاء ، فرد الرجل فى قوة : اظهر الحق يتبعك أهله !.

يالها من ساعة حرجة فرج فيها العالم الناصح عن نفسه بعض مايعتلج بها من شجون لقد ذكر رايه صريحا فى جبروت الحاكم وطغيان الحاشية ، وبقى ان يعلن رايه فى المهدى ولى العهد الجديد !! فنظر بين الحاضرين الى شاب مترف عليه دلائل الامارة والجاه ، وتوقع باستشفافه الملهم ان يكون الشاب ولى العهد ، فرفع راسه ليسال المنصور : من هذا الفتى يا ابا جعفر ؟ فرد الخليفة : هذا ابنى محمد ، وهو المهدى ، ولى عهد المؤمنين ، فاهتبلها فرصة سانحة وقال : والله لقد سميته اسما ما استحقه بعمل ، والبسته لبوسا ماهو من لبوس الابرار ، ومهدت له أمرا امتع مايكون به اشغل ماتكون عنه !

تضايق الخليفة من صراحة الرجل ، واراد ان يتخلص من لقائه فسأله فى تصنع : هل من حاجة ؟ فقال : نعم ، فتعجل ابو جعفر يسال : وما هى ؟ فقال ابو عثمان : الا تبعث الى حتى آتيك ! قال : اذن لا نلتقى . قال : عن حاجتى سألتنى ، ونهض قائما فودعه الخليفة ، ومكث حائرا لا يدرى مايصنع ، فكأنه تقيد فى مجلسه ، ثم جعل يفكر فى منطق هذا البطل العظيم ، وكيف صدقه القول حين كذب عليه الناس ، وتذكر — بكل مرارة — فاقته وحرمانه وكيف ضن معها بكرامته ان يأخذ درهما أو دينارا هما بعض حقه فى بيت المال ، وتدافعت فى مخيلة الخليفة صور المتملقين والمادحين ، ممن يتلمسون الكسب الكثير

وراء نصيحة خادعة ، او مشورة موهومة ! وكم شاهد فى مدى حياته مئات من هؤلاء يتوجهون اليه وبريق الذهب يخطف أبصارهم فما يزالون يسألون ويلحفون !!

انه ليكشف دخائل هؤلاء جميعا فيرى نفسه ـ وهو الخليفة ـ فريسة يتطلع اليها الصائدون بحبائل مستترة تدب خفية الى خزائنه ووظائفه ، فتفوح منهـــا رائحـة الاثرة والاستكلاب !!

وما يزال صدره يجيش بأمثال هذه المعانى ، حيث تجبره على التعبير عنها فى نغم منظوم ، فيجده يغنى بهذه الشطرات البليغة .

كلكهم طالب صيد .. كلكم يمشى رويد .. غير عمرو ابن عبيد فأى عالم ذلك الذى رنح أوتار الخليفة حتى دفعه ـ وهو غير شاعر ـ الى مديحه بشطرات من الشعر كانت فى حقيقتها متنفسا سريعا لمشاعره المتلاطمة ! ذلـكم هو أبو عثمان عمرو بن عبيد !!

أبوحنيفة
شهيد الحق

كانت شخصية ابى حنيفة اقوى واعظم من ان تخضع لطغيان ، فقد وهب من عزة النفس ورصانة الخلق ؛ وشدة الاحساس بالكرامة والرجولة ما جعله بين المناضلين الاماثل قمة شماء .

واكبر الظن ان آراءه الفقهية لم تتمكن من حقب التاريخ على مر عصوره هذا التمكن الصخرى بين الناس . الا لان صاحبها الماجد كان ذا شخصية راسخة متمكنة ، تواجه الحجاج فى معترك الفقه ببسالة صامدة ، كما تواجه الحجاج فى معترك السياسة بعزة كريمة !! فقد كان رضى الله عنه من اقوى المتكلمين مناظرة وحوارا ، ثم تحول الى الفقه ، فخلع عليه من جلال المنطق وقوة القياس ودقة الاستنباط ، ما فتح به ميادين مغلقة ، ومهد طرقا مستعصية . وقد كان خصومه فى الراى الفقهى يدهشون لقوة سطوته وسرعة بديهته ، حتى ليخافوا أن يواجهوه فى معترك النقاش ، وهم بعد أصحاب منطق ونص ، وأهل تفسير وتشريع !!

هذه الشخصية المثالية ، عرفت كيف تحافظ على كرامتها العزيزة ، فى دنيا المطامع والرغبات ، فلم يشأ

ان يستظل بوال يغدق عليه من رزقه حين يتفرغ للفقه والدرس كما فعل كثير من العلماء ، ولكنه ربأ بعزته ان يمن عليها مان بصنيعة ، فامتهن التجارة ليجد من أبواب الرزق ما يساعده على رفاهة عيشه فى تصون واباء ، وقد صدقت نيته ، فوسع الله عليه كل خير ، وأصبح من الثراء بالموضع الذى يجعله يتصدق بالآلاف والمئين ،وهو بعد مهيب الجانب سامى التقدير .

وقد شاء له الحظ ان يحترق بنيران السياسة ، فكشفت عن جوهره الذهبى ، اذ انه نشأ فى الفترة العصيبة التى أدت الى سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية ، فشاهد عهدين يختلفان فى الاشخاص والاسماء ويتحدان فيما كان من تهور البغى ، واستفحال الشر ، واخذ البرىء بذنب الآثم ، وارهاب بما يمنعه الدين والشمم الكريم .. حتى خاف كل مسلم على نفسه ،واخذ يتوقع الشر صباح مساء !!

كان الحكم الاموى قد طغى شره ، واستشرى خطره ، فالخلفاء يظلمون ، ويعاهدون فيقدرون ، ثم يرسلون من الولاة من يترضاهم بالعنف والقهر ، فيبالغ فى اراقة الدماء وتكميم الافواه دون حساب ، وقد قامت الثورات الناقمة فى كل مكان ، فكانت تنتهى بمجازر رهيبة . تسفك فيها الدماء دون تحرز ، بل ربما كانت شدة الانتقام دليل التغلب ، وبرهان الانتصار ، والمشفقون من ذوى الاصلاح فى الامة لا يجدون من القوة ما يدفع البغى فتغلى نفوسهم من الغيظ والحنق متطلعة الى صباح جديد تشرق شمسه بنور الهداية والسداد ، وأبو حنيفة فى مقدمة هؤلاء ،

يرى البغى فيستنكر ، ويهم بالثورة عليه فلا يجد من يلتف حوله ثم يتذكر عواقب الثورات ، وما صنعت بزملائه الفقهاء كزيد بن على وسعيد بن جبير فيصعد من صدره آهة حبيسة ، ويتطلع الى نصر من الله وفتح قريب !

فى اثناء هذا الضيق الكاظم المستحكم جاءه رسول الطاغية يزيد بن هبيرة والى العراق يدعوه الى ان يلى القضاء ، مع فريق من رجالات الفقه والتشريع ، وكان للامام بصيرة لا تخطىء ، فقد ادرك ان هذا الوالى ورؤساءه من الخلفاء يريدون أن يتخذوه وامثاله من العلماء مطية للشر ومركبا للخطر ، اذ يتخذونهم للقضاء فيعلمون الناس ان رجال الفقه وحماة الشريعة يؤيدون حكمهم الطاغى ، ويباركون عهدهم الظالم ، فيصبحون اداة تخدير تخذل الحق وتعين الباطل ، ويالها من كارثة دهياء .

لقد اجاب الى ذلك بعض الزملاء من الفقهاء ، ولكن الناس معادن مختلفة ، ومعدن ابى حنيفة من الذهب النضار ، فهو لا يخدع بمنصب ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب ، فأعلن الرفض صريحا واضحا ، وقال لمن يحاوره من العلماء فى عزة كريمة : « والله لو اراد ابن هبيرة أن أعد له أبواب « مدينة » واسط لم ادخل فى ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مؤمن واختم انا على ذلك الكتاب ، والله لا ادخل فى ذلك ابدا »

واستعظم الوالى الطاغية رفض ابى حنيفة فسجنه اسبوعين عساه إن يرجع فما استكان ، ثم امر بضربه بالسياط ، فكان يجلد كل يوم عشرة اسواط حتى تخطى

المائة ، واشفى على الهلاك ، ولا يزداد الا ثباتا أمام الله ، فبالعظمة الايمان :

كان مالابد ان يكون ، فقد سقطت الدولة الاموية على طغاتها الجبارين سقوطا اورثهم القتل والفناء والتشريد . « وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخــذه اليم شديد » جاءت الدولة العباسية ففرح المخلصــون لقيامها ، وظنوا أن أسرة العباس عم رسول الله ستــرى من الكرامة والحق ما اهدره بنو أمية ، فتدعو الى الخير بالتى هى احسن آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، ولكن الظن قد خاب ، وصدم هؤلاء المخلصون فى آمالهم حين راوا الدولة الاموية تعود ثانية ببطشها الغاشم ، وقهرها الظالم تحت ستار اسماء تنتسب الى رسول الله ، وتهدر شرعته فى احقاق العدل واستتباب الامن ، وكانت محنة قاسية نزلت بالمؤمنين فأخذوا يتساءلون ملتاعين : متى نصر الله ؟

كان ابو حنيفة اشد هؤلاء المخلصين ضيقا بالشر ، وتبرما بالخلافة فاهتبل ثورة « النفس الزكية » وانضم الى رجالها ، وافتى بتأييدها كما فعل زميله الإمام مالك ابن انس رضي الله عنهما ، وتعرضا بذلك الى شر كبير ، وخطر محيق ، فقد هال المنصور ان يجد أعلام الشريعــة يقفون منه موقفهم من الامويين ، ثم راى أن يترضى ويصانع ليصل بهم الى هدنة مسكنة فيستريح !!

ولم يكن الخليفة يجهل من ابو حنيفة ؟ ، فقد عرفه فى العهد الاموى غيورا لم يخش الا الله ، وهو بعد تاجر ذو ثراء لا يطمع فى مال السلطان او منصبه ، وله من حلقات

الدرس ، ومن تلاميذه المنتشرين فى الآفاق ما يضفى عليه الصيت الطائر ، والذكر الحميد على عزوفه ـ رضى الله عنه ـ عن كل ما يطمع فيه العامة من سيادة قدر ، ونباهة ذكر ، كما عجم عوده يوم احتكم اليه مع زوجته ، فرأى منه فقيها صلبا لا يتخشع ولا يلين ، فقد كان فى شقاق مع زوجته الحرة واراد ان يقترن بأخرى ، فعظم الامر عليها ولاقته مغضبة ساخطة ، فاحتج عليها بأنه لا يصدر فى زواجه بالثانية عن غير امر الله ، ثم رات أن تحتكم الى ابى حنيفة وحده ، ووافق المنصور فى سهولة ، ظنا منه ان الحكم الشرعى من الوضوح ، بحيث لا يقف أمامه ابو حنيفة ذو الراى والقياس ، وحانت ساعة الحكم ، فقال ابو حنيفة : ليتكلم أمير المؤمنين . فقال أبو جعفر : يا ابا حنيفة كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء فيجمع بينهن ؟ فقال : اربع . فسأله ثانيا : وهل يجوز لاحد ان يقول خلاف ذلك ؟ فقال : لا ، فنظر المنصور الى زوجته متهللا وقال :

« قد سمعت يا هذه ! فتدارك ابو حنيفة يقول فى مجابهة انما احل الله هذا لاهل العدل يا أمير المؤمنين ، فمن لم يعدل أو خاف الا يعدل ، فينبغى الا يتجاوز الواحدة . قال تعالى « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » فينبغى ان نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه ، فسكت ابو جعفر على غيظ ، وطال سكوته ؛ فاستأذن الامام وخرج ذاهبا الى منزله ، فوجد خادم زوجة الخليفة فى انتظاره يحمل مالا وثيابا ومعه دواب وجارية فرد ذلك فى

اباء وقال كلمته المشهورة : انما ناضلت عن دينى ، وقمت ذلك المقام لله ، ولم ارد شيئا من امور الدنيا !!

وعادت الهدية ثانية ليراها ابو جعفر فيتدبر .

هذا الموقف الحاسم قد أكد للخليفة ثبات الامام ، وقوة يقينه ، ورأى فيه هضبة عسرة المرتقى ، ومطمحا لا ينال ، وصمم أن يتغاضى عن معارضته ويجر عليه ذيل التهاون ، ولكن حوادث الزمان لا تتيح له أن يهمل رجلا ذا مكانة عالية ، ورأى مسموع ، وسيصطدم به رفض أو اراد ، وقد تحقق ذلك عاجلا حين دعا ابو جعفر علماء العراق ، ليأخذ رأيهم فى أهل الموصل ، حين اشترط عليهم ان يستحل دماءهم اذا انتقضوا على حكمه ، ثم ما لبثوا أن خالفوا الشرط فهبوا ثائرين !

قال ابو جعفر لمن حضره من العلماء : الم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم « المؤمنون عند شروطهم » ، واهل الموصل قد اشترطوا الا يخرجوا على ، فان فعلوا حلت دماؤهم باقرارهم الصريح ؟

فرد أحد الحاضرين : يدك يا أمير المؤمنين مبسوطة عليهم ، وقولك مقبول فيهم ، فان عفوت فأنت أهل العفو ، وان عاقبت فيما يستحقون ، فنظر الخليفة الى ابى حنيفة وسأل : وماذا تقول انت : السنا الآن فى خلافة نبوة واهل ايمان !

فرفع الامام ـ نضر الله وجهه ـ صوته يقول : انهم اشترطوا لك مالا يملكونه وشرطت عليهم ماليس لك ، لان دم المسلم لا يحل ، وشروط الله أحق ماتوفى به .

فاضطرب ابو جعفر ، وامتقع وجهه امتقاعا يدل على

ما يتردد فى صدره من غيظ ، ثم اذن للعلماء فانصرفوا ، واستبقى أبا حنيفة فخلا بهما المكان وصاح ابو جعفر : لقد احرجتنا امام الناس ، فانصرف الى بلادك . ولا تفت بما هو شين على امامك ، وخرج من المجلس مغضبا ، فخرج أبو حنيفة غير هياب .

وبعد : أفيترك الخليفة ابا حنيفة يعلن عن رايه صريحا فى جبروت الخلافة وطغيانها ، وله من الاتباع والانصار ما يعتقدون رايه ويؤمنون بكل أحكامه ، فيتسع الخرق، وتهب الريح أم يبادر بتلمس أسباب المكيدة له ، فيرتاح من خصم عنيد ؟ لقد تذكر ابو جعفر ان يزيد بن هبيرة قد عرض عليه القضاء فرفض فكان نصيبه السجن والضرب بالسياط ، فلماذا لا يعرض عليه القضاء كما فعل يزيد ، والرجل لا محالة رافض اباء ، فاذا وقف موقفه السابق ، فقد دنت ساعة القصاص وكان ابوحنيفة منطقيا مع نفسه حين جاهر بالرفض ، فالطاغية الظالم فى منطق الاسلام طاغية يجب ان يحارب سواء أكان امويا أم عباسيا ، وحكم القضاء لديه لابد ان يسير وفق هواه، والا فليست لدى القاضي العادل قوة ما ، تحتم التنفيذ والارغام ، وأصر أمير المؤمنين واصر الامام ، وحلف ابو جعفر ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة الا يفعل وقال : انى لا أصلح للقضاء . فقال الربيع بن يونس وزير أبى جعفر :

« الا ترى أمير المؤمنين يحلف » فرد أبو حنيفة فى صراحة عنيدة :

ـ أمير المؤمنين اقدر على كفارة ايمانه منى !!

فأمر به ابو جعفر ، فقيد الى السجن واستدعاء

بعد ايام وسأله :اترغب عما نحن فيه ؟ فاجاب : ـ أصلح الله أمير المؤمنين ـ لا اصلح للقضاء . وهنا صاح الخليفة منفعلا : كذبت .

فلم يخن الامام منطقه الصائب وقال : لقد حكم على امير المؤمنين انى لا أصلح للقضاء لانه ينسبنى الى الكذب فان كنت كذابا فلا أصلح ، وان كنت صادقا فقد اخبرت امير المؤمنين بعدم صلاحيتى للقضاء !!

واشتط النزق بالمنصور ، فامر بالسياط ان تنهال على جسد الشيخ الواهن تشويه فى محبسه الرهيب ، حتى اكتملت مائة وثلاثين سوطا ، فخرج عبد الرحمن بن على ابن عباس عم الخليفه وصاح به : لقد سللت على نفسك مائة الف سيف ، هذا فقيه أهل المشرق يضرب بالسياط فى غير جرم ، دون أن تخشى انتقام السماء !!

فتراجع ابو جعفر وقد هدات نفسه قليلا ، فأمـر باطلاقه من السجن ، وارسل اليه ثلاثين الف درهم ، فلما وضعت بين يديه رفضها فقيل له : لو تصدقت بها على المحتاجين ، فرد فى استهانة : ومن يضمن لى انهـا جمعت من طريق الحلال .

وبلغت الكلمة آذان المنصور فكانت عليه أشد وقعـا من النصال ! ثم جاءته الانباء بوفاة أبى حنيفة متـأثرا بجراحه ، فأطرق قليلا يستعرض عجائب بطولتـه ، ثم راى ان ينصرف الى مهام خلافته ، فقد استراح أبو حنيفة حين انتقل الى جوار الله ، راضيا مرضيا وبقى هو حائرا يفكر فيما اسلف فى دنياه من أهوال يطول عليهـ الحساب . !

عظمة مالك بن أنس وإباؤه

لقد كان الامام مالك معاصرا لقرينه ونده الامام ابى حنيفة ، جمعتهما محنة واحدة حين اشتركا فى الافتاء ضد ابى جعفر ، فكان من الانسب أن نخصه بهذا الحديث بعد ما تقدم عن صاحبه الكبير !!

على أن هناك فرقا واضحا بين الرجلين فى مسلكهما ازاء الخلفاء ، فأبو حنيفة مجانب لا يقرب السلطان ؛ ومالك يرى المنفعة فى زيارة ولى الامر ، ويظهر ذلك جليا واضحا فيما ننقله من هذه النصوص .

فقد روت كتب التاريخ قوله رضى الله عنه : حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل الى ذى سلطان ، فيأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره ، فان وعظه ونهاه فهو الفضل الذى ليس بعده فضل !.

وسئل : لماذا تدخل على السلاطين ؟ وهم يجورون ويظلمون . فقال للقائل : رحمك الله وأين التكلم بالحق !!

بل انه ليمعن فى الامر روية وتفكيرا ، حين يدركه الضعف الجسمى ، فيعتزل المسجد بعض الوقت ثم

لا يعتزل دار الحكم ويسأل فى ذلك فيقول : واما اتيانى الامراء فبالحمل منى على نفسى ، فانه ربما استشير بعض من لا ينبغى ان يستشار !!

واختلاف الامامين ابى حنيفة ومالك فى هذه الناحية مما غرسه الله فى قلوب البشر ، اذ لو شاء ، لجعل الناس امة واحدة ، ولكل وجهة هو موليها . !!

والحق ان جلال العلم ووقار الايمان كانا يلفان مالكا بهالة وضاءة ذات تقدير واكبار ، حتى انه ليعارض رؤساء الدولة وأمراءها دون وجل امام الاشهاد ، وتبلغ به عزة العلم مبلغا تهون لديه أبهة الحكم ، وروعة الجاه ، وقد عرف الامام قدره الرفيع فلم يهبط من اوجه المثالى بل ظل سامقا تتطلع اليه العيون فى خشية واكبار .

لقد سعى الخليفة المهدى الى منزله ، ووراءه حشد من الاتباع والاجناد ، ثم استأذن فى الدخول وظن الناس ان مالكا سيسرع باستقبال أمير المؤمنين على عجلة واندفاع ولكن الوقت يطول ، والامام داخل منزله لا يبرح ،والخليفة محرج لا يدرى ، ماذا يصنع امام رعاياه ، حتى اذا نفد الصبر بعد امد طويل ، خرج الامام متئد الخطو ليقول فى صراحة بريئة : كنا نصلح منزلنا دون عجلة ، ليرى الناس لدينا ستر السماء ونعمة الله !!

والح عليه المهدى ان يسعى الى قصره ليعلم ابنيه موسى وهارون ، فنظر الرجل فى هدوء الواثق ، وصاح فى حزم : لا يا أمير المؤمنين العلم يؤتى ولا يأتى ، واضطر الخليفة ان يبعث ولديه ، فكانا يقفان على المنزل فيدقان

عظمة مالك بن أنس وإباؤه

لقد كان الامام مالك معاصرا لقرينه ونده الامام ابى حنيفة ، جمعتهما محنة واحدة حين اشتركا فى الافتاء ضد ابى جعفر ، فكان من الانسب أن نخصه بهذا الحديث بعد ما تقدم عن صاحبه الكبير !!

على أن هناك فرقا واضحا بين الرجلين فى مسلكهما ازاء الخلفاء ، فأبو حنيفة مجانب لا يقرب السلطان ؛ ومالك يرى المنفعة فى زيارة ولى الامر ، ويظهر ذلك جليا واضحا فيما ننقله من هذه النصوص .

فقد روت كتب التاريخ قوله رضى الله عنه : حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل الى ذى سلطان ، فيأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره ، فان وعظه ونهاه فهو الفضل الذى ليس بعده فضل ! .

وسئل : لماذا تدخل على السلاطين ؟ وهم يجورون ويظلمون . فقال للقائل : رحمك الله وأين التكلم بالحق !!

بل انه ليمعن فى الامر روية وتفكيرا ، حين يدركه الضعف الجسمى ، فيعتزل المسجد بعض الوقت ثم

لا يعتزل دار الحكم ويسأل فى ذلك فيقول : واما اتيانى الامراء فبالحمل منى على نفسى ، فانه ربما استشير بعض من لا ينبغى ان يستشار !!

واختلاف الامامين ابى حنيفة ومالك فى هذه الناحية مما غرسه الله فى قلوب البشر ، اذ لو شاء ، لجعل الناس امة واحدة ، ولكل وجهة هو موليها . !!

والحق ان جلال العلم ووقار الايمان كانا يلفان مالكا بهالة وضاءة ذات تقدير واكبار ، حتى انه ليعارض رؤساء الدولة وأمراءها دون وجل أمام الاشهاد ، وتبلغ به عزة العلم مبلغا تهون لديه أبهة الحكم ، وروعة الجاه ، وقد عرف الامام قدره الرفيع فلم يهبط من اوجه المثالى بل ظل سامقا تتطلع اليه العيون فى خشية واكبار .

لقد سعى الخليفة المهدى الى منزله ، ووراءه حشد من الاتباع والاجناد ، ثم استأذن فى الدخول وظن الناس ان مالكا سيسرع باستقبال أمير المؤمنين على عجلة واندفاع ولكن الوقت يطول ، والامام داخل منزله لا يبرح ،والخليفة محرج لا يدرى ، ماذا يصنع امام رعاياه ، حتى اذا نفد الصبر بعد أمد طويل ، خرج الامام متئد الخطو ليقول فى صراحة بريئة : كنا نصلح منزلنا دون عجلة ، ليرى الناس لدينا ستر السماء ونعمة الله !!

والح عليه المهدى ان يسعى الى قصره ليعلم ابنيه موسى وهارون ، فنظر الرجل فى هدوء الواثق ، وصاح فى حزم : لا يا أمير المؤمنين العلم يؤتى ولا يأتى ، واضطر الخليفة ان يبعث ولديه ، فكانا يقفان على المنزل فيدقان

الباب ، والريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق ، حتى يأتى الاذن فيسرعا بالدخول !

ومضت الايام ومات المهدى ، ومن ورائه الهـادى واصبح هارون الرشيد صاحب الامر فى ديار الاسلام ، واشتاق الى ان يجالس مالكا ، فى قصره ببغداد وانى !! وقد تعذر ذلك على ابيه واخيه ، ثم راى أن يكبت رغبته، ويزوره بالمدينة فى موسم الحج ، فيسمع منه حـديث رسول الله ليعلم القاضى والدانى ان الخليفة العظيم من تلاميذ أمام دار الهجرة ، فتزداد مكانته بين النـاس ، ويستشعر لذة تغمر نفسه ببهجة وارتياح ، وعلم الامام ان امير المؤمنين ناهض لزيارته ، ليأخذ مجلس التلميـذ من الاستاذ ، فاغتسل رضى الله عنه ولبس ثيابا جددا ، وتطيب ووضع مجامر الند والعود ، وهذا ما كان يفعـله دائما تعظيما لحديث رسول الله لا حفاوة بالزائر الكبير !! حتى اذا حضر الخليفة قال له مالك : تقرأ على ، فخشى الرشيد أن يخطىء أمام الجمهور فقال فى ارتباك : تقـرأ انت ان أردت ، فقال مالك ما قرأت على احد منذ زمان ، فاطرق الرشيد ثم قال : اذن فأخرج الناس عنى ، فرد مالك فى روعة وايمان : ان العلم اذا منع من العامة لاجل الخاصة لم ينتفع به احد !! فقال الرشيد : ليقـرأ بعض اصحابك ان اردت ، فامر مالك تلميذه المغيرة فقرأ ،وجعل يفسر مايقرأ ، والرشيد وحاشيته وعامة الحـاضرين منصتون ، كان موسيقى عذبة تترنم بها ملائكة الله فى اجواز السماء !!

هذا الاعتزاز النادر بالعلم قد سما باصـحابه سموا

لا يبلغه غير ذوى النفوس الموهوبة ، من حملة الرسالات وأرباب الاصلاح وقد حرص مالك على التزامه ، مهما ترك من الاثر الفعال ، فقد دخل الرشيد ذات عام عليه ، فأخذ مكانه الى جواره فى مجلس الحديث ظانا أنه لم يفعل فى ذلك مايوجب الملام ، ولكن مالكا يصيح : يا أمير المؤمنين : من تواضع الى الله رفعه ومن تكبر على الله وضعه ، فيلتفت الرشيد مأخوذا ويسأل : ماذا صنعت ؟ فيقول مالك : ان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم فى مجلس علمه ، فقم واقعد بين يدى ، فأسرع الرشيد ممتثلا حتى اذا انتهى من درسه قال لبعض خلصائه :

« اننا نتواضع لننتفع به ، وقد تواضع لنا سفيان بن عيينة فلم ننتفع به شيئا .. ونحن نقول كلمة الحق حين نذكر للرشيد هنا هدوءه وانتصاحه ، وقد كان فى وسعه ان يغضب على الاقل . او يبادر بالانسحاب !!

ولم يبلغ الامام رضى الله عنه هذه المنزلة ، اعتباطا بل ارتفع الى قمتها العالية بعد جهاد طويل ، وامتحان شاق تجلى عن ايمانه وعزمه ، فصارت له فى نفوس المسلمين مكانة مبجلة ، وانتشر تلاميذه فى الافاق يحملون المأثور من علمه ، والجليل من أفعاله ، وصارت الرحلة الى مدينة رسول الله واجبا اكيدا ، يقوم به طلاب العلم فى شتى الامصار ، ليروا مالكا وينقلوا افتاءه ، ويسجلوا اسناده ، وكان اذا بدأ الدرس خشعت الاصوات،واطرقت الاعناق حتى قال فيه القائل :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة
والحاضرون نواكس الابصار

وحسبك ان تزدحم مدينة رسول الله لعهـده بتلاميذ الصحابة والتابعين ثم يمضى المثل الشرود قائلا : لا يفتى ومالك فى المدينة !! وسنعرض هنا بعض ما تحمل فى سبيل الحق من عذاب،حين جابه الطغيان بافتائه القاصم .

لم تكد الايام تمر بمفاجآتها وصعابها على الدولـــة العباسية حتى تألبت على أصحابها الجموع الحاشدة ، اذ لمست مدى الخيبة الاليمة فى آمالها واهدافها ، ورات أن السفاح والمنصور كليهما يسيران فى طريق بنى أمية تنكيلا بالضحايا ، وسفكا للدماء ، ونظر المسلمون فوجدوا أن أصحاب الحق يحاربون ويضطهدون ، كأن أمية لا تزال تأخذ عليهم طريقهم ، فلا يجدون نفعا فى الارض أو يطيرون بجناح الى السماء ، وتجمعت الرغبات فى الصدور ملتهبة محتدمة ، حتى تمخضت عن ثورتين بالمدينـــة والبصرة قام بهما محمد بن عبد الله بن الحسن واخـوه ابراهيم بن عبد الله !! وارتجف المنصور ارتجافا أذهله وشرد أمنه ، فأخذ يتوقع الشر الماحق من حين الى حين ، ثم جاءته الانباء أن كبار العلماء من امثال ابى حنيفة ومالك يؤيدون الثائرين ، ويرسلون الفتاوى فى تحبيذ الجهـاد ومحاربة الطغاة !! فاستعان الخليفة بحيلته الماكـــرة ، واخذ يخادع ويداهن ، حتى استطاع أن يستميل الكثيرين من مناوئيه باذلا مغريات الوعود من جاه ومنصب وثراء . ولكن أحابيله الخادعة لم تستطع أن تمتد الى الامامـين الكبيرين فى شيء ، واذا كنا فى الموضوع السابق قد تحدثنا عن أبى حنيفة ، فنحن هنا نتحدث عن مالك لنســجل أنه شاهد بعض المترددين فى تأييد الثورة ينكصون عنها بحجة

أنهم بايعوا المنصور ، فلا يجوز لهم ان ينقضوا البيعة بعد أن حلفوا الايمان المؤكدة بالطلاق على الطاعة والاذعان ، فأصدر رايه الحاسم بأن طلاق المكره لا يقع ، وهم قد بايعوا المنصور مكرهين فلهم ان يتحللوا من بيعته غير آثمين .. وطارت الفتوى الى المنصور فكادت أن تزلزل ثباته ثم راى أن يستوثق فأرسل يهادنه ويستميله فما رجع رسوله بطائل ، بل قال له انه استمع الى مجلس الامام بالمدينة ، فراى سائلا يسأله عن الثائرين على الخلافة : هل يجوز قتالهم ؟ فأجاب فى غير تحفظ : إن خرج الثائرون على مثل عمر بن عبد العزيز عدلا واستقامة جاز قتالهم ، والا فهم طلاب حق مشروع !

وجاء سائل آخر فسأل عن نكاح المتعة بعد أن فشا بين الامراء من بنى العباس ، وفيهم خاصة المنصور وارباب مشورته ، وأعوان طغيانه ، فأعلن انه نكاح باطل وأن مايروى فى حديث ابن عباس عن جوازه مكذوب موضوع !! وليست الفتوى فى هذه المسالة مشكلة فقهية يختلف فيها رأى عن رأى ، ولكنها طعن سياسى يتجه الى عصابة الحكم ويدمغهم بالعصيان ، فيزيد الناس نفورا وامتعاضا ، ويبذر كثيرا من بذور الفتنة والشقاق !!

وقد شاءت الاقدار أن يقضى أبو جعفر على الثورة ، ويقتل بنى عمومته من الثائرين ، وليس من منطق الاشياء فى قانون متجبر طاغية كالمنصور ان يعفو عن خصومه من العلماء ، ومالك فى طليعتهم ، فصب عليه سوط عذابه ، وأمر عامله على المدينة فجرده من ثيابه دون ما يستر العورة ، ثم طرحه على الارض وأوثق رجليه ويديه بالحبال الغليظة ، وانهالت السياط على الجسد المؤمن الصابر حتى

بلغت الثمانين وترك مغمى عليه وهو بعد شيخ كهل ، يسير فى العقد السادس من عمره . وقد بقيت آثار السياط على جسده ، فلم تفارقه حتى لقى الله !!

وكان فى الرجل بقية من قوة ، فاستطاع ان يحفظ توازنه بعد المحنة ، على حين مات ابو حنيفة متأثرا بسياطه ، وشاع الحزن فى بغداد وسائر مدن الاسلام على الامام الفقيد والامام المريض ورن الصدى الساخط فى اذن المنصور فندم ولات ساعة مندم ، وعلم أن الامر قد نفذ فى ابى حنيفة اذ فصل الموت مابينه وبينه ، ولكن مالكا لا يزال حيا بعد !! فسعى اليه معتذرا متنندما ،وأخذ يحلف أمام الجموع الناقمة أن عامله على المدينة هو الذي قام بجلد الامام دون مشورته ، وأتقن الدور فعزل العامل وعذبه ، تحقيقا لقول رسول الله : من اعان ظالما على ظلمه سلطه الله عليه بعذابه !!

واخذ يزور الامام ويلاحقه ، باعتذاره تنفيسا عن الم يجيش بنفسه ، فلا يجد التسكين !! وقد بالغ فى احترامه وتوقيره مبالغة ورثها عنه ولده المهدى ، فحفيداه موسى وهارون ، على نحو ماسلف فى صدر هذا المقال .

وبعد فمهما تجبر ابو جعفر وتكبر ، فقد ارغمته عظمة الايمان وجلال العلم ، وثبات اليقين متجمعة في مالك رضى الله عنه ، أن يقول له فى انكسار : والله الذى لا اله الا هو ما امرت بالذى كان ولا علمته ، وانه لا يزال اهل الحرمين بخير ما كنت بين اظهرهم ، وأنى اخالك امانا لهم من عذاب الله ، وهو قسم سياسى محنك يبطله الحق الواقع والبرهان الملموس .

لقد كان مالك رجلا ! وحسبه تلك الرجولة من فخر . !

يعقوب بن السكيت يستشهد

كنت أشرت فى عبارة موجزة بأحد اعداد مجلة الازهـر « صفر ١٣٨٠ هـ » الى ابن السكيت وموقفه الجرىء فى نصرة الحق ، ثم قابلنى من صفوة القراء من يطلبـون تفصيل الحديث عن هذا الشجاع الباسل ليكون بجراته الصريحة قدوة محببة لمن يلتمسون المثل الصالحة لدى علماء يقدسون الحقيقة ويجابهون الطغيان .

وقد وجدت فى نفسى نشاطا سريعا الى الحديث عـن الرجل .. لان الذين كتبوا حياته لم يهتموا كثيرا ببطولته النادرة .. واستشهاده المثالى . وانما افاضوا فى تحليل مكانته اللغوية والادبية ، وتعرضوا لاساتذته وتلاميذه مـن ائمة اللغة والعلوم اللسانية ، وسردوا فهرس مؤلفـاته وتصانيفه ثم اشاروا الى موقفه البطولى فى سطور قليلة متضائلة . مع انه ذهب شهيد هذا الموقف النادر ، فلابد ان تفصل أدواره الرائعة باهتمام ، واذا كنا نردد فى كل مناسبة مواقف العز بن عبد السلام والمنذر بن سـعيد ، وسعيد بن المسيب ونتخذهم قمما شامخة فى دنيا الصراحة المؤمنة ، فلماذا لا يقرن بهم يعقوب بن السكيت وقد بذل

دمهفى سبيل رايه . اما هؤلاء فقد حفظت لهم اقدارهم فى الحياة ولم تكن لاحدهم هذه الخاتمة المؤسية الاليمة وما اريد بذلك ان ابخس جهودهم العالية . معاذ الله ، ولكنى الحق بهم زميلا عالى الهمة وافر العلم ادى امانة دينه حين جاهر حاكما ظالما بقوله الحق فخسر الدنيا ليفوز برضوان من الله اكبر .

كانت الفترة العصيبة التى شهدت حياة ابن السكيت مع سعة افقه وغزارة معارفه وولوعه بالبحث والمناظـرة من احلك الفترات فى التعصب والاضطهاد ، لان المأمون لم يشأ ان يترك الناس احرارا فى آرائهم الخاصة . بل ضاق بخصومه وشن عليهم حربا ظالمة لا طائل وراءها غير التنكيل والتعذيب والقتل فى بعض الاحيان ، مع ان صاحب الراى الحر فى مضمار البحث العلمى يجب ان يفســـح صدره لمعارضيه ، اذ ان من الجور الشائن ان نلزم كل فرد من ابناء العقيدة الاسلامية بآراء المعتزلة فى خلق القرآن فاذا كانت لبعض المخالفين وجهة نظرهم الخاصة صحيحة او باطلة فليس لنا ان نزجهم فى اعماق السجون، وان نعذبهم بالسياط ونكبلهم بالاغلال ، وعاشق الحرية الفكرية هو الذى يمنحها انصاره وخصومه على السواء . اما ان يستغل نفوذه السياسى لمحاربة مذهب فكرى ، لا صلة له بدعائم عرشه ، وهيبة سلطانه فهذا ما يؤاخذ به فى معرض الموازنة والحساب .

وقد تلا المأمون من الخلفاء من نهجوا نهجه فى التعذيب والاضطهاد ، فجاء المعتصم والواثق والمتوكل ليضـــايقوا العامة والخاصة باعنف ضروب الاعنات . واذا كان المتوكل

على الله قد منع القول بخلق القرآن ونصر أهل السنة فى مذهبهم الخاص فانه انقلب طاغية جبارا يضطهد انصار الاعتزال ويملأ بهم المحابس والسجون ، وهذا مالا يرتضيه منصف حكيم ، لاننا لا ندعو الى نصرة فريق على فريق ، ولكننا نأمل من الحاكم أن يترك العلماء ومعتقداتهم ، مادامت فى معتركها الفكرى لا تهدم اصلا من أصول التشريع ، أو تعارض ما يراه من سياسة الدولة فى الحكم والتنفيذ .

فى هذا العصر المضطرب الثائر كان ابن السكيت يتبوأ مكانه الادبى فى مضمار التدريس العلمى والتاليف اللغوى والصرفى ، فأصدر كتبا كثيرة لا يزال بأيدينا منها كتاب « اصلاح المنطق » شاهدا بمنهجه وعمقه واستقرائه على مكانة الرجل ودقته . وقد ذكر ياقوت فهرس مؤلفاته ص ٥٢ جـ ٢٠ من معجم الادباء فأوقفنا على كنز متعدد المعادن متنوع النفائس . فالشيخ الثبت يؤلف كتاب القلب والابدال وكتاب النوادر وكتاب الالفاظ وكتاب فعل وافعل وكتبا مختلفة فى الفرق والامثال والوحوش والشجر والحشرات والايام والليالى وسرقات الشعراء ومعانى الشعر مما يدل على ذهن متقد وفكر جامع مستوعب واتجاه متنوع مختلف .. ونحن نظلم الرجل .. اذا وقفنا به عند المضمار اللغوى والصرفى كما يصنع مترجموه ولو كانت بأيدينا مؤلفاته السالفة لوضعناه فى مكانه الموسوعى على التحديد لا على التقريب .

هذا العالم المفضال كان على ثرائه العلمى ذا نفس ثرية حافلة بالخلق العالى والتواضع الحميد ، وكان يزن

الاشياء بميزان الاسلام لا بميزان التقاليد المترفعة فى عصر مختلف الاجناس والنزعات ، وهو بعد ـ كوالده العالم اللغوى اسحاق السكيت ـ كثير الصمت فى المحافل وهو صمت المفكر المتأمل الذى يغنيه خاطره المزدحم عن الاشتراك فى محادثة لا تسعى وراء هدف ، او تعمد الى غير الاعلان والدعاء ، ولعله بسكوته المتأمل قد وفق كثيرا فى رصد معلوماته وتتبع سوانحه وتحليل خواطره ، فاذا انكفأ الى تسجيل بحوثه أو القاء دروسه ساعده التأمل الصامت على الجودة والابداع .

قال الفراء : سألت ابن السكيت عن نسبه فقال فى تواضع : خوزي ـ أصلحك الله ـ من ذردق . فمكثت اربعين يوما فى المنزل استحى من لقاء ابن السكيت لانى سألته عن نسبه فصدقني . وقول الفراء على اقتضابه يرشدنا الى شيء كبير جدا عن ابن السكيت .. فالرجل وهو فى مكان الصدارة العلمية لا يخضع لمصطلحات عصره الزائفة فينكر مولده ومنشأه ، بل يعترف أنه خوزى من ذردق . وقد وقفت كثيرا عند هذه العبارة لان مدلولها اللغوى وحده لا يفيد الا انه من خوزستان والنسبة اليها خوزى . ولكن مدلولها السياقى يلقى ايحاء مريبا على منزلة هذا المكان التعس . والا فكيف يستحي الفراء من صدق الاجابة حتى يمكث اربعين يوما لا يقابل ابن السكيت . ولعل مما يؤكد هذا المدلول السياقى بايحائه المتواضع ما قرأته بالجزء السابع من معجم الادباء ص ١٠٩ من ان ابا عبيدة اللغوى دعا تلميذه ابا عثمان المازنى فنهره ، وقال : لا تجلس الى فسأله المازنى عن سبب

ذلك ، فقال أبو عبيدة : رأيتك مع انسان خوزى سرق مني قطيفة .، مهما يكن من شيء فقد كان ابن السكيت اكبر من أن يعترف باوضاع زائفة أو يقيم اعتبارا لقيم تافهه تأخذ البريء بجرم المذنب لو صح ان ساقتني هذا الاقليم مرقه سارقون ، ونحن بعد نرى كل مكان في الدنيا لا يخلو من الطيب والخبيث ، ولم يخل ما كتب في سيره هذا الامام الكبير من افتراء مغرض ، اذ اننا نطالع عنه وعن غيره من كبار المؤلفين اخبارا كاذبة لا تثبت لنظره واحده من نظرات النقد النزيه ، والسبب الاول في اختلاف هذه الاكاذيب هو الصاق المعرفه العلمية بالخلفاء والحكام تزلفا وملقا ، ثم يجيء من الرواة من ينقلها دون تمحيص مع انه لو فهم ان مهمه المؤرخ لا تقف عند الجمع الحاشد ، بل تتعداه الى التسديد والتصويب لاتضح له بجلاء باطل ما يسجله عن الائمة المتضلعين . فقد اجمع مؤرخو ابن السكيت على رواية هذه الحادثة الملفقة . والرواية هنا عن ياقوت « معجم الادباء ج ٧ ص ١١٧ في ترجمة ابي عثمان المازني ونقلها ابن خلكان في الجزء الخامس من الوفيات في ترجمة ابن السكيت نفسه » :

قال الواثق لابي عثمان : سله - أى ابن السكيت - فقال المازني لصاحبه ماوزن نكتل من الفعل فأجابه ابن السكيت . نفعل . فقال الواثق غلطت ثم قال للمازني فسره فقال المازني . نكتل تقديره نفتعل واصله نكتيل . فانقلبت الياء الفا لفتح ما قبلها . فصار لفظها نكتال . فأسكنت اللام للجزم لانه جواب الامر فحذفت الالف لالتقاء الساكنين ... فقال الواثق ، هذا هو الجواب لا جوابك يا يعقوب .

فهذه النادرة الصرفية من الطرائف المختلفة . لان حذف العين فى هذا الوضع ليس من الدقائق التى تفوت مبتدئا فى قواعد الصرف فضلا عن امام كابن السكيت الف كتابا حافلا عن « القلب والابدال » وكتابا آخر عن « فعل وافعل » ثم لا ادرى هل كان الواثق اعلم بقواعد التصريف من ابن السكيت حتى يقول له اخطأت ثم يقول للمازنى هذا هو الجواب .. واين تلقى كل ذلك؟ مع ان رواية أخرى ذكرها ابو الفرج وياقوت وعشرات غيرهما تقول : ان الواثق نفسه .. قد استدعى أبا عثمان المازنى ليسأله عن خبر أن فى قول الشاعر :

اظلوم ان مصابكم رجلا   اهدى السلام تحية ظلم

فليت شعرى ايفطن الى العين المحذوفة من لا يفطن الى خبر ان ؟ ان الذين يحاولون ان يرفعوا الضعفاء فوق مستوى المحققين من العلماء ليفضحون أنفسهم حين يخالفون منطق الاشياء فيأتون بما تقوم آلاف الشواهد على دحضه ، وكأن الاقدار ارادت ان تكشف مبالغاتهم المقيتة حين جعلت هذه الروايات المفتراة تتعارض وتتناقض ليهدم بعضها بعضا ثم لتجلو انقاضها الشائنة عن ميدان الحقد حين يكشفها باحث مدقق .

هذه اضواء متواضعة نرسلها من بعيد ، لتكشف ملامح ابن السكيت . فتمهد بذلك الى حديثنا عن بطولته الباسلة . وقد كتب عليه أن يقوم بدور المثالى فى عهد المتوكل على الله . ليلقى مصرعه الفاجع على يديه فيذهب شهيد الرجولة فى حومة الكرامة والاباء . كان المتوكل على الله مبذرا متلافا وطاغية سفاكا .. اجمع على ذلك مؤرخوه فى الحديث والقديم حتى أطلق عليه نيرون العرب

في عهده ابتدأ اضمحلال الدولة العباسية اذ ترك أمور الدولة لقواده ، وانغمس فى الملذات والشراب وانتشرت الرشوة بين الولاة والموظفين ولم يبن احد من الخلفاء من الابنية مثل مابناه فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثمانين الف الف درهم والقصر الغريب انفق عليه عشرة آلاف ألف درهم ، والقصر المختار انفق عليه خمسة الاف الف درهم ، والقصر المعروف بالوحيد انفق عليه الفى الف درهم الى قصور مماثلة مثل قصر الماحوزة ، وقصر الجعفرى ، وقصر البهو ، وقصر اللؤلؤة ، وقصر الكامل، مما يوقف القارىء على تبذير أخرق لا يرعى مال العامة ، وموارد الدولة . كانت هذه القصور جميعها تحتل مكانا فسيحا بسر من راى يسمى « المتوكلية » وللبحترى في اوصافها من الابيات ما يعرفه الدارسون ، وهو الى ذلك السفه الارعن ؛ والظلم الباطش يتندر بسب آل البيت ويرسل أعوانه الى كربلاء فيهدمون قبر الحسين ويحطمون ما حوله من الدور نسفا واحراقا ثم يعقد المجالس من علية وزرائه وخاصته ليشهدوا المضحكين ممن يمثلون أبا تراب ويستهزئون برهط على وبنيه ، ويلتفت الخليفة الى جلسائه ليسمع صيحات الاعجاب ، ويرى بسمات التأييد فيعتقد انه بطل فاتح رجع من الميدان مكللا بغار النصر ومسجلا أعظم معارك التاريخ .

وقد عز على ابن السكيت أن يكون خليفة المسلمين بهذه الضعة التافهة من الرعونة والاسفاف . وآلمه ان يسمع جلساؤه ـ وفيهم بعض العقلاء والمتضلعين ـ اقذار السباب وأوضار الشتائم تقال على على وفاطمة والحسن والحسين وصفوة آل بيت الرسول ثم يضطرون الى الملق

المنافق فيبتسمون ضاحكين .. ليته لم يغش مجلس الخليفة قبل اليوم حتى لا تقذى عينه بما يؤلم من المشاهد وتصك مسامعه بما يصم من الشتائم .

انه ليتحدث فى همس الى معارفه ليكون رايا عاما يستطيع أن يجابه به هذا البغى السافر . ولكن نفرا ممن خسروا ضمائرهم المتيقظة يستمعون الى ابن السكيت لا ليعاونوه على ما التزم من اصلاح ولا ليلوذوا بالصمت حين تعذر عليهم ان يرتفعوا الى مصاف الرجال ، بل لينقلوا الحديث الى المتوكل واشين متملقين .. وتأتى الانباء للطاغية فيصمم على ان يخزى الشيخ فى مجلسه ليظهر باكيا يستنكر ويتزلف ويقسم الايمان المغلظة انه لم يقل ولن يقول ، هكذا تصور المتوكل على الله . فأرسل بمن يدعو الرجل لساعته . فأقدم فى وقار المؤمن وهدوء الواثق .. ثم فتح عينيه ليرى جلساء الطاغية يتغامزون متضاحكين والخليفة ينظر اليه فى اشمئزاز مترفع وقد جلس بين ولديه الاميرين ثم يسأل فى تعاظم :

ـ يا يعقوب أترى الاميرين هذين ؟! فيقول فى هدوء وقور : اراهما يا أمير المؤمنين . فيهز الخليفة راسه فى سخرية ويبرز أسنانه مستهزئا ثم يسأل : أيهما أحسن ؟ ولداى هذان أم الحسن والحسين أيها الشيخ المجنون ؟

فرفع يعقوب راسه فى صلابة .. واتجه بنظره الفاحص الى غريمه ثم قال بصوت مرتفع زاده جلال الايمان ووقار الشيب روعة وتأثيرا : ان قنبرا خادم الحسن والحسين أحسن منهما ومنك يا امير المؤمنين .

صدم المتوكل بما لم يكن يتوقع وكسا الخزى الاحمر وجوه جلسائه . فقام كالثور الهائج يرغى ويزبد .. ثم

امر غلمانه الاتراك فطرحوا الشيخ أرضا ليدوسوه بالنعال ثم ليتركوه فى سكرات النزع .. فيحمل الى داره فاقد الادراك . ويقلب المحتضر الشهيد عينيه فى اهليه مودعا حتى اذا قضى وطرا مما يريد ، جاء اليقين فلقى رضوان الله .

ويشاء القدر الساخر أن يرى المتوكل اجابة سـؤاله صريحة دون كتمان حين يتآمر احد هـذين الاميرين المفضلين على حياته . فيلقى مصرعه ذليلا ضارعا بتدبير ولده تحت سيوف الخدم من الاتراك .. هـؤلاء الذين فرغوا من اعدام ابن السكيت ، ليتهيئوا بعد قليل لسحق الطاغية العنيد . فتأكله سيوف الاوشاب فى ليلة رهيبـة دامية وتقذف جثته فى العراء . ويراها الناس فيشمتون بالصريع ويترحمون على يعقوب ثم يصيحون دهشين .. ما أعجل الثأر. لقد انتصفت السماء .

أبو جعفر البهلول يقهر الباطل

كلفت بالبحث فى تاريخ القضاء الاسلامى فشاهدت صفحات لامعة تغرى بالتتبع والاستقصاء ووقفت على جهود محمودة لنخبة ممتازة من رجال الحق وانصار العدالة .. فتعجبت كيف لا تجمع هذه الدرر الوضيئة فى عقد نضيد يكون موضعا للمفاخرة والمباهاة .

ونحن لا نستغرب اذ نجد رجال القضاء فى عصور الاسلام الزاهية على جانب كبير من التحرر والدقة . فقد تمكنت تعاليم الاسلام من نفوسهم فعرفوا الله حق معرفته ، وقرءوا الكتاب والحديث . ودرسوا مسائل القياس وقوانين النظر . هذا الى مايشرق فى قلب المؤمن التقى من نور يهديه الى الحق مهما تكاثف الظلام .

ومن هؤلاء الائمة الافذاذ : القاضى ابو جعفر أحمد بن اسحق بن البهلول التنوخى الانبارى . وقد أجمع الذين كتبوا عنه على سلامة استنباطه وصحة توجيهه ، وصدق تعليله . وانت تجدهم يصفونه ـ فى اسهاب زائد ـ بالبلاغة العالية اذا خطب أو ترسل . كما ينقلون شذرات ثمينة من شعره تنبىء عن عاطفة وذوق ، ويجعلونه حجة فى التفسير والحديث والرواية والاسناد . أما تبحره فى الفقه

على مذاهب أهل القياس فقد بواه منصة القضـــاء أكثر حياته التى زادت عن الثمانين ، واذا اجتمع لفاضل مــن الناس كل هذه المميزات الرفيعة ، فماذا ينقصه مـــن الشمائل والصفات ؟

على اننا لا نكبر الرجل لعلمه وحده . فكثير من الائمة فى القديم والحديث قد جاوزه فى التحصيل والدراية ، ولكننا ننظر بكثير من الاجلال والاكبار الى صرامته فى الحق دون مبالاة ، وهجومه على الباطل فى غير هوادة ، مهما جر عليه ذلك من بلاء وعنت ، وناهيك بمن يفـاجىء رؤساءه وصدور الدولة فى عهده بما لا يطيق المؤمن الورع صبرا عليه من ميل عن الحق ونكوص عن الجادة وولوع بالبهتان .

وهانذا أقدم للقارىء الكريم موقفين متشابهين له فى نصرة الحق . راجيا أن يكون أسوة حسنة ، ومثالا يحتذيه الناس .

نحن فى أوائل القرن الرابع الهجرى . وقد انحــدرت الدولة العباسية من أوجها الشاهق الى وهدة ســحيقة سقطت فيها هيبة الخلفاء والامراء وتنازع الوزراء وأعيان الدولة على الحكم شر تنازع وابشعه . فكان هم كل وزير ان ينكل بمن سبقه فيخلق له الاتهامات الخطيرة التى تطيح بحياته ليأمن على منصبه وجاهه ، فلا يجد المنافس العنيد وقد كان حامد بن العباس وزير الخليفة المقتدر بالله يضيق ذرعا بسلفه الوزير أبى الحسن بن الفرات ، فحاك له من خياله الآثم أفظع تهمة يمكن أن توجه الى الانسان فى ذلك الوقت ، حيث اختلى بالخليفة واخبره أنه عثر على وثائق مهمة تثبت اتصال ابن الفرات ببعض العلويين

المطالبين بالخلافة ، وأن الحزم يوجب اخذه بالشدة لتجرى الامور فى وضعها الصحيح . وقد اهتم الخليفة المقتدر بالامر . فعقد لفوره مجلسا برياسته لمحاكمة الوزير السابق . وقد احضر فيه على بن عيسى واحمد ابن اسحق بن البهلول واباعمر محمد بن يوسف . وجىء بابن الفرات مخفورا الى المحاكمة حيث وقف غريمه الوزير حامد بن العباس امام الخليفة يبسط التهمة الخطيرة ويبين مقبتها الجريئة ثم اتجه الى الباب فجأة وصاح بأحد الحجاب : أدخل الجندى فى الحال .

فدخل جندى مديد القامة مكتمل الصحة . فاتجه حامد الى المقتدر وقال : لقد ضبطت هذا الجندى قادما من مدينة « اردبيل » ومعه كتب خاصة من ابن الفرات الى ابن ابى الساج يطلب فيها معاونة الداعى العلوى وتجهيزه للغدو الى بغداد ، حيث يستقبله ابن الفرات فيتعاونان معا على تقويض الخلافة العباسية وانهائها الى العلويين .

ثم التفت الوزير الى الجندى وقال له : قل ماسبق ان اعترفت به لدى . فقال الجندى : لقد ترددت بضع مرات على ابن الساج فى اردبيل احمل الرسائل المتنوعة من ابن الفرات جاهلا عاقبتها الخطيرة ، فهو المسئول عنها وحده وما انا غير حامل قدم ... يتكسب بالمسير والتجوال .

دهش الخليفة من هذا الاعتراف الجرىء وطار شرر الغضب من عينيه وأخذ يصوب نظراته الحادة المحرقة الى ابن الفرات وهو يتململ فى مكانه ممتقع الوجه منقبض الاسارير .

ثم التفت المقتدر الى القاضي ابى عمر فسأله : ما عندك فى ذلك يا ابا عمر . فقال فى غير روية : لقد اتى ابن‌الفرات امرا تخر له الجبال وللخليفة ـ أيده الله ـ ان ينزل به ماشاء من العقاب .

فتألق وجه الوزير بالبشر وظن ان المحاكمة ستنتهى على ما يريده من البطش بصاحبه ، وجعل يرنح عطفه فى نشوة الظافر المنتصر ، ولكنه راى الخليفة يتجه الى احمد بن اسحق فسأله : وما عندك فى ذلك يا ابا جعفر ؟ فيقول القاضي : لابد من مناقشة الجندى ، فهل يأذن الخليفة بذلك ؟ فيجيبه الى طلبه ، ثم تدور هذه الاسئلة بين القاضي والجندى .

القاضي ـ تدعى انك رسول ابن الفرات الى ابن ابى الساج فى اردبيل فهل رايت اردبيل ؟

الجندى ـ نعم رايتها ودخلتها عدة مرات .

القاضي ـ صف لى اردبيل . أعليها سور أم لا ؟

قال القاضي ـ وما صفة باب الامارة الذى دخلت منه.

فسكت الجندى .

احديد أم خشب ؟

فسكت الجندى ايضا .

فقال القاضي ـ ومن هو كاتب ابن ابى الساج الذى ذهبت اليه ؟ . ما اسمه ؟ وما كنيته ؟ وما لقبه ؟

فبهت الجندى ولم يرد بشيء .

قال القاضي ـ واين الكتب التى كانت معك من ابن ابى الساج لابن الفرات . .

فقال الجندى ـ متلجلجا مضطربا ـ رميتها فى البحر حين وقعت فى أيدى الجنود فاتجه القاضي الى الخليفة

وقال : يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل يقول : يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » وقد صح عندي أن هذا الجندي جاهل متكسب مدسوس على ابن الفرات . فقال علي بن عيسى في حماسة مشتعلة . قد قلت ذلك مرارا للوزير حامد بن العباس فلم يقبل قولي . وأرى أن يهدد هذا الجندي بالضرب حتى يقر بالواقع الصريح . وأمر الخليفة باحضار من يضرب الجندي في المجلس . فما كاد السوط يلهب جسمه حتى صاح : كذبت وغدرت وضمنت لي الضمانات . والله مارايت اردبيل ولا حملت كتبا اليها طيلة الحياة . وهنا أمر الخليفة بحبس الجندي وتعذيبه. وكاد يغشى على الوزير المختلق من الهم والانكسار . وانتصر الحق على الباطل بصراحة القاضي النزيه ابي جعفر احمد ابن اسحق البهلول .

كرت الاعوام تلو الاعوام . فتغير الخليفة المقتدر على وزيره حامد بن العباس فاقاله من منصبه مخفورا . واسند الوزارة الى المتهم السابق ابي الحسن بن الفرات. وتلك الايام نداولها بين الناس .

ولقد سعى الوزير الجديد ـ لاول عهده بالرياسة ـ الى قتل غريمه السابق فشفى لواعج صدره ، واستراح من ناحيته ، ثم دار بذهنه فيمن حوله من المقربين لدى الخليفة ، فرأى ان الوزير الاسبق علي بن عيسى لا يزال ممتعا بالحياة . وقد يتم صفاؤه مع الخليفة في وقت من الاوقات فيعيده الى الحكم راميا بأبي الحسن الى غياهب السجن . ومن ثم أخذ الوزير يدبر لعلي المكيدة التي ترديه

مع أنه كان من انصاره المتحمسين يوم حوكم فى التهمة الخطيرة . ولكن يا اضيعة الوفاء .

رأى ابن الفرات ـ لانحطاط نفسه ـ أن يقتدى بسلفه السابق فى الاختلاق والوقيعة . فاتجه الى الخليفة المقتدر وأفهمه ان على بن عيسى على اتصال بالقرامطة اعداء الدولة ، وقد ارسل لهم فى مدة وزارته بعض المواد الحربية التى يحظر ارسالها الى العدو ، كما أنه لايعترف بتكفيرهم وخروجهم عن مبادىء الدين الاسلامى .

اهتم الخليفة بالوقيعة وأصدر أمره بمحاكمة على ، على ان يسمع بأذنه مايدور فى المحاكمة من وراء حجاب ، وقد تم الامر فى اسرع من البرق وشكلت لجنة المحاكمة برياسة الوزير . وحضر القاضيان السابقان فى المحكمة للمحاكمة الاولى : ابو عمر محمد بن يوسف وابو جعفر احمد بن اسحق البهلول .

افتتح الرئيس الجلسة ، وسيق على بن عيسى الى المحاكمة وبدأ الوزير فأسرع باحضار رجل يدعى « ابن فليجة » . وأذن له فى الكلام فقال :

لقد ارسلنى على بن عيسى الى القرامطة مبتدئا ، فكاتبوه يلتمسون له المساحى والطلق وعدة حوائج فأنفذها اليهم . ومعى خطابه الذى بعث به فى هذا الشأن ، ثم قرأ الخطاب فوجد خاليا من تكفيرهم وسبهم كما ينبغى أن يكون فى نظر ابن الفرات . وشاء الرئيس ان يلخص الاتهام فى نقط مركزة محدودة ، فصاح فى وجه على ، والمقتدر يسمع من وراء حجاب :

تقول ان القرامطة مسلمون والاجماع قد وقع على كفرهم !! فهم اهل ردة لا يصومون ولا يصلون . وتبعث

لهم بالادوات الحربية وهم أعداء الخلافة ومبعث الفساد والشقاق !

قال علي : اردت بذلك المصلحة واعادتهم الى الطاعة ، دون أن تراق الدماء .

قال الرئيس : ويحك لقد أقررت بما لو اقر به امام لما وسع الناس طاعته . فكيف يجوز لك التعاون مع أهل الفساد ؟ ثم التفت الى القاضي ابى عمر فقال له : ماعندك في أمر علي ؟ فافحم ولم ينطق بحرف . فاتجه الى ابى جعفر وساله : ما عندك يا احمد بن اسحق ؟.

قال أحمد : لقد صح عندى أن عليا اقتدى بكتابه الى القرامطة ثلاثة آلاف رجل من المسلمين كانوا مستعبدين فرجعوا الى أوطانهم احرارا . فاذا فعل انسان ذلك على سبيل المغالطة للعدو ، فلا لوم عليه بل يستحق اطيب الثناء .

تجهم وجه ابن الفرات ، وسال القاضى : ما تقول فيما اقر به على من اسلام القرامطة وهم اهم طغيان ؟

قال القاضى : انهم كاتبوه بحمد الله والصلاة على رسوله فلم يصح عنده كفرهم . فهم لا ينازعوه في الاسلام ولكن ينازعون في الامامة فقط ومن نازع فيها فهو غير كافر عند الائمة الاعلام .

دهش الوزير من الرد المفحم . ثم استأنف اسئلته فقال :

ـ وما رأيك في الادوات الحربية التى ارسلها الى الاعداء اكان ينوى بذلك تقويتهم على الشغب والفساد ؟!

ـ هو لم يعترف بذلك فلا نؤاخذه به .

كيف تصدقه مع ان رسوله وثقته ابن فليجة قد ارسل لهم المعدات ؟

ــ اذا قال رسوله ذلك فهو مدع وعليه البينة !

ــ كيف يكون مدعيا وهو ثقته الذى استأمنه على حمل الكتب والرسائل ؟

ــ ان عليا قد استوثق به فى حمل الكتب . فلا يقبل قوله فى الادوات الحربية بحال من الاحوال .

ــ انت وكيله حتى تحتج عنه أم انت حاكم وقاض ؟

ــ لست وكيله . ولكنى أقول الحق كما قلته فيك يوم أراد حامد بن عباس أن يتهمك امام الخليفة بما هو اعظم من هذه التهمة ، فهل كنت وكيلك حين ذاك ؟ بهت الوزير وانكسر انكسارا طأطأ راسه الى الغبراء وانتصر الحق مرة ثانية على يد أحمد بن اسحق .

وبعد فقد كان الورع والصلاح ديدن قضاة السلف الصالح فى صدر الاسلام فكانوا يتحرزون ويدققون مقدرين عظم المسئولية وفداحة التبعة ومهما قارنت هؤلاء الاتقياء بأعلام القضاء الحديث فى الشرق والغرب ، فهم الراجحون الفائزون ، حيث كانوا يبتغون وجه الله وحده ، فأنزلهم منازل الصالحين وفازوا بأعظم الدرجات .

بكار بن قتيبة
قاض كبير يعتز بالحق

كان احمد بن طولون استثناء واضحا بين ابناء جنسه، فعهدنا بجنود الاتراك منذ عهد المعتصم لا يفيئون الى خلق فاضل ، أو يعتصمون بدين قويم ، فهم يربون تربية رياضية تقوم على الشجاعة والفروسية وتركن الى اساليب الاحتيال والدهاء ، ومن يصل منهم الى مكان القيادة فى القصر يوجه اهتمامه الى المكيدة والائتمار ، وينظر الى الخليفة العباسى كدمية صماء يحركها انى اراد فاذا عن له أن يضع الامر فى نصابه او يتمسك ببعض حقوقه فى التولية والعزل ؛ والادارة والحكم ، مهدت له الدسائس السود . لتجعله بين عشية وضحاها فى غياهب السجون ! ثم يختار أمير ضئيل من بنى العباس ليصبر دمية أخرى يتلاعب بها الاتراك كما يشاءون !

هكذا كان جنود الاتراك ! ولكن ابن طولون قدر له أن يشب على رياضتهم الحربية فيلتقي معهم فى مضمار الصيال والعراك ثم ينفرد عنهم فى ثقافته الدينية فيدرس القرآن والحديث ويتأثر بما تهديه اليه روح الاسلام من انصاف وعدالة وايثار للخير والمعروف !

وقد ساعدت هذه الصفات النبيلة على تدعيم مكانته

عند الناس ، فكان ابناء جنسه من الاتراك يثقون فى كرامته فلا يظنون فيه التآمر والايقاع ، واذا هم احدهم بمكيدة ما تحاشى أن يلم بسرها رجل همام كابن طولون فيكون اداة لتحطيمها وعونا عليها لا لها ، اما امراء العباسيين وخلفاؤهم فقد ركنوا الى رجولته ، فحين خلع المستعين بالله وابعد الى منفاه الح فى اصطحاب ابن طولون ليكون حارس غربته ورفيق وحشته !

فقام على حراسته مقاما كريما ، ثم جاءته اشارة شاذة من رؤسائه بالعمل على تدبير مصرعه ! فتعاظمه ان يكون غادرا بمن وثق فيه وابى أن يخضع لما يريدون! وكان ان اعتزل الحراسة ونيط بالمستعين سواه ليهدر دمه بعد سويعات ! وعاد ابن طولون الى مقر الخلافة نظيف الخلق طاهر الضمير ! .

وقد تبسم له الحظ لبعض المصادفات السارة فاختير واليا على مصر من قبل سواه ، ولم يكن فى وهم أحد ان هذا الفتى التركى سيشذ عن ولاة الاقاليم فى عهد الخلافة العباسية ! فقصاراه ان ينهض على تحصيل الضرائب ، وسوق الاموال الى عاصمة الحكم ! فاذا أحب ان ينال حظوة لدى الحاكمين ببغداد ضاعف الخراج واجزل الهدايا من الفضة والنضار ليضمن بقاءه بضعة اعوام فى ولايته ! والا فهناك من يتطلع الى مكانه وقد اخذ على عاتقه ان يجمع المال ما استطاع !

جاء ابن طولون الى مصر وهو حرج الصدر ضائق النفس بما يقوم به ابناء جنسه فى قصور الخلفاء ! وقد عز عليه أن توكل لهم الامور العليا فى سياسة الاسلام ثم

لا يكونوا سادة كراما يتقيدون بالمواثيق ! بل يتحولون الى وحوش متنمرة تتصارع فى الظلام وقد يأكل بعضها بعضا دون شمم او اباء ! وهم بعد ليسوا بافضل منه فى شىء حتى يصدر عن ارادتهم ! ولو كان الخليفه العباسى مسموع الكلمة نافذ السلطان لوجبت طاعته ولكنه خائر مستسلم لمن يسومونه الذلة والهوان ! فلا عليه ان يتزحزح عن كابوسهم الثقيل فيمهد الاسباب الى استقلاله وانفصاله ! .

وهو من الحرص والحذر بحيث يستطيع أن يرسم الخطة البعيدة لتصل الى الغاية متى تتاح دون استعجال .. درس الحاكم أحوال الاقليم ، وقد استطاع فى زمن يسير ان يهدىء الفتن ويسكن الثورات ، ثم عمل بدهائه على أن يجمع فى يده أمور البريد والخراج ، فلا تستطيع الرسائل المغرضة أن تشى به عن طريق التلصص والوشاية ، ثم ليجمع من المال ما يسد بعضه افواه الطامعين فى بغداد . وينشىء الدولةالجديدة بالبعض الآخر ، وقد واتته الاقدار بما يريد ، فجد من الحوادث السياسية ما ساعده على ابعاد صاحب البريد وطرد صاحب الخراج ! وأصبح بذلك رجل مصر دون منازع ، فاتجه الى تكوين جيش عربى كبير واسطول بحرى قاهر ، وامتلك من النفوذ ما أعانه على أن يخلع نقاب الحذر عن وجهه فيقف من بغداد موقف القرين !

لم تسكت الخلافة عن طموح ابن طولون ! فقد كان الموفق ولى العهد صاحب السلطة الفعلية ببغداد ، جمع حوله الاتراك بما بذل من اقطاعات ومناصب ووعود ،

وصار موضع الاخذ والرد ، واخوه المعتمد أمير المؤمنين لا يملك من الامر سوى اللقب وحده ! وقد تعاظم الموفق ان يقدم ابن طولون على الاستقلال ، وفهم الرجل على غير حقيقته ، فظنه ضعيفا مفترا لا يثبت لصدام ، وارسل اليه خطابا يوحي بالتهوين والتحقير والاستعلاء! ثم دعاه الى تقديم الحساب والنهوض الى بغداد في رهبة وامتثال ! وقرأ ابن طولون كتاب الموفق وابتسم : وكأنه أراد ان يغمزه من مكمن ضعفه ، فرد عليه بأن ولى العهد قد خلع الطاعة حين حاصر الخليفة الشرعى وسلب سلطانه ، فهو فى رأيه عاص ناشز مغتصب يتبوأ مركزا يستلبه بالقوة لا بالحق ، وأولى به أن يذعن لاخيه بدل أن يطمح الى مصر ! وليس له الحق فى بغداد ، فضلا عن التطاول الى غيرها من الاصقاع ! وكان حتما ان تدور الحرب بين الرجلين ثم ينهزم الموفق فلا يبقى لديه سلاح غير الضجيج الصاخب ، فيعلن عصيان ابن طولون ، ويجاهر بلعنه على المنابر ، وخروجه على الدين ! ماذا يصنع ابن طولون وقد جاءته الانباء أن اسمه يذكر مشيعا باللعنات على منابر الجمع فى كثير من مساجد الاسلام ! لقد ساقه تفكيره الى الدعوة الى خلع الموفق من ولاية العهد والجهر بلعنه على منابر مصر والشام ! واعد مؤتمرا من العلماء والوجهاء فأصدر قرارا بخيانة الموفق ولعنه ! وظن ابن طولون الا يشذ أحد فى ولايته عن رأيه ولكنه فوجىء بعالم خطير يعارض قرار الخلع ، ولا يجد لابن طولون حقا فى اصداره ذلكم هو القاضى الفقيه بكار بن قتيبة ! فقد استطاع أن يعلن رأيه المعارض

دون أن يرهب احدا ولو كان ابن طولون !

على اننا نقرأ ما دون من تاريخ هذا القاضي فنعجب لشعوره الديني المرهف ، اذ رزق حساسيه بالغه جعلته يستهول موقع الزلل في الاحكام !! كان نظام القضاء على عهده بدائيا يدخل المدعي فيعرض شكواه ويحضر شهوده ثم يستمع القاضي وينظر فاذا ارتاحت نفسه الى حكم أصدره مستندا الى الدليل ، وتنتهى المسألة عند ذلك ، ولكن بكارا كان يدون كل يوم جميع ما يصدر من احكام ثم يتفرغ في المساء الى مراجعة أعماله ، ومحاسبة نفسه ليستدرك ما فاته ان عن له بعض الرأي فيما كان! وقد بلغ من تقديره لمركزه القضائي ان دموعه كانت تغلبه حين يشتبه الامر عليه فيستعين بصلاة الليل ليلهمه الله السداد ، قال احمد بن سهل الهروى : كنت الازم غريما لي الى بعد العشاء الآخرة ، وكنت أسكن جوار بكار فانصرفت بعد العشاء الى منزلى فاذا هو يقرأ بصوت عال « يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ليضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » فوقفت استمع الى تلاوته المعبرة طويلا ثم انصرفت فقمت في السحر على أن أسير الى منزل الغريم فاذا بكار يقرأ الآية ويبكى ، فعلمت انه كان يقرؤها طول الليل !

هذه الحساسية البالغة كانت تجعله يحفظ للقضاء حرمته ويرى القاضي رجلا مثاليا يرتفع عن الميول والاهواء ويتخلق بأرقى ما سنه الاسلام من نبيل السجايا

ورفيع الصفات ! قدم عليه قوم من أصحاب الحديث يروون عنه وكان محدثا اماما فى فنه يعرف مواضع الجرح والتعديل فى السند ووجوه الضعف والقوة فى المتن ، ويفيض فى ذلك بما ينبىء عن رسوخ أصيل فيما يروى عن رسول الله ـ فسألهم القاضى من أىالبلاد أنتم فقالوا من الرملة احدى مدن فلسطين فسأل ماحال قاضيكم فقالوا : عفيف !! فضرب بكار كفا بكف وصاح انا لله وانا اليه راجعون أيقال قاض عفيف ، فسدت الدنيا ! وكأنه يرى العفة أمرا بدهيا مقررا لا ينص عليه فى جواب ! فاذا تميز بها بعض القضاة دون سواهم فقد حق البلاء ! ومن طرائفه فى ذلك انه قال فى احد مجالسه ما حللت سراويلى على حلال قط ، يريد انه لم يتزوج على الاطلاق فقال احد الحاضرين ولا على حرام أيضا فصاح غاضبا : يا سبحان الله ! والحرام يذكر كأنه امر يتوقع !! . على أن تطرفه فى المحاسبة كان يلجئه الى ما يشبه التزمت وهو بعد غير مستغرب من فقيه دقيق يستهول حرمة القضاء ويرى ان القاضى يذبح نفسه بغير سكين ! قدم عليه بمصر رجل من اهل البصرة كان رفيقه أيام الطلب بمساجد العلم هناك فأكرمه واحتفى به احتفاء عرفه الناس ثم احتيج الى شهادة لديه فشهد عند القاضى مع رجل مصرى فتوقف عن الحكم وظن الناس انه لا يقبل شهادة المصرى على عدالته ولكن السبب هو صديقه البصرى فقد أكل معه فى الصفر ارزا فى سمن وعسل فنفد العسل من ناحية بكار ففتح من جهة صاحبه هذا حتى جرى العسل نحوه فقال

البصرى متضاحكا : « اخرقتها لتغرق أهلها » فعلمت انه يهزأ بالقرآن فى مثل هذا ، وبقى ذلك فى نفسى حتى ردت شهادته !!.

هذه طرائف تنبىء عن تحرزه المفرط الذى جاوز كل حد ! وطبيعى انه لم يكن يختص به فريقا دون فــريق فقد كان يلتزمه مع ابن طولون نفسه دون تحــرج أو خشية : مات رجل وعليه دين للأمير فطلب عامــل الخراج من احمد بن طولون ان يأمر القاضى ببيع داره فأرسل ابن طولون الى بكار فى ذلك فقال حتى يثبت عليه الدين فأثبتوه وسألوه البيع فقال حتى يثبت عندى انه ملكه ، فأثبتوه وسألوه البيع ، فقال حتى يحلف من له الدين فجاء ابن طولون وحلف أمامه فقال بــكار اما الآن فقد امرت بالبيع .

وقد كان ابن طولون يعلم من مواقف القاضى الصريحة انه لا يهابه فى شىء بل يجهر بالحق على رءوس الاشهاد لقد كان فى مجلســه ذات مرة فتخاصم رجلان فقال له احكم بينهما فنظر فى القضية وتوجهت اليمــين على أحدهما فاستحلفه فلما فرغ قال له الخصم : استحلفه أيها القاضى براس الامير فصاح بكار غاضبا : يا هــذا قد حلف بالله وهو أعظم من الامير فقال بل أستحلفه براس الامير فقال له بكار تحلف براسه فقال الرجل لا ، فصاح القاضى يا عدو الله تحلف بالله خالق السموات والارض وتمتنع أن تحلف براس مخلوق مثلك ، واخــذ ينظر للأمير وهو يقلب كفا على كف ! ولا ندرى كيف أدرك ابن

طولون اذ ذاك ضعف البشر وانهيارهم فابتسم للرجل وحظى عنده بعد ذاك !!

ان رجلا مهيبا كبكار لا ينظر الى الخلاف بين ابن‌طولون والموفق نظرة تتملق صاحب الامر فى بلده بل نظر اليه من وجهة الحق كما يلوح فى نفسه ! فقد ادرك لفوره ان الحكم بخلع الموفق من ولاية العهد بعد ان أسندت اليه لا يرجع الى ابن طولون وحده حتى يتصدرون سائر رعايا الخلافة العباسية امرا خطيرا كذلك الامر ! وهو بعد لن يعقب غير فتنة مسلحة خمراء تقوم بين القاهرة وبغداد تسيل من ورائها أنهار الدماء وتتساقط آلاف الرقاب !! ثم ان خلع الموفق لن يغير من الامر شيئا فسيخلفه انسان على شاكلته ، وسينفتح مجال التآمر والدسائس لرؤساء القصر العباسى من جنود الاتراك وزعمائهم ، فاذا كانت مصلحة ابن طولون الشخصية تقتضى خلع الموفق فان مايعقبه من أهوال تشيب لها الرءوس يحتم على القاضى أن يجاهر بالمعارضة : فليعلن ابن طولون استقلاله عن بغداد كما يشاء ، أما أن يحرص على التبعية الاسمية فى ظل خليفة دون ولى عهد فهذا ما تتسع له نوافذ الشر فيندلع اللهيب ويحترق الناس .

طعن الامير فى آماله حين واجهه بكار بالرفض الصريح ! ووقع ابن طولون بين عاملين اما أن يرجع عن خلع الموفق فيثبت بذلك سيطرته الشرعية على حكمه ويصبح فى نظر العامة عاصيا يجاهر بالثورة ويدعو الى العناد ! واما أن يقتص من بكار على ورعه وتقواه !

ونحن نفهم الآن أن أسطورة التبعية للخلافة العباسية بمنهجها الوراثى أبا عن جد لا تمت الى الاسلام فلا على ابن طولون أن يشذ عليها دون أن يحتاج الى سند من أمير المؤمنين ! ولكن ما نفهمه الآن فى القرن العشرين من هذه المسألة لم يكن واضحا مفهوما لدى العامة من المسلمين حتى تغير الزمن وزالت غشاوة السيطرة الوراثية عن العيون فتبينت الحقائق كما يجب أن تكون وهذا مالم يتيسر لابن طولون فى زمنه ولعله كذلك لم يكن واضحا بمعناه الصريح فى عمل بكار ! ولقد كان من نتيجة هذا الموقف المتأزم بين القاضى وابن طولون ان غضب عليه غضبا شديدا ، فضربه بعود من الحديد وامر بتمزيق ثيابه وسحب على وجهه مسلوب الجلباب ثم أودع السجن ومكث أياما فى مكان ضيق لا يستطيع ان يمد به رجليه ثم نقل الى محبس آخر اكثر رحابة ! ومما يذكر أن القاضى كان يحافظ على الصلاة سننا ونوافل فى محبسه وكان يلزم نفسه حين تأتى صلاة الجمعة كل أسبوع ان يغتسل ، ويلبس ثيابه ويجىء الى باب السجن فيرده السجان ويقول اعذرنى أيها القاضى فما أقدر على اخراجك فيصيح بكار متجها الى السماء اللهم فاشهد لقد صنعت ما على ! وقد طال محبس القاضى فطلب أصحاب الحديث الى احمد بن طولون أن يأذن لهم فى السماع منه فأذن لهم ، فكان يحدثهم من طاق المحبس وهم من حوله يسمعون فيكتبون .

واذا كان الموت نهاية كل حى فقد مرض ابن طولون مرضه الاخير ، واخذ يراجع أعماله فى لحظاته الحاسمة

فكان شبح بكار فى سجنه يؤرقه ويأخذ عليه منـــافذ السماء والارض فأمر بنقله الي دار خاصة به وكأنه بذلك يكتفى بتحديد اقامته كما نقول فى عصرنا الحديث ثم هاجت نوازعه ، فكتب اليه يستحله ويستغفره فجاءه رد بكار يقول : « أنا شيخ كبير وانت عليل مـــدنف والملتقى قريب والحكم الله » . فكان ابن طـــولون فى احتضاره يبكى ويردد هو شيخ كبير وانا عليل والملتقى قريب والحكم الله !! ثم بلغ الكتاب أجله ، فمات الوالى واعقبه بكار بعد أربعين يوما من وفاته ! وكان الملتقى قريبا كما حسب القاضى ووافقه الامير !!

لقد قرات تاريخ ابن طولون فأعجبت به ، ولـــكن اعجابى ببكار يدفعنى أن أحنى راسى لذكـــراه ، وأن استمطر رحمات السماء على بطل نزيه جاهد فصبر ، وامتحن فشكر ! ..

وهكذا الرجال .

محمد بن بشير
وشهادة الحاكم

تعرض الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل لاول عهده بالاندلس لمحنة قاسية كادت تقضى على ملكه ، لولا ثباته الجرىء ، فقد سار مع البطش الى نهايته حتى قمع الفتنة وقضى على الثائرين . ومجمل ماكان من حديثه أن والده الراحل هشام بن عبد الرحمن كان فى أثناء حكمه ذا ورع وزهد فاستدنى الفقهاء وجعلهم ارباب مشورته ، واداة تنفيذه . وصار لهؤلاء من الرياسة والابهة ما جعلهم وزراء الدولة وحجابها وقضاتها . حتى كان لا يقضى امرا ما دون استشارة فقيه . ولكن نشأة الحكم ومنحاه يختلفان اختلافا واضحا عن أبيه . اذ أولع منذ نشأته بكتب الفلسفة والمنطق والادب . واخذ يقرأ تواريخ الامم قراءة الدارس المحلل ، ويجمع من الكتب شرقا وغربا وعربيا واعجميا ما ضاقت به الخزائن الملكية على سعتها الحافلة . وحين أفضى الامر اليه من بعد أبيه ، لم يشأ أن يسير سيرته مع الفقهاء ، ورأى أن يقف بهم فى حدود المناصب الدينية من قضاء وامامة وتدريس . ونظر القوم فاذا سلطانهم يتضاءل وينكمش ، واذا الحاكم الجديد يستمع الى الادباء والشعراء وقادة الحرب أكثر مما

يستمع الى أصحاب الفقه والتشريع فأعلنوا الحرب الباردة عليه بادىء ذى بدء فأوحوا الى العامة بأنه ملحد يدرس كتب الزندقة والزيغ ، وفاسق يصحب الخلعاء ، والمتهتكين ويدمن على الشراب والعربدة ، وانهالت القـــوارص المحرجة على الرجل فلم تترك فى اديمه موضعا خاليا من تمزيق ، ثم تحولت الحرب الباردة الى حرب ساخنة حين جمع الفقهاء جموعهم ، مع من كانوا اولياء نعمتهم من القادة والولاة ، واعلنوا الثورة على الحكم وحاصروه ورمـــوه بالكفر والمروق ، فاضطر اضطرارا الى البطش ، واورثه هذا الموقف العدائى غلظة وجفاء ، فأمعن فى التنـــكيل وانقلب الى طاغية سفاك حتى استقام به الامر وسلس القياد .

ومع ما اشتهر به من القسوة المرهبة ، فقد وجـد من علماء عصره من يتصدى له بالحق رغبة فى تنفيذ العدالة ، لا بالباطل شهوة فى تقليد الرياسة وامتلاك السلطان . وهو العالم الحر النزيه والقاضى الكبير محمد بن بشير القرطبى امام المسجد الجامع وقاضى الجماعة الغيور .

نشأ ابن بشير نشأة علمية كريمة فطاف ببلاد الاسلام شرقا ومغربا حتى وصل الى المدينة وتلقى العلم مشافهة على امام دار الهجرة مالك بن انس ، ثم عرج فى طريقه على مصر فساجل فقهاءها وعقد أواصر الصداقة بين قضاتها الاعلام . . وقد نفعه ذلك فى منصبه القضائى بالاندلس ، فكان يكتب اليهم بمصر مستفتيا فيما يشكل عليــه من الاحكام ، فيجيئه الرد مشفوعا ببرهانه الثابت من السنة والكتاب . وفى هذا مايكشف عن نفسية ابن بشير ، اذ

لو شاء لكان أمره القضائي بالاندلس حاسما لا معقب عليه ، ولكنه تحرز العالم وتواضع الكبير .

كان ابن بشير في قضائه مجددا ينظر الى الاشياء نظرات عميقة ذات بعد ونفاذ ، وقد أحدث من الاوضاع لعهده ماعد به سابقا غير لاحق ، اذ كان أول من جعل المسجد بمنأى عن مهاترة الخصوم في مجالس القضاء ، واختصه بالعبادة والصلاة حين امر بانتقال محكمته من المسجد الجامع الى سقيفة تتصل به دون أن يسمع المصلى بعض ما يدور بها من حجاج ولجاج ، وقد نظم مسائل الدعوى والشهادة في القضاء تنظيما مريحا ، اذ جعل لكل يوم جلستين : جلسة صباحية تسمع فيها الدعوى وتسجل في أوراق وجلسة بعد الظهيرة يجتمع بها الشهود ويناقشون على انفراد كيلا يعرفهم الجاني ، الا اذا دفعت الحاجة الى المواجهة والاعلان ، ومهما يكن من شيء فقد كان للعالم الكبير رأيه المفكر واستقلاله الكبير .

وقد اصطدم في أول قضية عرفت عليه بالحكم أمير الاندلس . اذ أصدر أمره بادانته في مسألة هامة ، وتوقع الناس أن يصدر الامر بعزله ، وبخاصة وهم يعرفون نفسية الحكم ونفورها من القضاء والفقهاء بعد أن البرا عليه الجموع وبذلوا جهدهم البالغ في التجريح والتشهير وكان القاضي جريئا حازما في موقفه ، فجعل رضا الله نصب عينيه دون اكتراث بغضب انسان ، وكان الله عز وجل قد كافأه على نيته ، اذ الهم الامير الحكم أن يخضع ويستكين فتقبل الادانة بصدر رحب ونزل على راى القاضي فرفع المظلمة عن المجنى عليه ، وقال لجلسائه وقد اخذوا يتملقونه اذ يتحرشون بابن بشير « لا يا قوم : لقد أحسن

ابن بشير بنا فيما فعل على كره منا ، كان فى يدنـــا شيء فصححه لنا ، وصار حلالا طيبا لملك فى أعقابنـــا » (١)
وبديهي أن الذى يتصدى للامير الحاكم ، ويحكم عليـــه بالادانة يسهل عليه أن يتصدى لمن دونه مـــن الوزراء والحجاب والولاة . فكان يصدر احكامه الكثيرة بادانتهم ، فتمتلىء صدورهم حفيظة وغيظا دون أن يجدوا متنفسا لما يستشعرون . وقد حكم ذات مرة فى قضية هامة على الوزير ابن فطيس ، ولم يعرفه بالشهود ، فاغتاظ الوزير غيظا ناقما وشكاه الى الحكم وجعل يستعديه عليه فاضطر الحكم أن يكتب الى القاضى فيقول :
« ان الوزير كره حكمك عليه بشهادة قوم لم تعـــرفه بهم ولا أعذرت اليه فيهم وأهل العلم يقولون ان ذلك له » .

وخطاب الحكم ـ على ايجازه ـ غاية الغايات فى الادب واللياقة فهو يعترض على اخفاء الشهود عن الوزير ، ولا يقول ان له ذلك الحق بل يسند القول الى أهـــل العلم وحدهم لا اليه .. ولن تجد ذوقا كهذا الذوق من رئيس كبير !!

وقد جاء رد ابن بشير على رسالة الحكم مقنعا مريحا فهو يجزم بأن ابن فطيس اذا عرف خصومه فى الشهادة لم يتحرج عن طلب اذاهم فى أنفسهم وأموالهم واذ ذاك لا يجرؤ أحد على الشهادة ضده وتضيع حقوق الناس .

هذا الفهم النفسى لمكايد الوزراء ودخائلهم يوقفك على الرصيد الضخم من البصيرة والاستشفاف لدى القـــاضى

---
(١) المدارك للقاضى عياض (مخطوط)

الكبير .. ويعلمك انه ليس فقيها فقط ، ولكنه باحث متعمق يستكنه السرائر ، ويضع لكل حالة علاجها المصيب وقد رد شهادة الامير الحكم نفسه فى قضية هامة ولم يخش لومة لائم من انسان . وان قاضيا يجابه السلطان هـــذه المجابهة الخطيرة لقوى امين ..

اما كيف تمت هذه المجابهة المحرجة ! فاليك موجـزها الدقيق نقلا عن كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام .

« كان للحكم عم يسمى سعيد الخير ، وكان له فى دولته مقام كبير ، فوكل عند قاضى الجماعة ابن بشير وكيـــلا يخاصم عنه بشىء اضطره اليه ، وكانت بيده وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا . ولم يكن فيها من الاحياء الا ابن أخيه الحكم ، وشاهد آخر مبرز . فشــــهد ذلك الشاهد لسعيد الخير ، وضربت على وكيله الآجال ليأتى بشاهد ثان ، فلما جد به الخصام دخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم ، واراد شهادته فى الوثيقة ، وقد كتبها فى حياة ابيه قبل ان يقوم بامر الاندلس ، لمعرفه مكان حاجته الى شهادته عند قاضيه خوفا من بطلان حقه . وكان الحكم يعظم عمه سعيد الخير . ويلتزم مبرته .

ولكنه خاف من ابن بشير ان يرد شهادته ، فيــكون لذلك اثر غير محمود فى ملكه فقال له : ياعم .. انا لسنا من أهل الشهادات ، وقد التبسنا من هذه الدنيـــا بما لا تجهله ، ونخشى ان توقفنا مع القاضى موقف مخزاة كنا نفديه بملكنا ، فسر فى خصامك حيث صيرك الحق اليه ، وعلينا خلف ما انتقصك .

فابى سعيد الخير ذلك من الحكم ، وقال له : سبحان الله . ماعسى ان يقول قاضيك فى شهادتك ؟ وانت وليته

وهو حسنة من حسناتك ، وقد لزمتك فى الديانة أن تشهد لى بما علمته ، ولا تكتمنىَ ما أخذ الله عليك .

فقال له الحكم : بلى ان ذلك لمن حقك ، كما تقول ، ولكنك تدخل علينا به داخلة ، فان اعفيتنا منه فهو أحب الينا ، وان اضطررتنا لم يمكننا عقوقك .

فعزم سعيد الخير على الحكم فى أداء شهادته ، وألح عليه فيها الحاحا شديدا ، فأرسل الحكم عند ذلك الى فقيهين من فقهاء زمانه ، وخط شهادته فى قرطاس بيده، وختم عليها بخاتمه ، ودفعها الى الفقيهين ، وقال لهما : هذه شهادتى بخطى تحت ختمى ، فأدياها الى القاضى .

فذهب الفقيهان بهذه الشهادة الى ابن بشير ، فدخلا عليه بها فى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود ، فأدياها اليه ، فقال لهما : قد سمعت منكما ، فقوما راشدين فى حفظ الله تعالى .

ثم جاء وكيل سعيد الخير بعد انصرافهما . وتقدم الى ابن بشير مدلا واثقا ، لانه أتى اليه بشهادة ملكَ البلاد ، فقالَ له : أيها القاضى ، قد شهد عندك الامير أصلحه الله تعالى ، فما تقولّ ؟

فأخذ ابن بشير كتاب الشهادة ونظر فيه ، ثم قال للوكيل : هذه شهادة لا تقبل عندى ، فجئنى بشاهد عدل .

فدهش الوكيل عند سماع ذلكَ من القاضى ، ومضى الى سعيد الخير فأعلمه بما قال ، فركب سعيد الخير من فوره الى الحكم وقال له : ذهب سلطاننا وازيل بهاؤنا ، يجترىء هذا القاضى على رد شهادتك !! والله سبحانه قد استخلفك على عباده . وجعل الامر فى دمائهم وأموالهم

اليك ، وهذا ما يجب أن تحمله عليه .

وجعل سعيد الخير يغرى الحكم بالقاضي ويحرضه على الايقاع به . فقال الحكم له : وهل شككت أنا فى هذا ياعم؟ القاضي رجل صالح ، والله لا تأخذه في الله لومة لائم ، فعل ما يجب عليه ويلزمه ، وسد دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحسن الله تعالى جزاءه .

ولما سمع سعيد الخير ذلك من الحكم غضب وقال له : هذا حسبى منك . فقال الحكم له : نعم قد قضيت الذى كان لك على ، ولست والله أعارض القاضى فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله .

وقد عوتب ابن بشير من بعض أصدقائه فيما أتاه من ذلك ، فقال لمن عاتبه : يا عاجز ، أما تعلم انه لابد من الاعذار فى الشهادات ، فمن كان يجترىء على الدفع فى شهادة الامير لو قبلتها ؟ ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه .

ولن تحتاج صرامة ابن بشير وجرائه الى تعليق . فقد رفض شهادة رئيس الدولة ، وولى الامر متحرجا متحرزا وكان فى وسعه أن يقبلها ـ كما يرى ذلك كثير من العلماء ، ولكنه ينظر الى الحد الابعد حين يحجم المعترض عن دفع الشهادة هيبة وخشية ، فليحجم هو عن قبولها ، ليحتمل التبعة ويواجه السلطان . هذه هى البطولة ، ولا يلقاها الا ذو حظ عظيم (١) .

---

(١) ملحوظة : ذكر الاستاذ الجليل عبد المتعال الصعيدى فى كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام ان حادثة محمد بن بشير كانت مع الحكم بن عبد الرحمن الناصر وذلك سهو واضح لان ابن بشير عاش فى القرن الثانى من الهجرة ايام الحكم بن هشام أما الحكم الثانى فقد كان فى القرن الرابع فكيف يجتمعان !

طالوت المعافرى
فقيه كبير يصاول أميرا

عرفنا فى الفصل السابق كيف تعرض الحكم بن هشام الى قلاقل مزعجة من فقهاء عصره فلم تمض سفينته رخاء سهلة تعبر النهر الهادىء فى سلام ، ولكنها وجدت من الاعاصير العاتية ما احاط بها الموج من كل مكان ولولا عزيمته القاهرة ، وحيلته الماكرة لكان من المغرضين.

ولو أن الاقدار الحاسمة شاءت له ان يلى الامر بعد جده عبد الرحمن الداخل مباشرة لواصل السير فى سنن مرسوم لا اختلاف عليه ، ولكنه جاء بعد والده هشام . وقد كان ذا منحى خاص فى الحكم يقف موقف النقيض من الداخل ، اذ كان هشام يستشعر مرضا جسميا يظن انه مؤد به عن قريب ، وقد تسلط هذا الشعور عليه، فجعله زاهدا عزوفا يظن أيامه سريعة لا تطول ، وقد احبره هذا الشعور على أن يكل أمره الى رجال الدين من كبار الفقهاء ، وجلة القضاة فجعل منهم مجلس شورى لا يقطع امرا دون الرجوع اليه ، والاطمئنان الى سلامته من الوجهة الدينية ، ورأى الفقهاء انفسهم ذوى الامر والنهى فاستشعروا عزة ومنعة ، وتغلغلوا بنفوذهم فى كل جانب من جوانب الحياة ، ورأى الناس سيطرتهم الماثلة،

ونفوذهم البعيد ، فأصبحوا موضع الرجاء ، ومناط الاصل فى المجتمع الاندلسى ، واصبح الشأن شأنهم فيما يأخذون ويتركون ! دام لهم ذلك كله فى عصر هشام ابن عبد الرحمن الداخل فرضعوا أفاويق المجد هانئين .

ولكن هشاما قد مضى إلى ربه ، وترك ابنه الحكم اميرا له السلطان من بعده ، والامير الشاب وقد كان فى السادسة والعشرين من عمره لم تصقله تجاربه صقلا يعى فيه منطق الاحداث عن مصادمة واختبار ، الا انه مع هذه الحداثة الباكرة كان قوى العزم صلب العود ، صعب المكسر ، وقد وازن بين مسلكى أبيه وجده ، فغاظه ان يصبح والده مغلوبا على امره بين اناس يراهم الامير الجديد بعيدين عن دائرة السلطان ، مغتصبين نفوذ صاحب الكلمة فى الاندلس ! هذا راى الحكم فيهم واعتقاده مخطئا كان أم مصيبا وفى نطاق هذا الراى صمم على أن يجانب الفقهاء ! .

وقد كان الامير ــ مع ذلك ــ صاحب ثقافة وعلم يقرأ كثيرا ويبحث عن نفائس المؤلفات فى شتى الاقطار ويجاذب العلماء والادباء حديث العقل والشرع والادب دون ان يتعدى بهم دائرة السمر العلمى والبحث الفكرى ! وهو مع ذلك شجاع يولع بالصيد ، ويخرج الى الخلوات مجريا فنون احتياله فى أسر الوحوش ، وله طائفة من الندماء فيهم المغنى والاديب والشاعر والفيلسوف ! فالامير متسع الافق جم الافانين ، ومثله فى عزمه وبأسه وثقافته وبعد آماله وانفساح مراميه لا يسهل منه القياد .

موقف شائك صعب يتربص بالامير وخصومه ! ولابد

ان تقع الواقعة الحمراء بين الفريقين ان اخفقت اساليب الكياسة والمصانعة وهي لا محالة واقعة ، فالخلاف من الاتساع وبعد الهوة بحيث لا تجدى معه اساليب الاحتيال والكياسة اذا أجدت فى موقف آخر ، ولا سيما أن كلا الفريقين مقتنع بحقه ، مصمم عليه ، ولابد لاحدهما ان يتغلب فينحسم الخلاف !.

وتفسير هذا الموقف واضح فى ذاته اذا عرفنا أن الحق فى هذه القضية يدعيه كل فريق لنفسه عن حمية واعتقاد! فالحكم فى صميم اطوائه يرى نفسه حفيد الداخل ، له ان يتمتع بجميع ما يتمتع به الحاكم المطلق ذو الكلمة النافذة والامر المطاع ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لمشيئته! ولم لا ؟

ومعاصره هارون الرشيد فى المشرق يقوم فى مملكته مقاما لا يتسامى اليه سواه ، وقد أطاح بالبرامكة فى يوم وليلة وهم ماهم قوة شكيمة ونفوذ سلطان ، فسلم له الحكم خالصا دون شريك ! ومهما تمكن الفقهاء فى عهد أبيه فامتدت كلمتهم الى حيث يريدون ، ومهما عظمت رئاستهم فى الدولة ، وامتد صيتهم الى القريب والبعيد فى الاصقاع فلن يبلغوا مبلغ البرامكة فى المشرق ، وقد عصف بهم الرشيد عصفا لم يبق لهم من أثر فما نهض منهم ناهض ، ولئن تشبث الفقهاء بأماكنهم فى الحكم فسيلقون فى الاندلس مالقى البرامكة فى بغداد .

تلك هى أحاسيس الحكم تتقد فى نفسه جمرا يتوقد ! اما الفقهاء فلا ينظرون الى الامر من زاويته ولكنهم يعلمون ان الاسلام دين الشورى وان الخلافة الراشدة

لم تكن حكما مطلقا انفرد به ابو بكر او عمر او عثمان او على دون استشارة واذعان ، وان الله عز وجـــل قال « يأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول» انما جعل القرآن والسنة مصدرى الحكم ، وجعل اولى الامر من العلماء قوامين على الحكام والسلاطين ، يقومون المعوج ويهدون بالحق وبه يعدلون ، وما عبـــد الرحمن الداخل فى رايهم الا غاصب متجبر ، قام بالامر عن رهبة وجبروت فخالف منهج الخلافة الراشدة ، واســـكت الشورى بمقبض سيفه ، وبغى جنده ، ورهبة بطشه ، وهاهو ذا الحكم يحذو حذوه ، ويراه المثل الاعلى فى الامارة دون ابيه ، ولئن تطامنوا له فنفضوا ايديهم من الاسر ، ليعيدن عهد الداخل ، بل ربما زاد عليه ، فهو ذو ثقافة واطلاع ، وله فى العلوم مشاركة تفتح امامــه منافذ الدهاء والاحتيال .

تلك هى معضلة الحق الملتبس فى هذه القضية العويصة والحق واحد لا يتعدد اذا نظر اليه بعين الرأى لا الهوى واتى اليه من باب الاسلام الصريح دون تأويل وتعليل ، ولكنه فى هذه القضية يتعدد باختلاف المنازع وتضارب الاهواء فكلا الفريقين حريص على الرياسة والجاه يتلمس لهما اسباب الظفر والتأييد ! ولابد من الاصطدام !.

وقد بدات الحرب المتوقعة بالدعايات المرجفـــة والشائعات المغرضة ، فمضت الالسنة تتحدث عن خروج الحكم للصيد واصطحابه الندماء واستماعه للغنـــاء ، وقراءته للكتب الفلسفية ، وزاد الامر حتى تحـــدث

المرجفون عن مجالس الخمر والكأس ، وألحان الولوع والصبابة ، وحديث الجوارى والغلمان ! وذهب قوم يتحسرون على عهود الفضيلة والكرامة ، ويتوقعون قيام الساعة فى عصر الحكم لما يرتكب من محارم ويقترف من آثام ! ثم مضى الحديث الى العامة فى الازقة والدروب ، وفى الناس رغبة كامنة فى انتقاد الرؤساء والعلية من الحاكمين فما يكادون يلمون بشىء يسوء عن ذى امارة او جاه الا اذاعوه مضخما مكبرا ، ومضوا يتناقلونه فى تزايد ومبالغة حتى طفح الكيل ، واصبح حديث الامير مضغة الافواه وسمر السوقة والدهماء . وحرص الفقهاء على استمرار الذائعة بما يعلنون من سخط حتى تجرأ العامة ، فقابلوا موكب الامير بالتصفيق والسخرية ، واتهموه فى خلقه ودينه وقذفوه بالحصباء ! فصار فى مازق يتطلب الخلاص ، واخذ يتلمس من الضيق فرجا ، دون أن يعرف مأتاه ، حتى صحا ذات يوم على ثورة هائجة تقتحم القصر ، يقودها جماعة الفقهاء وكان الثوار من أهل الربض الجنوبى لقرطبة ، فأخذوا يحطمون النوافذ ، ويشعلون النار ودافع حراس الامير عن حرمه اكرم دفاع ، ولكن الثورة تشتد ، والتحطيم يتوالى والفوضى تتفاقم ، حتى خيل للثائرين ان ساعة الحكم قد دنت ، ونظر الامير فوجد الخطب يدهمه عن شمال ويمين ، فتفتق ذهنه عن حيلة بارعة هي أن ينسحب بعض الحرس متظاهرين بالانضمام الى العامة حيث يأتون مساكن الربض فيشعلون بها النيران .

ونظر الثائرون فوجدوا النار تشتعل عن كثب فى

منازلهم ، وعلموا ان نساءهم واطفالهم واموالهم اصبحت طعمة للهيب ففروا الى ديارهم يطفئون الحريق ، ولكنهم وقعوا بين فكى الكماشة اذ اطبق عليهم جيش الحرس ممن كانوا يشعلون النار ومن اخذوا يتعقبونهم حين تركوا القصر ، وكان ذهول المفاجأة باعث التفرق والاضطراب فحصدتهم سيوف الحكم حصدا واخذتهم رماحه دون شفقة او هوادة حتى فنى عدد كبير من الثائرين وهدمت دورهم ، وصلب ثلاثمائة من رؤسائهم مدلاة رءوسهم الى اسفل تنكيلا وارهابا ! وذاق الفقهاء من الهول والشدة ماتركهم جزر السيوف ، تسيل دماؤهم فى الطرقات ، ومن نجا من المعركة لحسن حظه آثر الهروب والاختفاء كيلا يلحقه الموت العاجل ! ثم امر الحكم بهدم منازل الربض وترحيل من بقى من اهله الى شمال افريقية حيث نزلوا بفاس !

انتهى الصراع على وجه حاسم ، وخمدت ثورةالفقهاء خمودا لا قيامة بعده ! وكان الفقيه المالكى طالوت بن عبد الغفار المعافرى ممن اسهموا فى الثورة اسهاما خطيرا ثم كتبت له النجاة فلاذ بالفرار مستخفيا لدى بعض معارفه من اهل الكتاب ! وظن الايام ستسعفه بالعفو والرحمة حين تهدأ الثائرة ، وتصبح الثورة اثرا بعد عين ولكن الزمن يمضى دون ان يطرأ جديد على موقفه الضائق ، والفقيه يتقلب على مثل الجمر حين يرى الكتابى يتحمل ايواءه ونفقته شهرا وراء شهر دون ان يستطيع مكافاته ! وهو امر ان امتد الى عام فلن يعقل ان يطول به الامد الى عام آخر ! وماذا وراء الانتظار والترقب، والدنيا

دنيا الحكم ان شاء اطلقه وان شاء اراحه من كدر الاختفاء ، لابد اذن من مواجهة الموقف ، فوقوع الشر اهون من انتظاره ! وبخاصة اذا كان ابو البسام القرطبى هو وزير الحكم وقد كان تلميذ الفقيه الكبير ، عنه أخذ، وعلى يده تعلم ، حتى جلى وبرز !! فهو اذن طريقه اليه يشفع فى أمره ويهون من خطبه ، وعسى ان تأتى الريح بما تشتهى السفينة المرهقة بعد اعصار عنيف .

بعث الفقيه الى تلميذه الكبير واعلمه بمأساته طالبا شفاعته ! وكان الوزير من الاسفاف الخلقى والضعف النفسى بحيث تخيل أن العثور على أستاذه سيصبح زلفى لاميره ، فعجل بلقائه ، وذهب يدعى له انه بث عيونه وارصاده حتى عثر على طالوت المعافرى مختفيا فى بيت أحد صحابته من اهل الذمة ! وقد بذل فى الكشف عن مخبئه مابذل حتى اهتدى الى مكانه ! ثم قال للحكم فى ابتسام ماكر ؟ كيف رايك اذن يا سيدى فى كبش سمين على مذود ، منذ عام طويل !

قال ابن البسام ذلك وجهل أن الحكم منذ هدات الثورة كان يستشعر الندم على افراطه فى الانتقام ، ويعلل نفسه بأنه اضطر الى ذلك اضطرارا حين راى الثوار يطلبون راسه ولا يرضون بغير اراقة دمه ! وقد مالت نفسه الى الصفح بعد خمود العاصفة ! فما ان وقعت عينه على طالوت حتى أجلسه الى كرسى بجواره وقال له فى عتاب مهذب : « ياطالوت : اخبرنى لو ان أباك أو ابنك مالك هذا القصر أكان يزيد فى البر والاكرام على ماكنت افعله بك ، هل قدمت على قط لحاجة فى

نفسك او لغيرك الا سارعت الى اسعافك ؟ الم اعدك فى علتك مرات ؟ الم تتوف زوجتك فقصدت الى بابك ومشيت فى جنازتها راجلا من الربض ثم انصرفت معك راجلا حتى ادخلتك منزلك فماذا بلغ منك ، وهذا لى عندك . ان لم ترض الا بسفك دمى وهتك سترى واباحة حرمتى ! » .

فظهر الغضب فى وجه الامير ثم التفت الى وزيره يقول فى استهزاء وسخرية ! « يا أبا بسام : رجل من أهل الكتاب حفظ فيه محله من الدين والعلم ، وخاطر بنفسه واهله وماله وولده معى ، واردت ان تنشبنى فيما أنا نادم عليه ، أخرج عنى بعيدا ، فوالله لا رأيت لك وجها أبدا » فخرج الوزير مدحورا معزولا الى حيث لا رجعة !

رأى طالوت وسمع ! فأدركه من الغضب على تلميذه العاق ما ظهر فى احمرار وجهه ولمعان عينيه ، ثم غلى شعوره فنهض قائما غير منتظر اذن الحكم !

ولكن الامير سعى خلفه مودعا ، وقال له فى هدوء . سأصلك وأبرك ، ولك أن تغضبنى كما تشاء ! فلم يجبه الفقيه بشىء !!

لقد تصرف كلا الرجلين بوحى خالص من اعتقاده واذا كنا نكبر فى الامير الاندلسى تسامحه وعفوه وترفعه، فاننا نكبر فى الفقيه المالكى استعصامه بما يعتقد أنه الحق حين برقت الاسنة ولمعت السيوف دون تراجع او استخذاء ! وياله من موقف !

قال ذلك الحكم متوقعا أن لا يسمع من صاحبه ما يشبه الاعتذار ! ولكن طالوت كان معتقدا فى قرارة نفسه ان

الحكم لا يصلح للامارة ، وان ثورة الفقهاء حق لا مرية فيه فاجاب فى اعتداد :

« ما اجد لنفسى فى هذا الوقت مقالا خيرا لى من الصدق ، ابغضتك لله فلم ينفعك عندى كل ما صنعته لاجلى » .

اكتأب الحكم لرد طالوت ، غير أن شعوره النفسى بكراهية الانتقام قد تغلب عليه فقال فى لهجة المتسامح الراغب يستعطف الفقيه :

« اعلم ياطالوت أن الذى ابغضتنى من اجله قدصرفنى عن عقابك ، فانصرف آمنا فى حفظ الله والله لا تركت برك وما كنت عليه فى جانبك طيلة حياتى ان شاء الله وليت الذى كان لم يكن ! » .

لقد كان الاليق بطالوت أن يقنع بالسكوت ، وبخاصة اذا كان هو الساعى بادىء ذى بدء الى استرضاء الإمير، ولكن ثورته النفسية قد أخرجته عما يليق فقال فى غير اكتراث : ــ

تقول ليت الذى كان لم يكن اما انا فأقول لو لم يكن كان خيرا لك !!

فأطرق الحكم متضايقا وأراد أن يغير مجرى الحديث فقال للفقيه المغضب !

اين ظفر بك ابو البسام ؟

فقال طالوت ، والله ماظفر بى ، انا اظفرته بنفسى لصلة علمية كانت بينى وبينه !

فهو تلميذى فقال الحكم متعجبا ؟ وأين استترت فى عامك الطويل ؟!

فقال طالوت : كنت عند رجل من اهل الكتاب رعى مكانى وصان ذمامى !

المنذر بن سعيد
ومواقفه المشهودة

يتألق اسم المنذر بن سعيد البلوطي بين الخطباء والقضاة الذين يتحدث التاريخ عن مواقفهم المشهودة . فقد كان الى فصاحة لسانه وسمو أدبه ودقة مؤلفاته ، ورقة أشعاره ، جريئا فى الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، عادلا فى الحكم فلا يجنح الى هوى ، أو تميل به عاطفة ، زاهدا عزوفا عن المظاهر الخادعة، هذا الى حسن السمعة وبعد الصيت .

وقد نشأ القاضى الخطيب بالاندلس ، وتتلمذ على جهابذتها من الفقهاء والادباء . ثم اخذ السير الى بلاد المشرق فلقى كثيرا من العلماء والرواة ونسخ أوراقا كثيرة مما قرأ وسمع . ورجع الى الاندلس حاملا من كل فن ثمارا طيبة مشتهاة ، فعرف له العلماء مكانه من الفقه والدين وأنزله الادباء بينهم منزلة عالية ، لما له من ذوق جيد فى الفهم ونقد بصير بالشعر ، ورواية حافلة للادب والتاريخ . وكانت الاندلس لعهد المنذر تزدان بسلطان عبد الرحمن الناصر ، وكان ملكا جريئا مقداما جمع الكلمة المتفرقة ، وأسكن الفتن الثائرة ، وهاجم الصليبية الزاحفة ونشر الوية الحضارة والمساواة ، فتجمعت حوله القلوب ، وخافه أعداؤه ومعاصروه من الملوك ، فخفوا اليه

بالهدايا النادرة يخطبون وده ، ويتملقون عطفه ، وقد جعل قرطبة عاصمة ملكه ، نظيرة بغداد وقريعتها علما وثقافة وحضارة ، فشاد بها القصور ، واقام الجسور ، واكثر من الحدائق والرياض حتى اخذت زينتها ، وارتدت ابهج الحلل والمطارف ، وتحدث الناس بجمالها الباهر وسحرها العجيب ، وقد بنى الزهراء وتأنق فى تجميلها تأنقا بارعا فحشد لها المهندسين ذوى الكفاية ، ورفع القباب العالية ، واجرى الجداول الصافية ، وخلع عليها الوانا عاطرة ناضرة تنبىء عن عظمة الملك وجلال السلطان .

وقد رجع المنذر الى الاندلس فى عهد الناصر ، ومهد له الحظ طريق السعادة فتالق نجمه فى مناسبة شهيرة ، اذ أن رسول ملك الروم قد خف لزيارة الخليفة حاملا انفس الهدايا والتحف ، فاقيم لاستقباله احتفال فخم فى يوم مجموع له الناس ، وحضر الفقهاء والامراء واعيان الدولة فى اجمل مظهر ، وافخم لباس ثم تقدم الاديب الرواية الكبير ، ابو على القالى ، ليلقى كلمة الافتتاح فبهره الموقف واخذته الرهبة ، وغشيت الناس سحابة من الخجل والاستحياء حين تلجلج لسانه وتقطعت كلماته واحمر وجهه ، واذ ذاك نهض المنذر بن سعيد فصعد الى المنبر ووصل الكلام بحديث جيد ، فابرز افضال الناصر وتحدث عن مآثره ، وقرر افعاله ، وعدد نعم الله على المسلمين ، وتوعد أعداءهم بما أورث الرهبة والخشية في القلوب ، فاتجهت الانظار الى الخطيب الساحر ، وعظمت مكانته فى عين الناصر فاسند اليه الخطابة فى المسجد الجامع ، ثم عينه قاضى الجماعة فى قرطبة ، فابرز افى الاولى بلاغة وتاثيرا ، وارسل من المواعظ البليغة

ما رقق الافئدة ، واقضى المضاجع ، كما كان فى الثـانية علما من أعلام الحق الذين ينهون عن المنكر ويامـــرون بالمعروف وله فى ذلك مواقف ناصعة تتعطر بها كتـــب التاريخ ، وتزدان بها مجالس القضاء فى الاسلام .

اجل ، كان المنذر مثال النزاهة فى القضاء وله مـــع الناصر غرائب رائعة فقد الزمه الحق مرات عدة ، وهـــو من هو فى سلطانه ودكتاتوريته ، فقد كان الملوك جميعــا لعهده ، شرقيين وغربيين منفردين بأحكامهم ، لا معقب وراءهم ولا نقض لما يبرمون ، ومع مالهم من الســـطوة العارمة ، والبطش القاهر ، فقد وقف المنذر امام الناصر ليؤيد الحق وحده ، ويتخذ خشية الله سلاحا يفل دونه كل سلاح ، مهما رجعت عليه العواقب بما ينتظـــر ان تتمخض عنه ، وكان الناصر دقيق النظر صحيح البصـــر برجاله ، فهو يعلم المداهن المحابى ، والمتظاهر بالحـــق سمعة ورياء ، والمعتصم بالحق ابتغاء مرضاة ربه ، ومن ثم فقد كان ينزل على حكم المنذر ، واثقا من نزاهته وخلوص حكمه من الشوائب . وإذا كان لنا أن نفخر بمن يجاهرون بالحق من القضاة دون رهبة أو خشية فاننا نعجب ايضـــا بمن يستمعون القول فيتبعون احســـنه من الخلفـــاء والملوك ! .

كان للناصر حظية من نسائه ملكت قلبه ، فهام بها ، وكلف برغباتها ، فبنى لها قصرا جميلا . ثم عن له أن يتوسع فى شرفاته ومقاصيره ، فاراد أن يشـــترى دارا مجاورة لبعض الايتام ، وعرض بعض المال لذلك ، فقال الوصى : انه لا ينفذ البيع الا باذن القاضى منذر بن سعيد، اذ أن الايتام فى حجره ورعايته ، فهو قاضى الجماعة فى

المسلمين ، وأولى بالتصرف والانفاذ ، فبعث الخليفة الى القاضي يسأله انفاذ البيع ، فقال البلوطي لرسول الخليفة: ان البيع على الايتام لا يصح الا لوجوه منها : الحاجة الملحة ، او الضعف الشديد ، أو الرغبة فى مال من غبطة مرتجاة . وليس بالايتام حاجة لنقد ، ولا بالدار ضعف فتزال ، واما الغبطة فهذا مكانها ، فان اعطاهم أمير المؤمنين كثيرا ، انفذت البيع والا فلا . وطار الرسول بالخبر الى الخليفة ، فظهر زهدا فى شرائها ، وخاف القاضي أن يصمم الخليفة على الشراء ، فأمر بنقض الدار وبيع انقاضها فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة فى الشراء . فعز ذلك على الناصر ، واستدعى القاضي وناقشه فى هدم المنزل . فقال له المنذر فى جراة حميدة لقد اخذت فى هدمها بقول الله عز وجل :

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت ان أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ، ومقومك لم يقدرها بمال معقول وقد قبضت فى الانقاض وحدها اكثر منه ، وبقيت الارض للايتام ، فتدبر الخليفة الامر قليلا وادرك صدق النية لدى القاضي ، وعلم اخلاصه فى اتباع الحق فقال له : نحن أولى بالانقياد الى العدالة، وجزاك الله خيرا ياقاضي الجماعة عن العدل والاسلام .

موقف كريم من قاضي عادل ، وملك منصف . وبأمثال هذه المواقف الجريئة اعتز الاسلام وبلغ فى قرن واحد مالم تبلغه الدولة الرومانية فى ثمانية قرون ، بل ان المنذر العظيم قد رصد نفسه ناقدا لاعمال الخليفة . فهو لا يكتفى باقامة العدل فى القضاء وحده ، بل يتتبع أعمال الناصر حسنها وسيئها فى رأيه ، فاذا لم يطمئن لعمل ما

جاهر بمحاربته على رءوس الاشهاد ، واتخذ من منبر الجمعة مذياعا يصدع بالمعروف وينهى عن المنكر ، مهما كانت النتائج ، وحسبه أن يسكن ضميره القلق ، فلا يشعر بوخز يؤنبه على السكوت والاغضاء ، وقد كان الناصر كلفا بالعمارة والزخرفة ، فبنى الزهراء وافرغ الجهد فى تزيينها وابداعها ، وأقام قصورها الشماء على احسن طراز ، حتى شغله ذلك عن حضور الجمعة فى المسجد الجامع ثلاث مرات متعاقبات فأراد القاضى ان يلقى الموعظة الزاجرة وانتهز حضور الخليفة للصلاة فى جمعة حافلة وبدأ خطبته بقول الله « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون واتقوا الذى امدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ثم اتبع ذلك بكلام قاس ، ينهى عن الاسراف والتبذير حتى بكى الخليفة وندم ثم قال لولى عهده ونجله الحكم لقد أسرف المنذر فى ترويعى وازعاجى ، والله لا أصلى خلفه الجمعة ابدا . فقال له ولى العهد : وما الذى يمنعك من عزله وايقافه . فرجع الناصر الى ايمانه ويقينه وقال : ويلك امثل ابن سعيد فى ورعه وعلمه وفضله ، يعزل فى أرضاء نفس ناكبة عن الرشاد ، سالكة غير القصد ؟ هذا مالا يكون ، وانى لاستحى من الله عز وجل الا اجعل بينى وبينه شفيعا يوم القيامة مثل المنذر بن سعيد . هذا سمو بالغ نذكره بالفخر للناصر .

وقد زاده فى عيون المنصفين قدرا ونباهة ، ولو استمع الى ولى عهده وعزل المنذر بن سعيد عن الخطابة بالمسجد الجامع لاكتسب جرما آخر ، وسلقه الناس بالسنة حداد فذاع فى الدولة اسرافه وتماديه ، فتذمر من تذمر وتآمر عليه من تآمر .. ولكنه تلافى ذلك كله ، وارضى الله عز وجل فى واعظه ومرشده ، ثم تقبل النصيحة بهدوء واذعان ، بعد أن سكنت عنه سورة الغضب وكان يذكرها للمنذر بمحمدة واعجاب .

على أن الناصر كان يزن رجال دولته ويضع كلا فى منزله اللائق فهو يعرف الفقهاء ومنازعهم ، ويلم بنفسياتهم المتباينة حتى ليكاد ينطق بما فى ضمائرهم من حب وكراهية ، وقد بنى قصرا فخما ، وصفحه بالذهب والفضة ، وزخرف سقوفه بالالوان الذهبية البراقة ، ثم دعا اليه كبار رجاله وسألهم عنه فبالغوا فى الثناء على ابداعه وكماله ، واسهبوا ما شاء لهم الملق فى تعداد مفاتنه ومباهجه ، فسر بتقريظهم سرورا طائرا ثم دخل المنذر بن سعيد واجما ساكنا ودموعه تنحدر على لحيته ، فسأله الخليفة عن حزنه فى غير وقت الحزن ، فأشار الى السقف الذهبى الوضىء وقال : يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ بك هذا المبلغ ، مع ما أتاك الله وفضلك به على العالمين ، حتى نزلت منازل الكافرين .

فانزعج الناصر وصاح : انظر ماذا تقول : ويلك ! فقال المنذر : الا تتذكر قول الله عز وجل « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا

ن فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحيــاة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » فوجم الخليفة ونكس راســه معتبرا ثم قال : جزاك الله خيرا من ناصح امين .

ونهض الى الزخرف الذهبى فأزاله لساعته ، ثم أمر بطلاء القبة طلاء عاديا ، لا رونق به ولا تنميق !

بهذه المواقف الخالدة للمنذر بن سعيد تعطر تاريخــه بالثناء والمديح ، ولقى فى حياته من الاكبار والاجلال مالقيه بعد مماته من التعظيم والاطراء . ولا ريب فقد كان مثلا رفيعا لعالم الاسلام فقها وفصاحة ونزاهة وورعا ، وقد ائتم به قضاة الدولة وفقهاؤها فدرسوا احكامه وحفظوا خطبه ، اما العامة من الرعية فقد بهرهم ذياده عن الحق ووقوفه بالمرصاد لكبراء الدولة وامرائها فتجمعوا حوله ولاذوا به فى الشدائد . وقد امتنع المطر مدة طويلة حتى جفت الانهار ، وغاضت الينابيع فتزاحم الملأ على القــاضي مستجيرين ، وخرج بهم الى العراء فخطبهم خطبــــة مؤثرة ، ووعظهم وعظا خاشعا وبكى فأبكى الحاضرين ، ثم اذن الله فتجمعت السحب ، وانهمر الغيث انهمــــارا شديدا على الآكام ومنابت العشب ، ومسايل الاودية ، ورجع الى منزله قرير العين مبتهج الخاطر ، اذ اجــاب الله دعوته ، وغمر البلاد بفيض زاخر ، تتقاذفه الانهار فأخصب جديبا ، واحيا مواتا ، وانقذ الارواح .

وكان المنذر الى ذلك كله حاضر البديهة جيد النادرة ، ينظم الشعر الرقيق فى دقائق اللغة وضروبها من بلاغــــة وتصريف ، وقد افادته رحلته الى الشرق معرفة بالناس

ودراية بشئون البلدان ، ومشافهة للائمة ، ومناظره للعلماء ، فنضج عقله وسلس بيانه ، وتحرر من ربقة الجمود ، فكان لا يتقيد فى الافتاء بمذهب مالك بن أنس : بل قارن ووازن وحلل وعلل ، واكتسب سمعة فقهيه رشحته للامامة والافتاء ، وانك لتقرأ ماروى من خطبه واشعاره فى معجم الادباء لياقوت ، ونفح الطيب للمقريزى ومطمح الانفس للفتح ، فتجد المعنى الرائع ، والاسلوب البليغ ، والذوق البصير ، وكل ذلك كثير .

العز بن عبد السلام
سلطان العلماء

اجمع فقهاء عصره على انه سلطان العلماء ، فقد كان الشيخ من العلوم على اختلاف فروعها واتساع جوانبها بمنزلة رفيعة . فقد كتب المؤلفات الكثيرة فى الفقه والاصول والتوحيد والتفسير والحديث والبلاغة ، كما شارك فى التصوف مشاركة علمية وعملية ، فزهد وتنسك وكتب فى المواجد والمقامات ، والحق أن العز لم يكن سلطان العلماء وحدهم . فقد كان سلطان الدولة بمن فيها من ملوك وامراء !!

حتى انه عرف بأنه القائم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمانه ، وكانت جراته فى الحق مثار الدهشة والعجب ، فقد صمد لكثير من الطغاة معتزا بحقه ، ولم يمنعه فى ذلك ارهاب وتهديد وقد القى به فى غياهب السجن فما ازداد الا ثقة ومهابة ، بل ان ما كابده من المحن قد أورثه صلابة وجرأة فاستعذب مرارة الالم فى سبيل الله ، وظل على مبدئه يكافح الظلمة حتى خشع الجميع لارادته وأصبح سيد الدولة فى مصر وسلطان الناس .

وقد نشأ هذا الفقيه بدمشق ، فدرس العلم على أئمتها

الثقات ، مثل فخر الدين بن عساكر ، وجمال الدين الخراسانى ، وسيف الدين الامدى ، ثم ارتحل الى بغداد فشافه علماءها ، وجالس فقهاءها وعاد الى بلدته جم المعرفة واسع الدراية ، فانتشر له دوى علمى ، وبرع فى الفقه براعة فائقة حتى بلغ مرتبة الاجتهاد ، بشهاده الائمة من معاصريه ، وعزل كثير من الفقهاء أنفسهم عن الفتوى ـ كالحافظ المنذرى ـ مكتفين بما يصدر عنه من أحكام .

وقد ولى الخطابة فى دمشق ، فاتخذ من منبرها مذياعا يشن به الحرب على الباطل ويدحض البدع والخرافات، ويواجه الطغيان من الرؤساء حتى خيف جانبه ، وعظمت رهبته ، وان الذى يبحث مواقف الشيخ ليعجب بقوة الايمان الخارقة التى سيطرت عليه ، فخلقت منه أسدا غضوبا يفر امامه الحكام ! فما يزار العز على منبره حتى يرتجف الباطل ، ويتزعزع الضلال ، وتقوم الحرب العارمة بين الحق وخصومه ، ويخرج الشيخ من الحومة مؤزر النصر ، عالى الراس ، وهانذا الم ببعض مواقفه الناصعة مراعيا ترتيبها الزمنى ما أمكن ليكون بها عظة بالغة لمن كان له قلب او القى السمع !

كان الملك الاشرف موسى بن العادل سلطان دمشق ، وله بها من النفوذ والسيطرة ما للملوك والرؤساء ، وكان للعز عنده منزلة رفيعة فهو يقدر ايمانه القوى ، ويشهد مواقفه الغر من أصحاب البدع والخرافات ، ولكن جماعة من المبتدعة قد اثاروا بدمشق فتنة فارغة فذهبوا يقولون : ان كلام الله بحروف وأصوات .

واندفعوا فى لجاجة حشوية لا طائل تحتها ، وتحزب

العامة فريقين بازائهم . وقد افلحوا فى اقناع السلطان الاشرف بآرائهم فاكتسبوا بمؤازرته قوة اثارت الشغب والتهريج ، فى وقت تتجمع به جيوش التتار لمحاربة المسلمين بدمشق ، فثار العز على هؤلاء المتدعين ثورة عارمة ، وندد بهم فوق منبره تنديدا ماحقا . كما اصدر فتوى يقرر فيها مذهب السلف والجماعة فيما اثاروه من الضجيج ! وقد أفلح هؤلاء فى اغضاب السلطان عليه ، فقامت بينه وبين الشيخ مناقشات ومساجلات حادة ، لم يسلس فيها العز قيادا او يلن جانبا ، فصدر الامر بعزله من الخطابة ، وحرمانه من الفتوى ، واعتقاله ببيته ، ولكن الحق قد ظهر أخيرا على يده ، فاعتذر له السلطان ـ وكان فى مرضه الاخير ـ فاهتبل العز هذه الفرصة ، واتخذ من اجتماعه بالاشرف مجالا للنصيحة ، والامر بالمعروف وقال للسلطان :

ـ كيف تعد الذخيرة وتجمع الجيوش لمحاربة الملك الكامل سلطان مصر وهو اخوك ، وجنوده مسلمون كجنودك ! فتضيع الدماء الطاهرة فى خلاف عائلى لا يرجع على الاسلام بغير النكبة والخسران ! ان جيوش التتار تخوض بلاد المسلمين واولى بكما أن تتعاونا على درء الخطر الزاحف فتنالا مثوبة الله واعجاب الجميع .

وما زال الشيخ المخلص بالرجل المريض حتى اقنعه فثنى العزم عن أخيه وأبطل المحارم والمناكر ، وكان موقف العز رائعا حين امر له السلطان بالف دينار فردها قائلا : هذا اجتماع لله ، فلا اكدره بشىء من عرض الحياة !

رجع العز الى منبره يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كعهده ، وقد آلى على نفسه أن يتعقب الفساد فى كل

مرصد ، فلا يقطع لسانه عن باطل مهما جل ذووه ! وقد نزلت بدمشق نكبة فادحة حين ملكها الصالح اسماعيل ودب بينه وبين نجم الدين ايوب خلاف شديد ، فخاف على ملكه فصالح الفرنجة من الصليبيين على ان ينجدوه من ملك مصر ويسلم اليهم « صيدا » و « التميف » وغيرهما من بلاد المسلمين ، ولم يلبث الصليبيون ان دخلوا دمشق بمقتضى المعاهدة ، واخذوا يبحثون عن السلاح يشترونه ويعدون أنفسهم به لمحاربة المسلمين ! فعظم ذلك على العز وافتى بتحريم بيع السلاح ، وندد بالصالح اسماعيل فى مجالسه ودروسه ، ثم اعتلى المنبر ليعلن تبرمه وسخطه على السلطان الغادر دون أن يعبأ بارهاب يتهدده ، وانتشرت ثورة العز بالمدينة فانزعج لها الصالح انزعاجا شديدا ، واصدر امرا بعزله وحبسه ! فما زادت الثورة الا استفحالا ، فبدا للملك أن يطلقه على أن يغادر دمشق وخرج العز الى كنانة الله وقلوب الشاميين تتبعه ، وقد سار خلفه كثيرون ! وخاف السلطان ان ينتشر حديث خيانته بمصر ، اذ دخلها العز ، فأرسل اليه من يصالحه على العودة الى منصبه على أن يستكين للسلطان ويقبل يده !

وما كاد العز يسمع كلام الرسول حتى صاح به : والله لا اقبل أن يقبل الصالح يدى ! فضلا على تقبيلى يديه ! يابنى ارجع الى صاحبك فهو فى واد وأنا فى واد .

رحل الرجل العظيم الى مصر ، وقد سبقه اليها مجده وفقهه ، فاستقبله العلماء بالاجلال ، وكان المحدث العظيم الحافظ المنذرى صاحب الفتيا بها ، فامتنع عنها اجلالا لعلمه . ورأى الشيخ كثيرا من محبة السلطان الصالح

ايوب وعنايته به اذ ولاه الخطابة بجامع عمرو والقضاء بمصر والوجه القبلى ، والتفت القلوب حول الـــزائر الجديد ، فارتوت العقول من علمه ، واشرقت القـــلوب بنوره ، وسار على سننه المعهود يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، واتخذ من منبره بالفسطاط مذياعا جديدا . يرسل به النذر ويقيم الحجج « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينه » . وطبيعى انه يعظم نفوذ الرجل وقد وثق بربه ، وبذل جهده الجاهد في مرضاته ، فــلم تأخذه رهبة في محاربة بغى ، واستئصال فساد ، وقــد مر ذات صباح على صديقه الصالح ايوب فى يوم عيد ، وقد اخذ السلطان زينته ، وخرج على قومه ، والجنــود مصطفون بين يديه . والامراء يقبلون الارض تحت أقدامه والرايات تخفق ، والخيول تصهل ، والدنيا تجتمـــع لتشهد ! فالتفت الشيخ الى السلطان فى أبهته الأخاذة ، وتيهه المتعاظم ، وصاح به : يا أيوب .. ما حجتــك عند الله ، اذا قال لك الم ابوئك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ فاندهش الملك وقال : هل حصل ذلك ؟ فقال الشيخ : نعم ، حانة فلان وحانة فلان ! فقال السلطان : هذا من زمان ابي وما صنعت شيئا ! فقال الشيخ : ما هذا ؟!.. أانت من الذين يقولون انا وجدنا آباءنا على أمة ؟!

فرسم السلطان امرا باغلاق الحانات فورا ، ورجــع الشيخ الى درسه ، فسأله تلميذه الباجى عن موقفـه . فقال : يابنى لقد رايته في تلك العظمة فأردت أن اهينه . لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، ولقد إستحضرت هيبة الله تعالى اذ اخاطبه فصار السلطان عندى اقل من القط .

« ولو كانت بنفسى لديه حاجة من حاجات الدنيـــا لرايته الدنيا كلها » ! ..

الله اكبر ... هذا هو العالم الحق الذى لا يعبا بصداقة شخصية ، أو منفعة ذاتية بل يجعل الاسلام رائده، يبحث عن تعاليمه ، ويتشدد فى أوامره ونواهيه ، فهو خير امة اخرجت للناس . وقد ورث النبى فى علمه وهديه ومنبره وقام على رسالته يصون الارث الثمين ! وقد جاهد العز بسيفه كما جاهد بلسانه ، جاهد بسيفه حين هـــاجم الصليبيون دمياط ، وارادوا اكتساح الاسلام فى أمتـع دوله وأعز حصونه ، فنهض الشعب عن بكرة أبيـــه ، وامامه امراؤه وجنوده وعلماؤه ، وخطب الشـيـخ خطبة مؤثرة ، أشعلت الحمية فى الصدور ، ودفعت النفـوس الى الجهاد . ويروى المؤرخون ان الريح قد حاربت السفن المصرية بادىء ذى بدء ، فوقف العز ينادى بأعلى صوته : اللهم حول الريح عن عبادك المسلمين .. ويلوح بيده الى ناحية الصليبيين فتغير الوضع ، وانكفات الريـــح الى سفن الفرنجة . وسواء اكان ذلك اجابة لدعوة الشيخ ام ظاهرة طبيعية لا شىء للكرامة فيها فان موقف العز كان مصدر يمن واقبال ، فتم به النصر وانطلقت الزغاريد .

ولم تـــكد مصر تستريح من نضال الصليبيين حتى تعرضت لقتال عدو آخر اشد باسا وأعظم نكالا ، فقـد اكتسح التتار بلاد الشام وولوا وجوههم نحـــو مصر المحروسة ، وقد ذاعت الروائع عن قوتهم الخـــــارقة ووحشيتهم الكاسرة فملات القلوب بالوجل والخـوف ، واستانف العز جهاده فدعا الى محاربة أعداء الاســلام ،

واجتمع العلماء بالامراء والقواد والاعيان . واخـــذوا يتشاورون فيما يصنعون ، فراى الامراء ان تجمع الاموال من الرعية ليستعين بها الجيش فى نضاله الرهيب . ووافق الحاضرون على الاقتراح كأمر مسلم به لا يقبـــل الاعتراض ولكن صيحة الشيخ تعلو بكلمة الحق . فيقول : لكم ان تفرضوا الضرائب على الرعية كما تريدون اذ لم يبق فى بيت المال شيء ، واذا باع المماليك جواهـــرهم النفيسة ، وادواتهم المذهبة ، وذخائرهم الثمينة ولم يبق لهم شيء غير ما للعامة فيتساوى الجميع ، وتفـــرض الضرائب على الرءوس ، وقد اذعن الحضـــور لامـــر الشيخ ثم توجه الجيش المؤمن بقيادة الملك المظفر قطـز فكتب للاسلام نصرا خالدا ، بهزيمة التتار ـ لاول مرة ـ فى موقعة عين جالوت .

وقد تنكر الحظ للملك المظفر الظافر ، فاغتاله بعض اعدائه فى اثناء عودته مكللا بتاج الظفر والنجاح ، واراد الظاهر بيبرس ان يأخذ لنفسه البيعة بعد مؤامرة دبرها، وكان له من الجبروت والبطش ما ارهب وأفزع ! ولـكن العز لم يعبأ به ، فامتنع عن مبايعته ، وقال له فى صراحة عالية جهيرة : ياركن الدين ، انا اعرفك مملوك البندقدارى ولم يثبت لدى عتقك للآن ، فكيف ابايعك ! فاستحضر الظاهر شهودا يعترفون بخروجه عن ملك سيده واسترداد حريته ، فبايعه الشيخ ، وبايع خلفه الجميع .

هذه الحادثة العجيبة لها فى تاريخ العز نظير اعجب وادهش ! فقد ثبت لديه ان الامراء من المماليك لم يعتقوا ؛ وهم بذلك من حق بيت المال ، فاعلن للعامة ان حكم الرق

لا يزال مصاحبا لهم ، وأن تصرفاتهم من بيع وشراء وعقود ونكاح باطلة لا تنعقد ، وقد أفسدت هذه الفتوى الجريئة على الامراء كل عمل يقومون به ، فثارت ثائرتهم ، وكان بينهم نائب السلطنة فهاج وماج ، وتطاير الشرر من عينيه ، واقسم ليصرعن العز بسيفه فقد تعاظمه ان يكشف الرجل عن حقيقته ! فاذا هو مملوك رقيق ! برغم ما يعوم فيه من سلطان وابهه ، وكيف والامراء من المماليك ملوك الارض وأصحاب الجاه الطائل والصيت البعيد !!

سار نائب السلطنة الى بيت الشيخ ممتطيا صهوة جواده ، وفي يده سيفه المسموم ، يبرق به لعاب المنية ، فطرق الباب طرقة شديدة ، وتقدم للعز فنظر اليه نظرة تتطاير منها ما يشتعل بقلبه من الغيظ والحقد ، ثم رفعه على الفقيه الساكن الهادىء في مكانه كأن الامر لا يعنيه ، ولكن اليد الظالمة ترتجف ! والسيف المسموم يسقط الى الارض ، والامير الفارس يتخاذل ويرتعد ! كل ذلك والعز لم يبد حراكا ! أفكانت رهبة الموقف قد زلزلت أعصاب الامير فتعاظمه ما هو مقبل عليه من شر مستطير ، أم أن عناية السماء قد جعلت من قوته ضعفا فانكفأ بعد سقوط سيفه يترضى الرجل ويستعطفه ، ثم ينزل على حكمه ، فيقول : يا سيدى ماذا تصنع بنا ، فيجيب في ثبات : انادي عليكم وابيعكم ، واقبض الثمن غاليا لأودعه في بيت المال ! وهذا ما كان فقد صاح المنادى آن ذاك بهذه الكلمة التى سطرت انفس مواقف العزة : امراء للبيع امراء للبيع ! وقد قال له نجله عبد اللطيف : لقد خفت عليك

خوفا شديدا من بأس الامير ، فصاح به ابوه : لا تقل ذلك يابنى فابوك اهون من ان يقتل فى سبيل الله !

على أن الرجل كان صاحب ارادة وتنفيذ ـ فهو ينهى عن المنكر فاذا ابطأ ذوو الامر فى تنفيذ نهيه باشر التنفيذ بنفسه دون تهيب أو اكتراث ، فقد بلغه أن الامير فخر الدين عثمان قد جعل من سطح مسجد بمصر مكانا للزمر والطبل ، فبنى به ماكان يسمى « طبلخانة » فقام العز بنفسه وصحب جماعة من تلاميذه وهدم البناء ! وقد غضب الوزير والامير لذلك فأسقط عدالتهما وعزل نفسه من القضاء دون أن يرجع للسلطان . ثم لزم داره يفسر ويؤلف حتى استعطفه صاحب الامر ، فباشر التدريس بالمدرسة الصالحية . وواصل الشرح والتعليم ، وقد أخطأ ذات يوم فى فتوى فأمر مناديا يطوف بالمدينة ويقول : ما افتاه آلعز بكذا فليعلم انه خاطىء ! فيالعظمة الحق ويالجلال الايمان !!

لقد عاش الشيخ ثلاثة وثمانين عاما كانت كلها بركة ويمنا على الاسلام ، وحين ادركته الوفاة عرض عليه الظاهر ـ فى احتضاره ـ أن يعين أولاده العلماء فى منصبه . فأبى وقال : ليس فيهم من يصلح . ثم رشح من زملائه الائمة من وثق بعلمه ودينه ، أرضاء للعدالة . وحين خرجت جنازته سارت مصر كلها برجالها ونسائها وأطفالها تشيعه وتبكى عليه ، وقد نظر الظاهر بيبرس الى الجمع المحتشد فقال : الآن قد استقر ملكى ، فلو أن هذا الشيخ أمر الناس بخلعى لبادروا الى امتثال أمره كما يشاء . ومهما عرف عن الرجل من قوة وجلال ، فقد

كان يصحب الفقراء ويشارك أهل الزهد من المتصوفين ، وقد أورثته صوفيته شفافية حساسة فتعلق بالادب ، ونظم الشعر ! وما نعهد فقيها كتب فى أكثر علوم الشريعة فى عصره غيره وقد مدحه الحافظ المنذرى ، وابن الحاجب وابن دقيق العيد ، والشاذلى وغيرهم من علماء زمـــانه بما فاق الوصف واربى على البيان .

وكنا نعهد الفقهاء لا يخوضون فى ابحاث الادب ولـكن العز قد الف فى البلاغة والمجاز فكان يحلل الابيـــات ويتحدث عن مناسباتها وقائليها ، غير مقتصر على القواعد الفنية للبلاغة كعلم ذى تعاريف ومحترزات .. وقــد جاءه رجل فقص عليه انه رآه ينشد فى المنام قولَ كثير عزة :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة
ورجل رمى فيها الزمان فشــلت

فسكت العز ثم قال : اعيش ثلاثا وثمانين سنة فان هذا الشعر لكثير ، وقد نظرت فلم أجد مناسبة بينى وبينه ، فأنا سنى وهو شيعى ، وانا طويل وهو قصير ، وانا سلمى وهو خزاعى ، وانا شامى وهو حجازى ، وهو شاعر وانا فقيه ، فلم يبق الا السن فأنا اعيش كما عاش وقد كان الامر كذلكَ ! .

وهذه القصة على صغرها تؤكد المام الرجل بتـــواريخ الادباء ، كما تكشف عن مدى تعلق فقهاء الاســلام بتعبير الرؤيا من لدن ابن سيرين وسعيد بن المسيب الى اقــرب عهودنا بمشايخ الازهر فى القرن التاسع عشر ! وما فى ذلكَ شىء فهم يقتدون بنبى الله يوسف الصديق .

وبعد فقد كنا نقرا قول القائل عن العلماء .

كانوا اجـــل من الملوك جـــلالة
واعـــز ســـــلطانا وافخم مظهـــرا

فنظن ذلك مبالغة شعرية ولكننا نقرا سيرة العز بن عبد السلام فنجده حقا اجل من الملوك ، وفى مواقفـــه السابقة أكبر برهان واكبر دليل .

محيي الدين النـــووى
وسطوة الظاهر بيبرس

ان مصباح الهداية الاسلامية ليتنقل من جيل الى جيل دون ان ينطفىء نوره على مدى الحياة ، فلم يكد العز بن عبد السلام ينتقل الى جوار ربه حتى نهج نهجه فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر عالم من طرازه يشاركه الفهـــم الصائب والعزة العالية ، والمجابهة الصريحة الســــافرة للطغيان ذلكم هو الامام الفقيه الورع محيى الدين النووى .

لقد عاش الرجل ردحا من حياته فى عصر الظـــاهر بيبرس ، والظاهر كما نعلم بطل جرىء من ابطال التاريخ اسدى للعروبة والاسلام ايادى رائعة حين كافح الاستعمار الصليبى فى مواقع فاصلة . فقاد الجيوش وراء الجيوش ليرد الزحف الجائر المتربص بدبار الاسلام وممالك العروبة ضاربا ضرباته الصاعقة الماحقة التى زلزلت هذا الكيـــان المحتشد المتربص ، فاخذ ينكص على اعقابه فى ذهول ، كما استطاع ان يسهم اسهاما ماجدا فى اندحار الســـيل التترى المتوحش حين تدفقت سيوله على المسلمين ،ولم يجد من يثبت امامه غير الجحفل الصابر المؤمن فى عين جالوت بقيادة الملك قطز ، والبطل بيبرس . ومع هـــذه المواقف المشرفة فقد كان مسلكه السياسى لا تخلو مـــن

النقد الصارم العنيف ، اذ أن انانيته القاهرة كانت تدفعه الى بعض ما يعد جريمة خائنة ، ويكفى أن نذكر تآمره الغادر على حياة الملك قطز ، فقد اغتاله بعد أن فرحت الدنيا بانتصاره الحاسم في عين جالوت . ولم يكن الظاهر يحسب حساب مابعد خيانته اللئيمة غير العز بن عبد السلام ، فقد امتنع عن مبايعته حين راى لون الدم في يده ، وخاف الظاهر من تكتل الامة وراء العز ، فأخذ يصانع الامراء ويجامل القواد ، ليضمن الى جانبه ذوى القوة والسلاح . وقد واجهه ابن عبد السلام على رءوس الاشهاد بانه عبد « للبندقدار » لم يثبت عتقه ، فأخذ يتذلل ويحضر شهودا يثبتون خروجه من ملك«البندقدار» وكان الشيخ المسن في مرضه الاخير فلم يلبث ان لحق بربه ، وتنفس الظاهر الصعداء حين راى جنازته تمر تحت القلعة ووراءها آلاف والاف ممن لا يحصون ، حتى قال قولته المشهورة « اليوم قد استقر امري ، فان هذا الشيخ لو قال للناس : اخرجوا عليه لانتزع منى الملك »

قال الظاهر قولته تلك ، ولم يدر أن الايام تخبيء له عالما داعية جريئا من طراز العز ، آلى على نفسه أن يوفي بعهد الله على العلماء أن يقفوا مع الحق فى كل سبيل ، فحمل الراية ونزل الى الميدان .

كان الفقيه العلامة محيي الدين النووى ، ذا هيبة وجلال . وقد تنقل فى جميع العواصم الاسلامية لينهل من حياض الثقافة فى كل مركز من مراكزها النائية ، ورجع الى دمشق يجر وراءه فقها وعلما وورعا ، فقام بالتدريس وأخذ فى التاليف المستوعب الجامع حتى طارت

له شهرة واسعة فى فقه المذهب الشافعى ، ونحن نجد آراءه الدقيقة حتى فى غير كتبه يتناقلها المؤلفون لتكون اداة ترجيح بين راى وراى . وقد جرى العامة والخاصة من الفقهاء على اعتقاد الصلاح والولاية فيه ، حتى نرى شيخا جليلا كتقى الدين السبكى ينزل الى قاعة الحديث الاشرفية حيث يجلس النووى ويسير فيمرغ وجهه على بساطه ويقول لمن حوله :

عسى انى امس بحر وجهى
مكانا مسه قدم النواوى

على اننا الآن نلمس نور قلبه فى كثير من مؤلفاته مثل رياض الصالحين ، والاذكار المنتخبة من كلام سيد الابرار وبستان العارفين فى التصوف ، اذ ان امثال هذه الكتب تفيض بضياء مشرق يستمد شعاعه من التقوى الخاشعة واليقين الصريح . اما دقته العلمية فتتضح فى كتب اخرى مثل التحرير فى الفقه ، وروضة الطالبين ، والمنهاج والمجدع وغيرها مما لا يزال اكثره مخطوطا الى اليوم . ولسنا الآن بصدد تحديد مكانه العلمى ، ولكننا نمهد بذلك الى الحديث عن شجاعته الادبية ، وايمانه الجرىء .

لقد اشتد الظاهر فى جمع الضرائب والمكوس من العامة ليستعين بها على الجهاد ، حتى وصل به الشطط الى ضروب من العنت والارهاق . ودار الشيخ بعينيه فراى كثيرا من التجار يجردون من اموالهم ، وتحيط بهم طائفة من غلاظ الجباة ، يغتصبون ويسلبون ، فاذا اعتذر احدهم بضيق اليد تعرض متجره للنهب وقد تتهاوى عليه السياط المحرقة دون رحمة واشفاق . فكتب الى

السلطان يلفته الى ذلك ، ويوصيه بالعدالة والحق فيما ياخذ ويدع من الاموال ويشرح ما شهده بنفسه من مآس قاسية تنفطر لها الاكباد ، وقد اغلظ عليه القول اذ بالغ في التهديد والوعيد ، وطار الخطاب الى الظاهر فرأى أن العز بن عبد السلام قد رجع فى صورة عالم جديد هو محيى الدين النووى ، فظن ان المدافع الثانى ليست له مكانة العز ومنزلته ، ورأى أن يواجهه بالشدة قبل أن تلتف حوله النفوس ، ويصير ذا صدى مسموع يقلق ويهيج ، فرد عليه بكتاب قارص يحمل الانكار والتوبيخ ، ويشير بالوعيد القاهر لكل من يتدخل فيما ليس يعنيه ، ثم هو لايقتصر على الشيخ واتباعه من العلماء بل ينتقل الى الرعية فرميها بالبخل والشغب ، ويعلن ان أمر الجباة نافذ الطاعة مهما غلوا فى المكوس وتهجموا بالسب والضرب اذ هم أعوان الدولة ورسلها لدى الناس وقد ظن الملك الظاهر انه بذلك قد اطفأ النائرة وكمم الافواه . وصل الرد الى الامام المجاهد ، فقرأه متعجبا ثم دعاه داعى الحق الى أن ينقض الباطل ، ويحق الحق ؛ فلم تأخذه رهبة من حاكم جبار يعتصم بالقوة والجاه والسلطان ، ودعا من فوره بالدواة والقلم ليرد على كل كلمة جائرة تضمنها قول الحاكم الباطش ، وقد غمرته سكينة الايمان فما أحس بخوف ، أو تهيب من دفاع ، وكان فيما قال رضى الله عنه وطيب ثراه :

« أما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، واي حيلة لضعفاء المسلمين فى الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه

ما يلام عليه ، واما أنا في نفسي فلا يضيرني التهديد ، ولا اكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فاني اعتقد أن ذلك واجب علي وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى « فانما هذه الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار . وافوض امري الى الله ان الله بصير بالعباد » ، وقد امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نقول الحق حيثما كنا والا نخشى في الله لومة لائم » .

وصل الرد الجرىء الى صاحب الامر فاثار في نفسه ضروبا من الانفعالات الناقمة وجمع مستشاريه ليأخذ رايهم فيما يجب ان يقوم به ازاء هذا العالم العنيد ، وقد استمع الى كثير مما يتعارض ويتناقض بين داع الى العقاب ومشير بالتسامح والاغضاء وقد راى الظاهر بعد ماسمع ان يجنح الى التهادن اذ انه لو سارع باعلان غضبه على الشيخ لجعله بطلا كبيرا على مراى من العامة ، ولاصبح بمنحته هذه رمزا للدفاع المخلص ، ولواء يلتف حوله المعارضون وذوو الاغراض .

والواقع أن نصيحة الشيخ برغم قسوتها الصريحة قد فعلت فعلها في نفس الحاكم ، فاضطر الي أن يجمع الجباة ويشير عليهم بالرفق والملاينة ، وأن يحذرهم غضب العلماء من الخاصة والجمهور من العامة ، وإن كان في واقعة لا يستطيع أن يتخلص من حنق مكظوم اثاره الشيخ في نفسه ، واني له وهو انسان يجب ان يأمر فيطاع .

مرت هذه الحادثة ، لتعقبها حادثة اخرى اشد منها عنفا وايجاعا فقد تهيأ الظاهر الى بعض حروب اعدائه من

خصوم الاسلام ، واراد أن يأخذ من أموال الرعيـــة ما يستظهر به على العدو ، واستفتى العلماء فى ذلك ، فأفتوه بالجواز ، ولكن محيى الدين يمتنع عن الفتوى . ويعلن ذلك فى اصرار ، لو ملك الظاهر زمام عاطفتــه لتدبر وفكر فى وجهة نظر الشيخ ، ولكن تسرعه الغاضب أوحى له أن يعقد اجتماعا عاجلا يشهده الجمع الحاشد من الناس ويحضره النووى ، ليظهر فى ثوب المنفر عن الحرب الصاد عن مجالدة الكفار ! فيكون موقفه عنـــد الجميع غير كريم . وتسقط مهابته لدى الناس .

وتم للملك ما أراد فاكتمل الحفل بأعيانه ووجوهه وذوى الرأى فى البلاد .. وتقدم محيى الدين بقدم ثابتة ليسأله الظاهر فى عناد :

ـ لماذا لا تجيز أن تجمع الاموال من المسلمين لننفقهـا فى الجهاد كما أفتى زملاؤك من الفقهاء ؟

فرد الشيخ فى حزم أخاذ : كلنا يعلم أن لديك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية نصيب من الحلى ، فاذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ مـــال الرعية .

يالله ، لقد دهش الحفل من صراحة الرد ، وأشرقت الابتسامات فى الوجوه لتعلن اغتباطها بهـذه المجـابهة الرادعة ، وتطلع الملك الظاهر الى رفقائه ملتمسا من يسعف برد منقذ ، يحول دون الافحام والالجام فلم يجـــد غير الشيخ محيى الدين ينظر اليه فى كبرياء عالية تحتم على

الناس أن ينزلوها منزلة الاكبار والاعجاب ، حين تجيز لهم أن يشمتوا بجبروت السلطان وقسوة جباته من الاجناد ، ولكن سطوة الرياسة لم تمنعه أن يصيح فى وجه الرجل : اخرج من بلدى ـ يعنى دمشق ـ اذ لا يجوز ان تساكننى فى مكان .

وتدفع النخوة زملاءه من الفقهاء ، فينسحبون من الحفل مجتمعين ، ويسود الهرج والمرج صفوف الناس . فيخشى الحاكم سوء المقال ، ويتراجع قائلا :

ـ ولماذا تخرج ! اذنت لك بالمقام .

فيقول محيى الدين فى ثقة : ومن ادراك انى سأقبل المقام لديك لابد من الرحيل !! ثم يتفرق الناس مبهورين !

لو ان ذاكرة الظاهر كانت حادة نافذة ، لتذكر أن العز ابن عبد السلام قد وقف من الملك قطز هذا الموقف حين هم بجمع المال من الرعية قبل موقعة عين جالوت اذ أعلن سلطان العلماء أن المال محرم على السلطان قبل أن يستنفد ما لدى مماليكه وجواريه من ذهب ولؤلؤ .. ولكن الملك الظاهر لم يتذكر ذلك الا حين مثل محيى الدين دوره فى شجاعة وايمان ، فاضطرب صاحب الامر ، وتخيل الموقف السالف وقد شهده بعينيه منذ اعوام !! ورأى أن العز الذى استراح بفقده قد عاد من جديد فى صورة محيى الدين ، فعض على شفتيه ودمدم يقول : ذرية بعضها من بعض ! ما أشبه الليلة بالبارحة فيما كان .

ابن دقيق العيد
فقيه شجاع

آن لنا أن نتحدث الآن عن ابن دقيق العيد كما تحدثنا عن أستاذه الفذ عز الدين بن عبد السلام ، وعن زميله الشجاع محيى الدين النووى .

والحق أن العصر المملوكى حافل بأئمة الدين وأعلام الشريعة ممن ملأوا المكتبة العربية بذخائرهم العلمية وآثارهم الاسلامية فوق ماضربوه من المثل الرائع من الذياد عن الحق والدعوة الى الطريقة المثلى فى الحياة . وان الدهشة لتأخذنى حين أجد كثيرا من المؤلفين يغمطون هذا العهد حقه فيزعمون أنه عصر تخلف وانحطاط ،وربما مصنوع ، اما الانتاج العلمى فلا نعلم عصرا حفل بالموسوعات الرائعة ، والمجلدات المتنوعة فى شتى ضروب الثقافة الاسلامية من فقه وتفسير وتاريخ وحديث وتراجع أعلام كهذا العصر المديد ! وقد يقال أنه تأليف تقليدى فى أكثره ومجال الابتكار فيه ضئيل محدود ، ولكنه مع ذلك صان الثقافة العلمية ومنع فيضانها الزاخر من التبدد فىفلوات شاسعة اذ شق له المجرى الطبيعى وأقام الشواطىء والجسور !! ولك أن تنظر الى كتب الطبقات والتراجم لترى لكل عالم من التآليف المتزاحمة ما يدفع الى الثناء!! وهاهو ذا ابن دقيق العيد قد أسهم فى أكثر ضروب

المعرفة تأليفا وتدريسا !! وقد فاق اكثر زملائه بأسلوبه الادبي واهتمامه بالروح البياني مع تعمقه الفقهي ،ورسوخه العلمي ، الى حد انه تفوق في دراسة مذهبين من مذاهب الفقه هما مذهبا مالك والشافعي ولم يشأ أن يقتصر على وجه واحد بل قارن وعلل ورجح ! وهذا مثل واحد لنبوغه في فرع واحد من فروع العلوم فكيف اذا قرأت ديوان خطبه المنبرية وشاهدت من جزالة العبارة ، ونصاعة البيان ما يستغرب وجوده لعالم راسخ من علماء هذا العصر ، هذا الى هيامه بالشعر ـ لا على طريقة العلماء ممن يتكلفون البيت والبيتين والثلاثة بل على منهج الشعراء ممن يسعون للجودة والافصاح ! وان عالما يجمع هذه المزايا لجليل رفيع ! اما جراته في الحق فقد شاكلت جراة انداده من الائمة الافذاذ ! وقد تعددت مواقفه الباسلة فراعت وأدهشت ، وكان لها اثرها البارز في الاصلاح والتوجيه لان ابن دقيق كان من المهابة والاجلال بحيث يستمع الملوك والامراء الى منطقه مكرهين او طائعين ،كما أن عزوفه عن المناصب المرموقة قد أضاف الى عظمته النفسية ومنزلته الاجتماعية ما أكمله وعظمه ، فانمنصب قاضي القضاة مثلا يعتبر أخطر المناصب الدينية في دولة تحكم بالكتاب والسنة ، ومع تهافت الكثيرين على تبوئه المشرف ، فقد اعتذر عنه الشيخ آبيا ، ولكن الالحاح المتزايد قد اضطره الى القبول بعد أن اشترط على ذوى الامر شروطا تحفظ للقضاء كلمته النافذة ، وسطوته الغالبة دون تعويق .

تبوأ الامام الورع مكانه القضائي واصبحت له الهيمنة

التامة على جميع قضاة الاقاليم ، فرأى بادراكه النافذ ان امراء المماليك وخاصتهم يبذلون وساطاتهم المتوالية الملحة لدى القضاة لتأتى الاحكام كما يشتهون ، وعرف أن في بعض ذوى النفوس المترددة من يخضع الى ارهاب امير أو بطش مملوك فيوافقه على هواه فى مجلس القضاء فرأى ان يحسم الموقف حسما لا لبس فيه ، فأرسل منشورا عاما من تأليفه وبتوقيعه ، يدعو الجميع الى التزام نصوص الشرع ، واطراح ما يؤثر على تنفيذها من الوساطات والمحسوبيات ، وشدد من النكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكام ، وخوف بعذاب الله ، وجزاء الآخرة . وكان منشوره القضائى مع سمو هدفه ، ورائع توجيهه قطعة فنية ، تجمع الصياغة المشرقة والاقتباس البارع ، وتشهد لفن صاحبها بالابداع والتأثير ، ونحن ننقل منه ما يكشف عن هدفه الخلقى ، وفنه البيانى ليعطى الفكرة الصائبة عن ابن دقيق .. قال رحمه الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم يأيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، هذه المكاتبة وفقه الله لقبول النصيحة ؛ وآتاه لما يقربه قصدا صالحا ودنيا صحيحة ، أصدرنا اليه بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الاعين ، وما تخفى الصدور ويمهل حتى يلتمس الامهال بالاهمال على المغرور تذكرة بأمر ربك فان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ويحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه بمغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه ،

وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، فانى أخاف ان يتردى فيها فيجر من ولاه والعياذ بالله معه ، والمقتضى لارسالها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم على ما يجب للرب على المربوب ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الامانة على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهى نحيفة ، والله ان الامر لعظيم ، وان الخطب لجسيم ، ولا ارى مع ذلك امنا ولا قرارا ولا راحة ، فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فالمحروم من امله غير مرحوم ، وما انا وانتم ايها النفر الا كما قال حبيب العجمى وقد قال له قائل : ليتنا لم نخلق ، فقال « اذا وقعتم فاحتالوا » .

وقد شاء الله لهذا الناصح المحذر ان يكون موضع الاختبار لدى مسالة دقيقة يتطلب احقاق الحق بها مزيدا من الشجاعة الادبية والعظمة النفسية ، وكان ابن دقيق العيد بازائها عند حسن ظن العلماء الاماثل به : فجلى مبرزا مع العدل ، وقمع الباطل بانصافه فهان واستكان .

لقد كان الملك المنصور حسام الدين لاجين سلطان مصر سنة ٧٩٧ ، وقد أعطى مملوكه الامير منكو تمر سلطة واسعة اذ جعله نائب السلطنة ، وأخذ يرشحه للقيام بالامر من بعده ، فأخذ الامير ينكل بأعدائه ، ويبعث من الرهبة فى النفوس ، والفزع فى القلوب ما ملأ الصدور حفيظة عليه ، وضيقا به ، ومقتا له ، وكانت له رغبة فى المال تتكاثر فى نفسه بتكاثر ما يجمع ويغصب ، ولايعرف من القناعة ما يرده عن السلب والانتهاب ، لانه فى عصر

يصير به المالك للمال مستطيعا أن يبذل الكثير فى تأييد سلطانه ، وجميع الناس حوله ، وشراء الامراء والقواد بالهدايا والذخائر ليكونوا فى موكبه ، ان تم الامر له ، واصبح ـ بعد وفاة السلطان ـ سيد البلاد ، وكان ابن دقيق يعلم ذلك الشره البالغ فى نفسه ، ويأخذ السبيل على اطماعه ما استطاع ، وقد قدر الامير الماكر مكانة قاضي القضاة وخشى أن يصطدم به فيتعرض الى سخط العامة والخاصة تعرضا يهدم ما بيته من الاصطناع والتودد للناس ، الا أن حبه الاعمى للمال دفعه ذات مرة الى مواجهته راجيا أن يتساهل الشيخ بعض التساهل فيتيح للأمير ان يسلب ما يريد .

وخلاصة القصة : ان تاجرا كبيرا من التجار قد مات وترك وراءه ثروة هائلة ، فرأى منكوتمر أن يدعى أن له اخا سماه وعناه ، وتقدم به الى القاضى ليأخذ الميراث ، فاذا تم ذلك فان الامير يستطيع ان يستولى عليه من الاخ المزعوم لقاء هبة محدودة ، ولكن مواجهة ابن دقيق بذلك ليست من السهولة الهينة فى اعتقاد الامير ، فرأى أن يحتال لذلك ، واختار أحد كبار خاصة الامير « كرت » ووفده ألى قاضى القضاة ، فاستأذن مستخذيا وسلم ، فقام له القاضى نصف قومة ، ورد عليه السلام واجلسه ، فأخذ يتلطف في الحديث متوسلا الى اثبات أخوة التاجر بشهادة الاميرمنكوتمر نائب السلطنة والمرشح الاول لولاية عهد السلطان !! ولكن ابن دقيق ـ نضر الله وجهه ـ ينظر الى الامير « كرت » مستخفا ، وهو يقول :

ـ وماذا ينبنى على شهادة منكوتمر ؟

فيحمر وجه الرسول ويقول : هو عندنا وعندكم عدل يامولاى !

فيصيح الشيخ : سبحان الله سبحان الله ثم ينشد :

يقولون هـــذا عنـــدنا غير جائز

ومن أنتمو حتى يكون لـــكم عند

وكرر البيت ثلاث مرات ثم قال : « والله متى لم تقم عندى بينة شرعية تثبت اخوة الرجل بغير شهادة منكوتمر فلن أثبتها بحال » .

وراجع الامير كرت نفسه ، فثار عليه ضميره ، وصاح من فوره فى مجلس الشيخ : لا اله الا الله ، هــذا هو الاسلام !!

مضت أيام وجاء لابن دقيق العيد من يخبره ان الامير منكوتمر يريد الاجتماع به ، فصاح فى وجهه : قل له ان طاعتك ليست واجبة على . ثم التفت الى من حوله من القضاة ، وقال : اشهدكم انى عزلت نفسى باسم الله ، قولوا له يول غيرى .. قال المقريزى فى السلوك : وعــاد الشيخ الى داره واغلق بابه ، وبعث نقباءه فى مصـــر الى نواب القضاة يمنعهم من الحكم وتوثيق الانكحة فقبلوا طائعين .

وقامت الضجة فى البلاد ، فقد عزل شــيخ العلمــاء وقاضى القضاة نفسه من مباشرة امور الناس وارسل الى نوابه فامتنعوا عن مجالس القضاة ، وعقد وثائق الزواج ، ووصلت الضجة الى الملك المنصور ، فهاج واضطـرب وجعل يعنف منكوتمر على نزقه وتسرعه ، ثم ارســل الى ابن دقيق يستدعيه فاعتذر ، ولم ييأس السلطان فواصل

السعى وارسل طوائف العلماء والوجهاء الى الشيخ يستعطفونه ويرجونه فى مقابلة السلطان ، وله أن يتمسك برأيه كما يشاء ، وبعد لاى ذهب الامام الورع الاشم ، فقابل الملك المنصور ، فتلقاه بحفاوة وفرحة ، وعزم عليه ان يجلس معه على كرسى واحد ، فبسط الشيخ منديله وكان خرقة من الكتان ، فوق الحرير الموشى بالذهب على الكراسى ، ثم جلس فى اعتداد فجعل السلطان يتلطف اليه ويتذلل ، ويرجوه أن يعود الى منصبه القضائى ويحكم بما يشاء ! فقبل بعد جماح .

وانتهز السلطان فرصة قبوله فقال فى توسل : يا سيدى هذا ولدك منكوتمر فادع له الله !!

فنظر ابن دقيق الى منكوتمر وكان جالسا بين الحاضرين فى حال من الخجل تدعو الى الرثاء ، ثم قال : منكوتمر لا يصلح ، لن يجىء منه شىء .

ثم قام لوجهه ، وترك منديله على الكرسى ، فتناول السلطان خرقته البالية واخذ يمسح بها وجهه متبركا ، ثم تزاحم عليها الامراء ، فجعل الملك المنصور يقطعها قطعا ويعطى لكل أمير مزقة يسيرة يلتمس بها البركة والغفران .

قال الراوى : فمن رأى تهافت السلطان على منديل الشيخ ، وتزاحم الامراء على خرقته البالية رأى جلال العلم وعظمة العدل وروعة الايمان ..

ابن تيمية يصدع بالحق

كان ابن تيمية بطلا فذا ، لا يختلف في بطولته أحد حتى خصومه في الراي ، والفضل ما شهدت به الاعداء .

ولم يكن هذا العالم المفضال يحارب في ميدان واحد ، يقصر عليه همه وفكره وقوته . لكنه اتجه بنشاطه الحافل الى ميدانين يختلفان مذهبا واستعدادا،ويجتمعان على نصرة الحق واعلاء كلمة الله ، وقد رجع منهما ظافرا مرفوع الراية ، لتتحدث الاجيال عن بلائه ونضاله وتتساجل الاقلام في تشريح آرائه ، واذا كان من الناس من لايسير معه في رايه فتلك طبيعة الاجتهاد الفكرى ، اذ يجذب الى نتائجه الدقيقة فريقا دون فريق ، ولو شاء الله لجعل الناس امة واحدة .

اجل حارب الامام في ميدان داخلي وفي ميدان خارجي فكان ميدانه الداخلي حافلا بمن يخاصمونه ويشاكسونه من رجال التقليد ، وادعياء الصلاح والعلم وفيهم ذوو المكانة لدى السلطان فتحرشوا به ، وحرفوا كلمه عن موضعه ، وساقوه الى السجن الظالم والنفى القاهر فما استكان !

اى مجتمع كان المجتمع الاسلامي في عهد ابن تيمية ؛ لقد كان يزخر بطوائف مختلفة من اصحاب الاراء والمذاهب

يرجعون بها الى الشريعة ولكنها بعيدة عن روح الاسلام، ويسوقون العامة سوقا الى مبتدعات ضالة وانحرافات مريضة ، وقد نظر الامام فيما حوله فراعه أن يرى الخطأ في الفهم ، والانحراف في السلوك والتزمت في التطبيق والتكتل مع الباطل فصمم على الجهاد ، وتعرض بمعوله الهادم الى اطواد راسخة تستمد ثباتها من الغفلة والضيق والتعنت ، وما برح يضرب به هنا وهناك ، حتى آذن جهاده بالفلاح .

كان العالم الاسلامي يضطرب بآراء جدلية لطوائف تتشعب وتتناحر من شيعة ذات فرق ، ومن اشاعرة ومعتزلة وجهمية ومن حنابلة ومتصوفة ومن مبتدعة ومقلدة ، ولكل فريق علماؤه ورجاله ، ومعارك الكلام تحتدم في غير طائل ، وحقائق الاشياء تتبدد في صحراء مجهل ، فهناك تناحر حول الله وماهيته وماثبت له من الصفات وما يتصل به من الاشياء مثل الاستواء والنزول وخلق القرآن واثبات الصورة والعين واليد والوجه، يرى قوم أن كل ذلك كنايات تؤول ، ويرى آخرون انها جوارح تجسم ، وتدور المعركة على ملأ من العامة في المساجد ، فيهرفون بما لا يعرفون ، ويتعصب كل سامع لما يميل اليه ، وتطول اللجاج بعيدا عما يجب من صفاء العقيدة ، ووضوحها فتنصرف النفوس عن مجاهدة الأعداء من التتار ، وبقايا الصليبيين ، وينظر الامام فيجد أن المسألة في حاجة الى حسم ، فيصدع برأيه الصريح ناصرا رأى السلف بعيدا عن التأويل ويثبت لله الاستواء والنزول والعين واليد كما وصف بذلك نفسه ولكن بدون

كيفية او تمثيل او تشبيه ، وانما له يد ووجه وعين لانعلم صورها ويتهمه بعض الخصوم زورا بالتجسيم وتدور الرحى من جديد فلا يقتصر على جهاد الراى بل يلجأ المعارضون الى السلطان فى دمشق والقاهرة ثم يصدرون فتواهم بتجهيل الشيخ وتضليله ، ويلحون فى سجنه ! فيكون لهم ما يريدون !

وينظر ابن تيمية نظرة ثانية ، فيجد طوائف الصوفية قد تمكنت من العامة لا لتسير بها الى القصد الصحيح ، بل لتفرض على دينها امورا دخيلة على الفكر الاسلامى والعقيدة المحمدية فى ذات الله فروضا لم تات بهذه الشريعة السمحة البيضاء ، واخذوا يتحدثون عن فناء المخلوق فى الخالق او اتحاد الخالق بالمخلوق على نحو فلسفى غامض يترك النفوس قلقة لا تعرف ما تستقر عليه فى ذات الله ، وقد جعلوا اقوال ابن عربى وابن سبعين نصوصا اسلامية صريحة فى هذا المضمار ، وجذبوا اليهم من الاشباع من لا يميزون بين الطيب والخبيث ، حتى طم السيل ، واصبحت عقيدة التوحيد فى مهب الزعازع العاصفة ، وتطلبت من يثبت فى الميدان ليعيد الحق الى نصابه من ذوى الراى النزيه البصير ، فكان ابن تيمية فارس الحومة ، اذ نازل خصومه بالراى والحجة وعقد مجالس المناظرة والمناقشة حتى فزع من خطره ذوو الرياسة من المتصوفين واشياخ الطرق ، ووجدوا من باس السلطان ما وجده سواهم من اعداء الشيخ ، فتحالفوا عليه ، وعقدوا المجالس لمحاكمته وافتوا بعودته الى السجن

وكأنه مذنب شريد ! ومن العجائب أن يحقق لهم مـــرة ثانية ما يبتغون ، وثالثة الاثافي أن ينظر الشيخ فيجـد قبور الاولياء تتخذ وسائل توبة لتحقيق الرغائب واجابة المطالب ، فلا ينقطع عنها آمل يلتمس العون من ضــريح ساكن يرقد به انسان لا يملك في دنيا الناس نفعـا ولا ضرا ثم يظن به الحول والطول ما يظن بخالق الكون ، ورب الوجود ، فلا ينصرف المسلم الى ربه يرجـــو رحمته ، ويخشى عذابه بل ينصرف الى امل خائب يؤيده رجال لم يفهموا روح الاسلام على وجهه الصحيح ،ولابد لهـــؤلاء من قامع يصيح في آذانهم الغافلة لتسمع الرأى السديد، ويوقظ عيونهم النائمة لترى الوضع الرشيد ! وقد تحقق ذلك على يد ابن تيمية اذ هاجم ارباب التوسل بالاضرحة والمزارات مهاجمة البت عليه الشر فصابر وثابر وقبـــل المحنة الجديدة قبول أولى العزم من المجاهدين ..

على ان شجاعته الادبية قد دفعته الى معارضة أقوال الائمة من صفوة رؤساء المذاهب الزائغة في أمور كثـيرة فقد نظر الشيخ الى ملابسات زمانه وظروف عصره وأوانه ثم اتى ببعض ما يخفف العبء ويوهن الاصر من الاحكام كفتواه بوقوع الطلاق ثلاثا مرة واحدة ، وكان موقفــه في ذلك وما شابهه خطيرا ، لانه يعارض اقوالا صريحة أجمع عليها أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ممـــن مضى الزمن بتبجيلهم ورسوخ إقدامهم في مضـــــمار التشريع ، وكانت فرصة ثمينة إهتبلها الخصوم فاثاروا العجيج ورموه ظالمين بالفسق والمروق ..

هذه مواقف جريئة لا يتهيأ لها غير من ظفر بشجاعة

نادرة ، وعقل صائب ، واستنباط غزير ، وقد كشف معدن الامام ، وابرزت عناصر رجولته النادرة ابرازا يخلب الافهام .. كما كشفت عن خلق العفو والتسامح فى نفسه، وهو خلق لا يتمكن الا من روح كبير .. فقد سعى أعداؤه وتالبوا عليه من كل حدب ، واغروا به العامة من الرعاع فاعتدوا عليه بالضرب والايذاء كما أجبروا الحاكمين على سجنه وتعذيبه ، ثم دالت الايام فتغير السلطان وجاء سلطان آخر يقدر الشيخ ، ويصدر عن رايه ، فعرض عليه ان ينكل بخصومه المتشددين جزاء ما انزلوه به من اهوال ولكن ابن تيمية يضرب المثل الرفيع فى التسامح حين يتلطف مع السلطان حتى يعفو عنهم غير ناقم ، وحتى يقول غريمه الاول قاضى المالكية بمصر ابن مخلوق قولته العجيبة « ما راينا اعفى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنا فى السعى عليه ، وحين قدر علينا بادر بالعفو » .

هذا قليل من كثير لاقاه الشيخ فى ميدان الاصلاح الداخلى ، اما ميدانه الخارجى فقد حفل بالروائع فى مجالدة الباطل على شراسته ومناوأة الطغيان على جبروته واليك بعض ما كان !!

حين هزم المصريون جحافل التتار فى موقعة « عين جالوت » تقهقروا الى ديارهم خائبين منهزمين ، وكانوا يعضون على شفاهم غيظا من هؤلاء الذين اذاقوهم كئوس الهزيمة لاول مرة فى حياتهم المليئة بالفتك والتخريب ويتحرقون ليوم قريب يثارون فيه لكرامتهم الجريحة وشرفهم الذبيح حتى كانت سنة ٦٩٩ فتاهب ملكهم قازان لاحتلال الاراضى الشامية تمهيدا للوثوب على بلاد النيل،

وجمع جنوده الزاحفة كالسيل لا تذر من شيء اتت عليه الا حصدته بالسلاح والنار ، فذعرت طوائف كثيرة وسلم فريق من أمراء الشام بلادهم مرغمين فزعين ، وكـــان السلطان التترى يتظاهر بالاسلام ، ويصحب معه المؤذن والقاضي والامام ، ثم يسلط سيفه على الرقاب المسالمة فيقطعها فى غير ايمان ،وعلى الدماء البريئة فيريقها انهارا فى ساحات القتال ، وبذلك يفعل ما لا يقول ، حتى وصل بجنوده الى « البتك » وفتحت دمشق أبوابها للقائه ، فعز على ابن تيمية أن يرى هذا الطاغية يتجبر فى الارض تحت ثياب الاسلام وهو اما كافر أو فاسق ، فلم تهدأ له نفس وصمم على لقائه متحديا جبروته ومعه فريق من أعيـــان الدمشقيين ، فيميل قازان الى المداهنة ويبدأ بتقديم الطعام الى الوفد فيأكلون هائبين ويمتنع الشــــيخ عن الطعام فيسأله السلطان :

ــ لماذا لا تأكل أيها الشيخ ؟!

فيرد ابن تيمية فى عناد : كيف آكل من طعامكم وقد طهيتموه من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ولا ملك لأحد لكم فيه !!

فيضطرب قازان مأخوذا ويقول : ولكنى مسلم أيها الشيخ .

فيجيب ابن تيمية فى جراة : لقد سلطت ملك الكرج الصليبى على المسلمين ودفعت له السلاح والجند ليقاتل بنى الاسلام ! فأين كان دينك حين ذاك ؟؟

بهت الطاغية وبحث عن رد ينقذه فلم يجد غير أن يقول انا مسلم ومعى مؤذن وقاض وامام ! !

ولكن ابن تيمية عاجله بقوله :

ـ وماذا تفعل باسلامك وقد كان ابوك وجدك كافرين ولم يفعلا ما فعلت ، لقد عاهدا فوفيا ، وانت عاهدت فغدرت .

ان للحق لرهبة ترعد النفوس وتكبل الايدى ، وقد غلبت هذه الرهبة المفزعة نفس قازان ، فنكس رأسه ، واندفع يطلب من ابن تيمية الدعاء ، وكان لدى الامام سياسة وكياسة فرفع يده يقول : « اللهم ان كان عبدك هذا انما يقاتل لتكون كلمتك هى العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وايده وملكه البلاد والعباد ، وان كان قام رياء وسمعة طلبا للدنيا ولتكون كلمته هى العليا وليذل الاسلام واهله فأخذله وزلزله ودمره واقطع دابره » !!

ثم خرج مرفوع الراس واصحابه يقولون له فى اشفاق:

ـ كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك ، والله لا نصحبك بعد هذا .

لا اريد أن اتتبع هذه الحقبة من التاريخ فاسود ما كان من أمر قازان ، ولكنى أقصر الحديث على جراة الشيخ وحدها فأذكر انه رجع الى دمشق ليشجع الناس على القتال ، وليقود الفقهاء فى ميدان التدريب الحربى على أعمال الفروسية والجهاد ثم تمضى الايام فيعود العدو من جديد فيهب ابن تيمية للنضال ويتقدم الصفوف طالبا للشهادة ويحرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون والخليفة من هول الموقف ، ولكن ابن تيمية لا ينكص بل يشعل الحماس حتى تتجلى المعركة باندحار الاعداء ، ويعرض عليه الملك الناصر بعض الهبات فيترفع عن ثمن ينتظر أضعافه حين يلقى الله .

هذا موقف حربى فى جبهة القتال يذكرنا بموقفه من اهل جبل كسروان بالشام حين استباحوا الحرمات وجالفوا الاعداء ، وتعرضوا الى الحجاج يقتلون ويذبحون ويسلبون ! فتوجه الشيخ الى قتالهم وكتب الى اطراف الشام ، ودعا نائب المملكة الى نصرته ، وافتى بانهم أكفر من اليهود والنصارى ، ثم ثبت للهول فى محن خطيرة حتى اراح المسلمين وامن الطريق ، اما موقفه النادر من الملك الناصر فما لا تغفله ذاكرة التاريخ بحال . لقد سعى الواشون يرجفون لدى السلطان أن ابن تيمية محبوب وأنه يجاهد ويغزو ليسلب الحكم ، وكان فى الناصر تسرع واندفاع فبادر يدعو الشيخ ويسأله مغيظا : لماذا تجمع حولك الناس ؟

فيرد الشيخ : لنصرة الاسلام كما ترى ورايت .

فيحدق السلطان فى وجهه ثم يصرخ : بل تتوق الى الملك وتسعى اليه فى وضح النهار .

فيبتسم ابن تيمية متعجبا ، ويقول : والله ان ملكك وملك المغول لا يساوى فلسا لدى !!

فينكسر السلطان ويبادر بالاعتذار .

لقد اعتصم الامام بالحق فعصمه من الطغاة !! وكان حقا علينا نصر المؤمنين .

قضاة المذاهب والسلطان الغوري

لم يكن قانصوه الغورى وقد شارف الستين من العمر يظن انه سيصبح سلطان البلاد ، تسلم له القيادة عن رهب وامتثال ، فالرجل قليل الحول ، ضعيف الاتباع، وهناك من الامراء الافذاذ من يجمعون حولهم الحشود والعدد ، ليفوز اعظمهم خطرا بسلطة الديار ، فالتزاحم على أشده بين ذوى القوة من مماليك الجركس ! وماذا عسى أن يصنع شيخ كبير لا يقاس حوله بأقل المتنافسين خطرا ومهابة ، ولكن هذا الحول الضعيف كان عامل الترجيح فى اختيار قانصوه ، لان المتزاحمين الاشاوس قد تعادلت بهم القوى فى كفة واحدة ، ولم يستطع احدهم ان يميل ببعض الضغط الى كفته فاتفقوا على تولية قانصوه كحل مؤقت للصراع الملتهب ، فالرجل شيخ مسن لا يظن أن الزمن سيتنفس بعمره غير مدى محدود ! وفى مكنة كل امير أن ينتهز بقاءه المحدود فرصة مواتية ليحصن قلاعه ، ويميل بمركز الثقل الى جانبه ، لذلك فوجىء السلطان الغورى ذات يوم مفاجأة صعبة ، حين تقدم اليه الاميران الخطيران مصر باى وقيت الرحيى وهما ابرز المتصارعين جميعا على السلطنة يطلبان منه أن يلى العرش عن سماحة واقتناع ، وارتعد

الشيخ وتخاذل اذ انه يعرف أن هذا المنصب الخطير محاط بالمؤامرات والدسائس ، وهو بعد قليل النصبر والحول فلا يعدم من يثور عليه فجأة ، فيسيل دمه هدرا دون موجب ، وقد عاش بعيدا عن هذه المؤامرات المملوكية طيلة حياته ، فلماذا يقف فى مهب العاصفة بعد الستين ! وطال امتناع الرجل وتأبيه ، حتى التهبت حماسة الحاضرين ، فأقسموا على المصاحف أن يطيعوا السلطان والا يفكر احدهم فى التآمر والاغتيال ، وبكى الشيخ طويلا وهو يرتدى الجبة البنفسجية والعمامة السوداء مما يسمونه شعار السلطنة ، ثم يركب فرسه الاصيل ومن فوقه المظلة السلطانية ذات الطيور الفضية يحملها فى ركابه الامير قيت الرجبى نفسه ! وسار الموكب السلطانى ، وفى نفس الشيخ خواطر وشجون !

وقد اظهرت الايام ان تباكى الشيخ كان خديعة ماكرة يعرف بها من اين تؤكل الكتف ، فقد عمد الى مسلك حاذق يوطد به دعائمه ، اذ أوهم كلا من مصرباى وقيت الرجبى أنه يمهد لسلطانه !

وأخذ يخلو بكليهما خلوات مغرضة حيث يملى لهما فى الامانى ، ويخلق من الحيل ما يخدم سياسته ، حتى اوهم قيت الرجبى انه بسبيل التخلص من مصرباى ؛ لاجل خاطره ، فمال المخدوع الى طلائه وساعد على استئصال شأفة غريمه ، واذ ذاك اخذ الغورى يلوذ بأتباع مصرباى ، مستعينا بهم فى الخفاء على قيت ، حتى تم له التخلص منه ايضا ! واصبح سيد الموقف دون

شريك ! .

ولئن كان تاريخه السياسى فيما بعد ذلك من الذيوع والاشتهار ، بحيث لا يخفى عن الدارسين فاننا سنميل بالحديث هنا الى ملكات الرجل العلمية ، ومكانه فى الادب والشعر ، فقد تناقلت عنه فى ذلك مبالغات مغرقة ،وكنا بصدد تصديقها لو لم ينشر الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله طرفا من مجالسه الادبية ، كما دونها اثنان من كبار مريديه ، فهذه المجالس وحدها تحدد مركز السلطان العلمى ، ولن نحكم عليها بثقافة عصرنا الراهن فهى بازائه لا تساوى شيئا بالمرة ، ولكننا حين نحكم عليها بثقافة عصره المملوكى نجدها لا ترتفع ايضا الى مستوى مشرف ، واكبر الظن أن الدكتور عزاما قد نشرها ليعرض على الناس صورا من تفكير السلاطين فى بعض العصور السالفة ، لا ليرى بها مظنة استفادة وتثقيف ! وحسبها أن تكون وثيقة تاريخية ينتفع بها فى تشخيص البيئة المملوكية من ناحية ، والعقلية السلطانية من ناحية أخرى ، وان كان الشيخ حسن بن محمد الحسينى وهو احد من دونا هذه المجالس ، يذهب فى تقدير السلطان من الجهة العلمية تقديرا لا يستبعد اغراقه من متجول يتكسب بلقاء الملوك فهو يقول عنه بعد ثناء حفيل :

« وكل هذه الاوصاف والمناقب بما قرن به من محبة العلم والعلماء ، والتفتيش عما وضعته الحكماء فى كل نوع من العلوم ، لو يقول البشر فى وصف هذا المظهر انه هو سلطان العلماء المحققين ماهو كذب فى حقه ، أو

يقول فى مدحه انه سلطان العارفين ماهو عيب فى وصفه»
واذا كان قول الرجل انه سلطان العلماء المحققين مبالغة فيما نسب اليه من العلم فان قوله سلطان العارفين بمدلولها الصوفى مبالغة مضحكة فيما ينسبه للرجل من المعرفة الربانية والولوع الالهى ! اذ ان ما اغرق فيه مصر من المظالم ومصادرة الاموال وسفك الدماء ، والاستخفاف بأقدار الناس حتى انه كان يفرض على الخليفة المستمسك بالله آلعباسى ان يركع أمامه ويقبل الارض بين يديه ! ويدعى بعد ذلك انه يستمد السلطنة من تأييده الروحى ! كل ذلك لا يجعلنا نقبل ما سطره رواة هذه المجالس من جامعى البدر وآكلى الموائد الا بتهوين كثير ...

وسنعرض الآن حادثة تاريخية كان لها صداها الرنان فى عصره ، لنستدل بها على مبلغ تضلعه الفقهى تارة ومدى احترامه لنصوص الشرع تارة ثانية ثم لنسجل بها عظمة نفر من العلماء لا يخشون فى الحق لومة لائم ، بل يجبهون السلطان فى مجلسه بما يردع أهواءه فتثور ثائرته ، ويعلن نقمته ، ثم يخرجون من مجلسه وقد اخلصوا ضمائرهم لله صادقين !

لقد نمى الى « صاحب الحجاب » وكان يقوم بمهمة مدير الامن فى المحافظة ، ان رجلا من الناس يأتى بيت صديقه فى غيبته وانه على صلة منكرة بزوجته ، فاخذ الحاجب للامر اهبته وراقب المنزل حتى داهم الصديق

مع معشوقته ، ومازال بهما ضربا وتبريحا حتى أقرا بالفاحشة ، وإذ ذاك حملا معا على حمارين وطيف بهما فى ملأ من الصبية والرعاع لتعلن فضيحتهما على الناس جريا على المألوف من تقاليد هذا العصر ، ثم فرضت عليهما غرامة فادحة قاما بأدائها فى أسف نادم وخزى شنيع ! وكان من الميسور أن ينتهى الموقف دون أن يعقب صداه فى دائرة السلطان !

ولكن بعض الذين يحبون أن تشيع أصداء الفاحشة فى كل مجلس ! حتى فى مجلس الغورى نفسه ! قد نقل الى الرجل ، وهو ـ بعد ـ ليس غريبا عن سمعه ، فقد راى أمثاله فى عمره المتطاول ، ولكن الناقل المغرض أردف ذلك بانه يأمل أن يصدر السلطان امره برجم المذنبين فيكون اول من احيا شريعة الاسلام من المماليك ! وقد راقت الفكرة لدى الغورى فحول المسالة الى القضاء وطلب أن يصدر قرار الرجم سريعا لتقوم به الدولة على ملأ مشهود بحضره السلطان !

وقد طار النبأ الى المذنب المسكين فاشار عليه بعض ناصحيه أن يعدل عن اقراره لانه اعترف بالزنا تحت سياط الحاكم ، والرجوع عن الاقرار حتى ولو لم يكن مع الاكراه بل لدى الاختيار الكامل يمنع الحد كما أجمع عليه العلماء ، ولهم بصدد ذلك نصوص واقيسة ووقائع لا تقبل التاويل !! وقد اثمرت النصيحة ثمرتها فرجع الرجل عن اقراره ، وكتب صاحبه فتوى طاف بها على

العلماء بهذا الشأن فأجابوا جميعا بتوقيعاتهم الواضحة وأعلنوا ان الرجوع عن الاقرار يسقط حد الزنا دون نزاع ! وكان من الطبيعى أن ينتهى الامر للسلطان ، ولو كان ذا بصر فقهى لادرك مغزى الشارع العادل فى هذا الحكم الصائن ، ولعرف ماروى عن ماعز وغيره ممن راودهم الرسول على الانكار ، مؤكدا أن مجرد الرجوع يمنع الحد !! فالإسلام لا يريد اشتهار الفاحشة بل يحاصرها فى مكانها الضيق بعد أن يتعقبها تعقب الحريص الدءوب فاذا نزوة طائشة من بعض المتهورين كان من الصون للجماعة الاسلامية بأجمعها أن تدرأ الحدود بالشبهات فلا تفاجأ أمة القرآن كل حين بمرجومة ومرجوم ، وفى التقرير ما يكفى للتأنيب والردع ! تلك هى وجهة الشارع ملخصة فى سطور يعوزها البسط والتحليل ـ اذ ليس مجالهما هـذا المقال ـ نقول لو كان الغورى ذا المام بنصوص الشرع ما ارتكب الشطط حين صمم على الرجم ، ودعا القضاة والعلماء لمناقشة الموضوع فى مجلس خطير تصدره السلطان !! واكتنفته الاسنة والحراب . كان العلماء على بينة مما يحاك ، فأجمعوا أمرهم على أن يقولوا كلمة الحق دون مبالاة وكان شيخهم الاكبر زكريا الانصارى عضدهم فى حومة الجدال ، وثقوا فى همته واطمأنوا الى مؤازرته فله من المكانة فى بلاد الاسلام والرسوخ فى علم الشريعة والاستاذية لمن تلاه من الشيوخ ، والمؤلفات الذائعة فى شتى العلوم مع مااشتهر عنه من النزاهة البريئة فى القضاء والسيرة العاطرة

فى الناس ، والسعى الدائب فى الاصلاح .. له من ذلك كله مالا يستطيع السلطان أن يعصف به فى مجلس علمى يعتمد على الحجة ويلوذ بالدليل ، والحق ان رأى شيخ الاسلام زكريا الانصارى فى هذه القضية مما صعب على الغورى أن يهجنه ببعض التحامل أو الادعاء فقد اجمع من كتبوا سيرة الشيخ الاكبر على ثنائه وتقديمه ، الا كلمات خطها السخاوى فى ضوئه اللامع وهى من التناقض والتأرجح بين الحمد والمؤاخذة بحيث تكون فى مجموعها حجة لشيخ الاسلام ودليلا على تحامل المؤرخ الصديق كما يصف مودته للاستاذ ! وأى عظيم سلم من السخاوى حتى يسلم منه الانصارى على جلاله وبعد مرقاه ! لقد ادخر الحق لخذلان الغورى سهاما صائبة وقد فتح لها صدره فى غطرسة كاذبة حين دعا العلماء الى النقاش وفى مقدمتهم شيخ الاسلام .

كان المجلس رهيبا رائعا . وقد شاء السلطان أن يوجه كلامه لزكريا الانصارى بادىء ذى بدء بعد أن نظر فى غضب الى من حوله من العلماء ، فصاح فى غضب :

ـ كيف ياشيخ زكريا يضبط رجل فى منزل صاحبه مع عشيقته ويقر بالجريمة ثم يتـــراجع فتقرون أنتم بالرجوع !

فسكت زكريا الانصارى قليلا ، وقال احد تلاميذه من القضاة فى اعتداد : « للمعترف بالزنا أن يرجع عن اعترافه ، وقد كان رسول الله يراجع المعترفين فيقول لاحدهم لعلك كذا ولعلك كذا ليفسح له السبيل » !!

فاحمر وجه الغورى وتوقدت عيناه من الغيظ وصرخ

يقول انا ولى الامر ، لى الحق فى اصدار الحكم بالرجم وليس لكم أن تقفوا أمامى باسم الدين .

فانبرى قاض متحمس يقول : نعم لك الحق أن تصدر الحكم اذا كان متفقا مع الشرع الكريم فاذا أصررت على رجم المتهمين فانت مذنب وعليك ديتهما .

ارتج المجلس الحاشد ، اثر هذه العبارة ، ارتجاجا عنيفا ، فاظهر بعض امراء المماليك كلمات نابية منـكرة ، وتطور احمقهم فسحب العالم من ثيابه ، وأجبره على الخروج ، اما السلطان فقد وقف مغيظا يضرب الارض بقدمه ، ويلوح بسيفه مهددا متوعداً ، وقد ندت منـه عبارات ما كانت تصدر من شيخ محنك كبير ثم التفت الى الشيخ زكريا وصاح وانت ياشيخ الاسلام ما تقول فرد زكريا الانصارى ، وكان قد جاوز التسعين ، لكنه احتفظ بقوة الاداء ، وارتفاع الصوت وكأن الحق أعاد اليه شباب حنجرته فقال :

ـ ان الرجوع بعد الاعتراف يسقط الحق ، وجمهور الائمة على ذلك ، وفى مقدمتهم صاحب المذهب رضى الله عنه .

فاظهر السلطان استهزاءه ، وصاح متهكما : هـل هذا ما ترتضيه ذمتك ياشيخ الاسلام !

فرد الاستاذ زكريا الانصارى يقول فى لباقة : ليس هذا ما ترتضيه ذمتى وحدى ولكنه ما ارتضته ذمـة ساكن مصر الامام الشافعى ! صاحب المذهب وذمتـه الشريفة لا تقبل التجريح بحال ! .

فزاد غضب الغورى ورد متعجلا : أنت شيخ قـد

كبرت وضعف عقلك ، اما انتم ايها القضاة فلا احب ان اراكم بعد الآن ، وقد عزلتكم جميعا عن القضاء !.

وخرج السلطان مزبدا سابا لاغيا فانفض المجلس اسوا انفضاض !! ثم هتف الغورى ببعض اعوانه فأصدر أمره بمصادرة أموال البعض ، ونفى البعض الآخر الى الواحات وضرب نائب مذهب الشافعى الشيخ الزنكلونى مع اولاده بالعصا ، حتى كادوا يموتون لانه فى اعتقاد السلطان قد هيأ للمتهم سبيل الرجوع عن الاعتراف وبذلك أمكن القضاة من معارضته على رءوس الاشهاد .

اما المتهمان فقد صدر الامر بشنقهما علنا وتعليق جثتيهما يومين كاملين ليرى الناس فى مصر قلة حيلة القضاة وهل استطاعوا أن ينتصروا على السلطان !!.

هذا وقد لبث الشعب المصرى يتحدث زمنا غير قصير عن هذه المشادة المحرجة ، فأذاعت الجماهير مختلف النكات عن الغورى واخذت تتحدث عنه بما برعت فيه من اساليب التورية والفكاهة ،وكان كل ذلك يصل الى السلطان فيزيد من أزمته النفسية ولكنه لا يستطيع أن يتخذ اجراء رادعا لان الكلام ذو وجهين ، ومحاولة التحقيق فيه مما يثبت الوجه المذموم فى الاسماع ، فيعظم تداوله ، ويساعد السلطان بذلك على اذاعة ذمه ، فيحقق ما يبتغى مناوئوه .

بنى مسجده الشهير بالغورية ، وانفق من الاموال المصادرة فى تشييده وزركشته ما كان موضع حديث الناس ، وقد سئل عن جدواه فقيه ممن اضطهدهم السلطان فقال فى ملا من الناس انه المسجد الحرام !

فضج الجمهور بالتصفيق ، وطار النبأ الى الغــورى فانفجر غيظا ، وأمر باحضار الفقيه ليؤاخذه على قولته وكان المتهم لبقا فقال فى ثبات : أردت انه شبيه بالمسجد الحرام فى مكة وعلى الناس أن يخصوه بالتعظيم والاجلال، فهز الغورى راسه وقال فى ضيق : لقد أردت شــيئا آخر أيها الخبيث !

فنظر الفقيه فى شجاعة وقال : لماذا يحاول السلطان ان يحرف كلام الناس !

فكظم الغورى غيظه وصاح به : لا اريد ان ارى وجهك بعد الآن .

ومضت الايام فاذا حادثة القضاة مفخرة باهرة تسجل فى كفاح العلماء ، فتصبح مثلا خلقيا فى الاعتداد بالحق ومجابهة الطغيان !

علماء الأزهر يُرهبون المماليك والأتراك

كان علماء الازهر في الفترة التى سبقت الثـورة الفرنسية ، كما كانوا فيما تلاها من الازمات زعماء الشعب والسنة دفاعه ، يرون ظلم المماليك الطاغى ، وتجبر الولاة العثمانيين فيتقدمون الجموع ، ويقودون الثـورات ، ويرسلون كلمة الحق فى الاصلاح والعدل ، ولا تهـدأ نفوسهم حتى يرتفع البغى ، وينتصر ما طالبوا به مـن انصاف ، واذ ذاك تستريح ضمائرهم المؤمنة ، فيهدءون ويقرون !

وقد قرات في كتاب سيرة عمر مكرم للمؤرخ الاديب محمد فريد ابو حديد فصلا فيما يدور حول جهاد علمـاء الازهر ، وكفاحهم فى تحقيق العدالة وقمع الفسقة من الحكام ، وقد جعل مؤلف الكتاب عنوان موضوعه « جهاد الشعب فى القرن الثامن عشر » اعتقادا منه أن علمـاء الدين بالازهر هم السنة الشعب المعبرة ، وزعماء الأمـة يصدرون عن رأيها ، ويقودونها الى شواطىء الامن حـين تهب الزعازع الباقية ! وذلك ما كان فى عهد تنمر الطغاة من امثال على بك الكبير ومحمد ابى الذهب حتى جـاء مراد وابراهيم فبلغ السيل الزبى وجاوز الطغيان مداه .

وسنعرض هنا نماذج مختلفة من كفاح بعض هـؤلاء السادة مستندين فى أكثر الغالب الى ماذكره الاستاذ فريد مع زيادات هامة من تاريخ الجبرتى رأينا الضرورة تلح فى سردها بايجاز ، لتتضح صور الجهاد على وجهها الصحيح !

واول من نشير اليهم من هؤلاء الاعلام الشيخ على الصعيدى فقد كان ذا مهابة توجب على على بك الكبير ان يقبل يده وكان الشيخ يمنع شرب الدخان ويفتى بتحريمه فصار على بك يحرص على أن يخفى أدوات التدخين اذا علم بمجيئه خشية من غضبه ، وكان الناس يلجئون اليه اذا مسهم الضر فيسجل شكاواهم فى صحيفة خاصة ، ويتحدث مع الحاكم فى كل شكوى على حدة ، ولا يلقى بالا لتضايقه البارز فى قطوب وجهه بل كان يصيح فى وجهه قائلا : « لا تأسف فالدنيا فانية ، وسيسألنا الله عن تأخرنا فى نصحك ان لم نفعل » ثم يمسك بيده قائلا : « أنا خائف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب » !

وقد لاحظ تلكؤا فى اجابة بعض مطالبه ، فخرج غاضبا ، ونفر الناس وراءه ، وارتبك الامير فحاول اللحاق به معتذرا ، فأصر الشيخ على الا يعود واخذ يتلو قول الله : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

اما الشيخ الدردير فقد جابه الطغيان فى مواقف كثيرة ، ونترك للاستاذ محمد فريد ابو حديد أن يتحدث عن بعضها اذ يقول :

« بعد مضى سنة واحدة من حكم الطاغيتين ثارت مسألة

فى خلاف على وقف ولم يكن للمسالة فى ذاتها خطـــر خاص ، بل كان القصد منها نضالا على مبدأ قانونى وهو : هل يجوز للأمير القوى ان يدل بقوته ويثور على القانون ؟ أو لابد من الخضوع للقانون ، ولو كان خصمه ضـعيفا لا سند له من سلطان الدولة ، وكانت الخصومة بين رجل من افراد الشعب وأمير من كبار الامراء من عصابة الطغيان، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة ، فلجأ الى القضاء ولوح الامير القوى بالقـــوة والبطش وحكم الشرع للرجل الضعيف ، فابى الامير الاذعان للحق ، واصبح الامر معلقا بين ان ينتصر القانون وبين ان تجتاح القوة كل حرمة وكل سياج ، فادرك العلماء ان واجبهم يناديهم « وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه » بالمحافظة على القــانون والحق ، ولم يترددوا لحظة بل ذهبوا لنداء الواجب ، وتصدر فيهم زعيم اسمه الشيخ الدردير رحمه الله وطيب ثراه ، فارعد الامير وابرق ، وارغى وازبد ، ونهر وتوعد ، فوقف العلماء وثبتوا وارغوا وازبدوا كذلك ، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم وكانت مظاهرة كبيرة فاغلق النـــاس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة ، واوشك الامر ان يؤدى الى فوضى شاملة ، لولا ان جزع عقــلاء الامراء من ذلك الاضطراب ، واشفقوا من تلك الحال ، فاجتمعوا وتشاوروا وارسلوا الى الامير فلاموه على وقفته وامروه بالنزول على ما اراد القانون ، فاذعن ــ وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء ان يدعوا الامر يفلت من ايديهم بغير حق مسجل يكتبونه للناس ، فطلبوا ان تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب ، وكتب لهم صلح رسمى

به شروط على الامراء ، وتعهد من الحكام بالتزام مايقضى به القانون ، وما يحتمه العرف » .

هذا موقف من مواقف الشيخ الدردير ذكره الاستاذ فريد ، وله مواقف أخرى كثيرة نراها فى تاريخ الجبرتى ولعل اهمها موقفه من الامير يوسف الكبير حين منع الاوقاف الخيرية عن طلبة العلم من المغاربة ، فرفعوا الشكوى الى القاضى فحكم لهم بما يستحقون ، وكبر على الامير ان يذعن فكتب الشيخ الدردير يطالبه بالاذعان ، فطغى وبغى ورفض الطلب محتقرا من حمله ، فكان ماتحدث به الجبرتى حين قال :

« ووصل الخبر الى الشيخ الدردير واهل الجامع ، فاجتمعوا فى صبحها ، وابطلوا الدروس والآذان والصلوات واقفلوا ابواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء » وكانت وقفة عصيبة رجع فيهما الحق الى أصحابه على أيدى علماء الدين وفى مقدمتهم الاستاذ الدردير .

هذا الغضب للحق قد رفع مكانة العلماء ، وجعلهم يواجهون الظالمين بما لم يتوقعوه ، وقد تخرج النقاش فى بعض الحقوق بين مملوك ظالم وعالم غاضب فقال المملوك متوعدا : « والله لاكسرن راسك » فصرخ فى وجهه العالم يقول متحديا : « لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك اميرا » وهاجت الائمة فتقهقر الامير يعتذر ..

ولم تكن مكافحة العلماء للطغيان منحصرة فى نطاق

المماليك وحدهم بل كانت تتعرض لكل ظلم يقع أيا كان مصدره ، بل انها تهاجم اوامر السلطان فى تركيا . وتسفه راى الوالى حين يهم بتنفيذ ما امر به من اغتصاب وذلك ما يهدم الدعوى القائلة بأن رجال الدين فى مصر قد عاونوا الاستعمار التركى باغضائهم عما يقوم به من طغيان، اذ أن حقيقة الأمر هى أن علماء الازهر كانوا يؤمنون بالخلافة الاسلامية كفكرة ، ولكنهم يفرقون فرقا مستنيرا بين ما يجب أن تسير عليه الخلافة فى ظلال الاسلام من عدل ومساواة وبين ما انحدرت اليه على أيدى العثمانيين من شره وارهاب ! وقد هالهم أن تكون الخلافة العثمانية شعارا للظلم الصارخ باسم الدين فكانوا يقرءون ما يفد من المنشورات ويطالبون بترجمتها الى اللغة العربية ثم يصدرون رأيهم القاطع دون استخذاء .

لقد أرسل السلطان التركى سنة ١١٤٨ امرا خاصا بالغاء بعض الاوقاف الخيرية ، مطالبا بوجوب نقلها الى دائرة الوالى ، ليضيفها بالتالى الى مايرسل الى الآستانة من الاموال ، وانعقد مجلس الديوان ، فقرأ القاضى العثمانى منشور الخلافة ثم عقب عليه يقول : « أمر السلطان لا يخالف وتجب طاعته بنص الشرع الشريف » ولكن الشيخ سليمان المنصورى ، احد أعضاء المجلس من علماء الازهر ـ يقف فيقول فى صراحة :

« ياشيخ الاسلام ، هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان ، وفعل النائب كفعل السلطان ، وهذا شىء جرت به العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد واسبلة فلا يجوز ابطال

ذلك ، واذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك ، فلا يجوز لاحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطله ، وان امر ولى الامر بابطاله لا يسلم له ، ويخالف أمره لان ذلك مخالفة للشرع ، ولا يسلم للامام فى فعل يخالف الشرع الكريم ! » .

يقول الاستاذ محمد فريد ابو حديد ، تعليقا على هذه الحادثة الجريئة : « وقد كانت وقفة الشيخ الجليل سببا فى عدول الحكومة عما كانت عازمة عليه ، ولا يسع الانسان الا الاعجاب بمثل هذه الدقة فى القول ، وهذا الاتزان فى المنطق ، وهذه الجراة فى الحق ، كما لا يسع من يسمع مثل هذا القول أن يدعى ان صوت مصر لم يكن قويا فى أندية الحكم ودواوينه ، بل ان مثل هذا القول ينم عن يقظة الشعب وانتباهه الى المحافظة على الحقوق وتقدير حكام مصر لراى هؤلاء الممثلين الاجلاء ، هذه واحدة للشيخ المنصورى تذكر معها ثانية الشيخ العروسى فى مواجهة قواد تركيا واعيان الدولة المستغلة من العثمانيين .

فقد اجتمع مجلس الديوان ليقر ما يطلبه الوالى العثمانى من اقتراح الاستعانة بجنود من الترك يحاربون المماليك فى الصعيد ، فصاح الشيخ العروسى منكرا ما يأخذه هؤلاء الاغراب من الاموال حين يقدمون .

فكظم الباشا غيظه وقال : هذا رأى السلطان ، وشرع يقرأ فى منشور باللغة التركية ، ولكن العروسى لا يسكت بل يقول فى حدة :

ـ اخبرونا عن حاصل الكلام ! فاننا لا نعرف التركية.

فيترجم المنشور ويفهم الشيخ أن الدولة التركية تريد ان تستنزف أموال المصريين مدعية انها تتهيأ بها لحرب المماليك ، فيتهكم العروسى غير عابىء ويقول فى اعتداد :

« انني لا اعبأ ان يكون الحاكم من العثمانيين أو من المماليك انما ابحث عن مصالح الناس وأموال المسلمين » ثم يلتفت الى الحاضرين من الاتراك ويصيح : اخرجوا اليهم للحرب ساعة فاما أن تغلبوا أو تغلبوا ،وسنستريح من الجميع !

ويغضى الوالى والقائد مطرقين !

وبعد أفليست هذه زعامة باسلة ؟ ثم الا تعد مع ذلك نموذجا رفيعا لورثة الانبياء ؟

عبد الرحمن الجبرتى
يهاجم الطغاة

العاقبة للحق ، قضية صادقة ، تبرهن عليها حوادث الدهر ، وتنطق بها حقائق التاريخ وسيرة الجبرتى دليل ثابت يؤكدها أبلغ تأكيد ، فقد وقف الرجل حياته على الانصاف والعدالة فيما يسطر من حادثة أو يرى من عظمة والمنصفون فى كل زمان هدف للعسف البالغ ، والاضطهاد الاثيم ، ومن الطبيعى أن ينال الجبرتى ما يترصد زملاءه الصادقين من بغى وتهديد ، بل ان ماناله فى حياته وبعد مماته كان أعنف قسوة مما لحق سواه . فقد عاش الرجل فى ثلاثة عهود مختلفة . تعاقبت مندثرة بما لا يقره من العنف والارهاب ! فرصد نفسه لمناوأة الباطل مناوأة سافرة صريحة ! عاش فى عهد المماليك الغاشم فرأى المسرح الرهيب الذى تمثل عليه أدوار السلب والنهب والاغتيال ، وشاهد الدسائس والمؤامرات تحاك فى غبش الظلام ، حتى اذا انبثق الصبح تفجرت عن مآس نكراء تتفتت لها الاكبار ، وعاش الرجل فى عهد الثورة الفرنسية ، فآلمه أن يرى أعداء بلاده يلوثون مياه النيل بمآثمهم الفاضحة ، ويحاربون مبادىء الاسلام بما يريقون من خمر ، ويعطلون من شعائر ، وينتهكون من

حرمات ! وكانت ثالثة الاثافى ان يستبشر خيرا بتولية محمد على ، نزولا على رغبة الشعب ، حتى اذا ما تمكن سلطانه انقلب على شيعته ، ومثل الادوار السابقة التى قام بها سابقوه ، فاغتال وسلب وذبح وأرهب ، والمؤرخ الحزين يرى الايام لا تتمخض الا عن كل منكر اثيم ، فلا يسعه الا أن يسجل ما تقع عليه عيناه ملتزما نزاهة المحايد ، وعدالة المنصف ، والحاكمون من الطغاة لا يقنعون بغير الثناء الكاذب والاطراء المموه ، فاذا نظروا الى صحيفة أعمالهم فى مرآة الجبرتى فانما يتفجرون غيظا ، ويثورون انتقاما وحفيظة ، وينصبون من مخاتلهم الحاقدة ما يحيل الحياة فى عينى صاحب الحق ظلاما دامسا تتخلله العقارب والهوام ، وتكتنفه المخاطر والحتوف ، وهكذا كانت حياة الرجل ، ولا سيما فى عهدها الاخير ، فقد ترصدته مكايد محمد على حتى ختمت حياته ختما اليما سنتعرض له آخر هذا البحث ببعض التفصيل .

مات الجبرتى ، ولكن الارهاب لم يكف عن اضطهاده فى قبره ، فقد أضرمت النيران فى منزله ، لتأتى على كل ما سطره من مسودات تفزع وتخيف ، ثم امتد الارهاب الى كتابته فصودرت مخطوطاته ، ومنع تداولها وأوعز الى المنافقين من الكتاب بنقدها وتجريحها ، وقد يتحذلق ناقد مغرض فيقول ان كتابة الجبرتى ليست تاريخا تربط معه الحوادث ، وتنبىء المقدمات عن النتائج ، وتسلط عليه أضواء التشريح والتحليل ! كأن المفروض فى الجبرتى ان يتبع طريقةالقرن العشرين فيما يخط من أحداث ! وقد فات هؤلاء أن الرجل قدم الوثائق ، وذكر الوقائع ، وأسلف من اليد على الناس ما أسلف ابن الاثير والمقريزى

وابن اياس والسخاوى وعلينا نحن أن نأخذ من موسوعته الحافلة ما نأخذه من موسوعات قرنائه المؤرخين ، دون أن نفرض على الرجل شروطا تأباها طبيعة العصر وثقافة الجيل ، ولولا ان بعض المكتبات الفرنسية قد احتفظت بنسخ من يوميات الجبرتى ، ما استطعنا ان نقرأ تاريخه الحافل !! فقد ساعد قيام الثورة العرابية على نسخ صورة ، وطبعها كما كتبها المؤلف فى اربعة اجزاء متخمة مكتظة ، ذات حجم رائع ، ورسم حافل ، ثم توالت الايام وكتاب الرجل لا يلقى ما يستحقه من التنويه ! وسهام النقد تصوب الى اسلوبه المتواضح ، وما يشربه من عامية ركيكة ، واساليب هابطة ! ولو سلك الجبرتى مسلك ادباء عصره فى التزام المحسنات الزائفة واصطناع التشبيهات الملفقة ، ما أمكنه ان يقدم صورة امينة من واقع مصر ، كتلك التى قدمها فى سفره الجليل ، ولغرق القارىء فى كناية واستعارة ، وسجع وجناس وطباق ، دون أن يجد للمرآة الصادقة ، والصورة الصحيحة لامد واسع من تاريخنا العزيز ، والآن فقط ، وبعد قيام الثورة الاخيرة امكن لتاريخ الجبرتى أن يأخذ مكانه اللائق فنهض الكاتبون للحديث عنه منوهين ، واقتبس الناشرون من حوادثه الحالية صحائف يقرؤها الناس مقدرين مغتبطين ، واندفع المخلصون الى كتابة حياة الرجل كتابة منصفة ، ترفع عنه أوضارا كثيرة مما صحبه من عنت الدهر وزيف الايام وهكذا يقدر الجبرتى وتاريخه بعد ليل دامس ، بطىء الكواكب ، حالك الجنبات ، بل هكذا يظهر الحق من محنته الغاشية ، ناصع الوجه ، مؤتلق الجبين ، فترددت

الارجاف بهواتف حارة جائشة تجأر فى قوة وايمان بأن العاقبة للمتقين !

أما كيف نشأ الرجل ؟ وكيف اندفع الى كتابة تاريخه ؟ فذلك ما سنعرج عليه فى هذا الحديث ! كان حسن الجبرتى والد عبد الرحمن من كبار علماء الازهر الذين ألموا بدراسة علوم اللغة والتشريع ، ولو أنه قصر اطلاعه على ما يتناقله زملاؤه فى دروسهم الازهرية من نحو وفقه وبلاغة وتفسير ، لكان عالما كمئات العلماء من نظرائه ولكنه اتجه الى دراسة الرياضة والمسائل الفلكيه ، فانتشرت له براعة خاصة تسمه بسمات تختلف عن ألوان زملائه ومعارضيه ، كما تدفع فريقا من التلاميذ الى التشبث بأستاذيته والتعلق بدروسه ، وقد ساعده على اجادة مسائل الحساب والهندسه ما اندفع اليه من حياة عملية ، هى الى التجارة والمضاربة أقرب منها الى المذاكرة والتحصيل ، فقد ورث الاب عن أهله وزوجاته ضياعا ومنازل ومتاجر وخالط سيلا مزدحما من العملاء، ممن يساهمون فى تنمية ثروته وانتاج محصولاته ،فكان اتساع أفقه الحيوى باعثا على تضلعه فى علوم الحياة وفنونها المختلفة ، وقد اتجه الى الموازين والمكاييل فأخذ يضبط مقاييسها ، ويعيد السلامة الى مختلها ، ولم تدفعه الى ذلك رغبة فى الثراء وطمع فى الاكتساب ، بل ان الموهبة الكامنة فى اطوائه كانت تتطلب متنفسا فسيحا ، فى ضبط المختل ، واقامة المنحرف ، كما يندفع الرسام الى تصوير مناظره ، وتنميق لوحاته ، دون أن يعرضها فى سوق عام للربح والاتجار ، بل ليشبع رغبة ملحة

تتطلب المنافذ المتعددة للاشباع وقد ساعده ثراؤه الطائل على مزاولة موهبته فى فرحة واغتباط ، كما جذب اليه هذا اليسر الوارف فريقا كبيرا من زملائه ومريديه فكانوا يغشون منازله ، ويلمون بحلقاته تارة لاستماع الدرس ومناقلة الحديث ، وطورا للراحة والمطعم فى مآى فسيح . ومكان كريم ، وذوو الثراء فى كل موطن قبلة الانظار ومراد الآمال .

وفي هذا البيت الزاخر بالنعيم والرفه ، الحافل بالعلماء والفقهاء ولد عبد الرحمن ونما عوده الاخضر نموا هادئا مسعدا ، يجد حظه من الرى الدائم ، والتربة الخصبة ، ذات الهواء البليل ، وقد استقبل الوالد طفله استقبالا فأترا حزينا ، اذ أن الرجل قد تعود أن يستقبل الاطفال من قبله ليعيشوا فى كنفه عاما أو عامين ثم يعجلهم الموت عن استكمال حظهم فى الحياة ، وقد دفن الاب الثاكل خمسة وثلاثين مولودا قبل عبد الرحمن من زوجاته وسراريه ، دون أن تسعده الايام بوليد يخطئه الموت ،وكان يعلل ذلك بأن نطفه تنحدر من صلبه غير متكاملة فلا تلبث أن تعجل بالرحيل ، واذا جاء عبد الرحمن توقع أبوه نهايته القريبة ، فلم يشأ أن يفرح بمصباح سينطفىء شعاعه بعد قليل ، أضف الى ذلك ان الوليد الجديد من احدى سراريه لا زوجاته ، وهو بهذا انأى عن القلب والعين من ولد الحبيبة ! ولكن القدر أخلف الرجل ، فعمر وليده السنوات المتتابعة دون ان يتطرق الي عوده الغض ذبول وجفاف ، ونشأ منشأ غيره من أولاد العلماء يحفظ القرآن والمتون ، ويلم بالمدارس والكتاتيب ، حتى اسلمته الطفولة

الى اليفاع فكان له فى حلقات الازهر وفى دروس والده وفى مذاكرة من يغشون منزله من العلماء ينبوع متدفق يفيض عليه بالعلم والادب والسداد وكان الغلام الناشيء ذا استعداد طيب للبحث والافادة ، فأثمر ذلك كله فىعقله أخصب الثمرات !!

تثقف عبد الرحمن بثقافة عصره ، وانتفع بأحاديث والده عن زملائه من العلماء وأصدقائه من امراء المماليك ، ووجوه الدولة وأعيانها ، فعرف كثيرا عن أحوال مصر ، وأمكنه أن يلم بسياسة رؤسائها الماما يختزن فى ذاكرته ثم يتسرب الى أطوائه ، حتى طوى الموت أباه فترك له ثراء طائلا من متاجر وأطيان وعمارات وأورثه صداقات رفيعة تمت الى وجوه العلماء وصفوة الرؤساء ، وقد اضطر الشاب أن يتفقد أملاكه بنفسه ، فرحل عن القاهرة الى طنطا وكفر الزيات والمنصورة ودمياط والاسكندرية ورشيد ، وفى كل بلدة يحلها يجد من يحادثه من الاعيان والعلماء ، كما يخبر طبقات الشعب المختلفة من حكام وفلاحين وصناع وعمال ، فعرف بلاده معرفة شخصية ، وسبر الاغوار القاصية فى الاعماق والسرائر ، ورجع الى القاهرة وقد صلب عوده ، وغزرت تجارته ، واتسع نطاقه فى الحياة !

واصل الشاب دراسته بالأزهر ، حتى أصبح عالما مرموقا يستمع اليه التلاميذ ويقصده العلماء ليعيدوا سيرتهم مع أبيه ، وقد فرح العالم الثرى بمنزلته الكريمة، وأفسح بيته لارباب العلم ، وأعلام الازهريين ، ووثق صلاته بمن يلمس فيهم الوجاهة والرفقة من علية الناس،

كما اكب على خزانة والده ، كي يستتم علوم الفلك والهندسة والحساب ، ووقر في ذهنه أن يعيد سيرة الوالد ، فيتبعه في طريق حياته ذراعا خلف ذراع !

ولكن رجلا كبيرا يفد الى مصر من اليمن فيرسم لعبد الرحمن آفاقا جديدة يجذبه الى التطلع اليها في شوق واندفاع ، فيقبل الازهرى الشاب على استاذه وقد شاهد فيه طرازا خاصا لم يعهده ، رآه يختلف اختلافا بارزا عن علماء الازهر في التفكير والتأليف والملبس والاتجاه وقد أحرز قبول العقلاء وارتياحهم ، فتوافد الطلاب على مجلسه وسعى الامراء الى منزله ، وقبل الساعون بين يديه الارض تقبيلا لا يكون لغير الخلفاء والامراء ! ذلك هو العلامة الكبير السيد ابو الفيض المرتضى الزبيدى البحاثة اللغوى الجهير !

لقد كان تأليف الازهريين لعهد الجبرتى دائرا في شرح المتون وكتابة الحواشى ، ووضع التقارير ، فالمتن أصل تتفرع عليه ما يليه من حاشية وهامش ، لا يختلف ذلك في علم من العلوم ، فانت تراه في الفقه والنحو والأصول والمنطق والتوحيد ، وانت تسمعه كذلك في حلقات الدروس اذ تدور الجدل حول المتن ، كنص مقدس ، تلتمس التأويلات الشاسعة الى مايتطرق اليه من وهن في لفظ ، أو خطأ في تقرير قاعدة ، ثم تدور الحرب الجدلية حول هذه التأويلات ، من معارض يدحضها بالحجة الى مؤيد يدعمها بنص آخر ، أو تخريج محتمل !

على ذلك سارت حركة التاليف في الازهر ، وفي غير ذلك سار العلامة الزبيدى في دروسه بالمساجد ، وتأليفه في الكتب ، وقد كان يدرس فقه اللغة ، وفصيح ثعلب ،

وادب الكاتب ، دون ان يلحقها بحواش وشروح ، كما اخرج معجمه الفذ « تاج العروس » نمطا فريدا فى عصره وموطنه ، وادب مأدبة حافلة للعلماء حين أتم تأليفه قوبل بالثناء والاطراء !

أراد هذا العالم البحاثة أن يترجم لاعلام القرن الثامن عشر من العلماء والامراء والوجهاء ، فيصل ما انقطع مما قام به صاحب الضوء اللامع وصاحب خلاصة الاثر وصاحب سلك الدرر ، وغيرهم من أصحاب المراجع التاريخية ذات الدوى البعيد ، ولم تكن للزبيدى ـ كضيف نازح ـ خبرة واعية برجال مصر ، واعلامها فى القرن الذى ينتوى الحديث عنه ، فتفرس خلطاءه حتى اهتدى الى عبد الرحمن الجبرتى ، فكاشفه بدخيلة سره ، وامره أن يشمر معه فى البحث عن آثار الماضين فيزور أصدقاء والده ، مسجلا احاديثهم عن الرجال ، كما يدلف الى الصكوك والحجج فى مسجلات القضاء ، ويطالع النقوش فوق القبور وعلى المساجد والآثار ، ثم يتصل بأقارب المتفوقين من ذوى الجاه والنفوذ ، فيجمع من حياتهم ما تفرق ، ويضم من تاريخهم ما تناثر ، واذ ذاك يمكنه أن يقدم لاستاذه مددا حافلا من المعلومات ، والانباء !

وقد كان حديث الرجل غريبا عن عبد الرحمن فى بدئه فلما ضرب له المثل ، وناقش معه الفكرة ، ورسم له الطريقة وجد الشاب عقله وقلبه يتجهان اتجاها أكيدا الى كتابة التاريخ ، ودراسة حياة الرجل ، واصبح التفكير فى ذلك شغله الشاغل ، وهمه المقيم ، وجاوز النظر الى العمل ، فاندفع يرى ويسأل ويستمع ثم يسجل معلوماته راجيا

ان يقطع الليل المنسدل بين عينيه الى صباح مشرق يسعد باجتلائه فى شغف وارتياح !

لقد انصرف الشاب الى عمله الجديد انصرافا كاد ينقطع به عن التدريس فى الازهر ، فلم يعد يجتمع التلاميذ فى حلقته الا لماما ، وعكف على تسجيل الاخبار والحوادث يجمعها من المعمرين ، فانشأ صداقات جديدة لاناس يعلمون من خوافى الامور فى الماضى ما يضع فى يده الحقائق الكثيرة ! واخذ يدون معلوماته فى صحائف متناثرة ثم يجمعها كما سطرها أول مرة دون تعديل ، ويبعث بها الى شيخه الزبيدى ، مرتاحا لجهده النشيط ! وفى غمرة اجتهاده المرهق وافته الانباء المحزنة بوفاة أستاذه الملهم ، فاضطرم عليه حزنا وأسفا ، وفكر فى مشروعه التاريخى، وقد احدقت به نذر الفشل والتثبيط ، ولكن هواتف نفسه تنبعث فى ظلمات التردد مدوية مجلجلة فتدفعه الى الامل والكفاح ، ولا سيما بعد أن عثر فى بيت فقيده الراحل على جميع مدوناته ومخطوطاته التى سبق أن أرسلها اليه ففرح بها فرحا زائدا ووجد فى محتوياتها سجلا رائعا لعهد تصرم وانقطع ، اذ دونت من حوادث المماليك ما كاد يغيب عن الاذهان من كل كبيرة صغر أمرها مع الزمن فلم تعد غير خاطرة تعبر ، أو ذكرى تحين ، وقد كانت فى ابانها كارثة مروعة ، ومأساة ذات اثر اليم !

على أنه انقطع عن البحث فترة تلمس بها الهدوء والاستجمام ، ولكنه انقطاع المشوق الآمل الذى ينتظر اقتطاف الثمرة فى حينها المتاح ! وقد يهتم الانسان بأمرها

ثم يخيل اليه فى ظاهر امره انه قطع صلته به ، وجنح الى شيء سواه ، ولكن عقله الباطن لا يعترف بظاهره الزائف ، فهو فى اطوائه البعيدة ، يجمع ويدخر ويحفظ ويكنز ، حتى اذا امتلأ وطابه بما حواه ، انتقض على صاحبه فاجبره فى غير هوادة على الاذعان التام الى اشواقه وميوله ، وقهره على تسهيل ما اكتنز وادخر ، وكذلك كان الجبرتى ! فقد خيل اليه انه انصرف عن مدوناته .

وهو فى حقيقة امره يرصد احداث زمانه ، ويدخر مشاهداته وتجاربه ، وقد اتجه الى نوع آخر من التاليف فاختصر تذكرة داود الانطاكى فى الطب ، وتعرض الى نقد كتاب الف ليلة وليلة ، بدافع لا شعورى من شغفه بالتاريخ اذ ان الكتاب فى جوهره تاريخ اختلط فيه الواقع بالخيال والوهم بالحقيقة ! وقد ترك الجبرتى بهذا وذاك مخطوطاته السالفة ! لكن الى حين .

ومضت الايام فى سيرها الرتيب ، حتى حان وقت تدفقت فيه الجيوش الفرنسية فى حملتها الشهيرة على مصر ، وتحكم نابليون فى القاهرة باسلحته وجنوده وعلمائه تحكما قلب المسرح السياسى قلبا مفاجئا ، فبعد ان كان المماليك يمثلون ادوارهم الفاجعة فى عبث واستهتار ، غدونا نجد الضباط الفرنسيين يقومون بادوارهم الجديدة فى صرامة جازمة ، وتصميم اكيد ، ورجل كالجبرتى قام بتسجيل الحوادث ، وتقدير الرجال ، لا يسمح لقلمه ان يقف مكبلا فى دنيا تزحمها الكوارث ، وتفترسها الاهوال ، فترك مهاد الدعة والجمام ، وطفق يسجل

مايراه ، ويسأل عما وقع بعيدا عن عينيه وهو فى تدوينه يمحص الروايات ، ويزن الامور ، فيختار ـ قدر طاقته ـ ما يجده أقرب الى منطق الحوادث ، وأدنى لواقـع الاحوال ، وقد تكاثرت لديه الوقائع ، ووجد من عبـر لياليه وعظات دهره ما يقدم به للأجيال اللاحقة سـجلا رائعا ، وكتابا حافلا ، وقد رأى بفريزته التاريخية أن يلتفت قليلا الى ما سجله عن الماضى ، فعكف على تبيض مخطوطاته من جديد ، لتكون صحيفة الامس مقـاربة فى تسلسلها واطرادها ، ما يخطه فى صحيفة اليوم ، وقد اجمل المؤلف خطته فى سطور ننقلها بأسلوبه عن مقـدمة كتابه اذ يقول :

« كنت سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثـانى عشر وما يليه ، وأوائل القرن الثالث عشر الذى نحن فيه، جمعت فيها بعض الوقائع اجمالية ، واخرى محققـة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وامـور شاهدناها ، واستطردت فى ضمن ذلك الى سوابق سمعتها ، من أفواه المشيخة تلقيتها ، فأحببت جمع شملها ، وتقييد شواردها فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والاعوام ، الى أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنهـا الى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها ، وسنورد ان شاء الله ما ندركه من الوقائع بحسب الامكان ، والخـلو مـن الموانع ، الى أن يأتى أمر الله ، وان مردنا الى الله ، ولم اقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، او طاعة وزير او أمير ، ولم اداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح او ذم مباين للأخلاق » .

هذا منهج الجبرتى ، فهو لم يقصد مجاملة أمير ، أو طاعة وزير ، ولم يداهن دولة بنفاق أو مــدح أو ذم يتجافيان عن الاخلاق ، ونحن وقد قرانا كتاب الرجـل نجده قد تمسك بما عاهد عليه القراء ، فى مقدمة كتابه ، بل نجده صادف كثيرا من العنت والارهاق فى ســبيل هذا المسلك الصريح !

لقد تحدث الرجل فى جزاى كتابه « الاول والثانى » عن عهد المماليك فذكر فى دقة ما لمسه من أساليــب المشاحنة والمنافسة بين الرؤساء والاتباع والم المامــا مسهبا بدسائس الامراء والصناجق ، وتكالبهم على المال والجاه ، وفصل مصارعهم الرهيبة ، وما جلبوه على مصر من محن ونكبات ، ووالى طعناته الدامية الى محمــد جركس ومراد وعلى الكبير فبين كيف كان اتباعهم ياخذون ما يحبون من الباعة دون ثمن ، فاذا امتنع أحد التجـار قتلوه ونهبوا متجره ، وشرح كيف كانوا يخطفون النســاء والغلمان ويدخلون منازل الناس ثم لا ينصرفــون حتى ينالوا الثياب والغلال والاموال ، وكيف تجرا هؤلاء الاوغاد بتحريض امرائهم ، على نهب مصوغات الذهب والفضــة من الصاغة وغصب نفائس الحلى من صــدور النساء فى الحمامات ، بعد التهجم عليهن هجوما آثما ينكره الاسلام وتاباه الاخلاق !

يا الله ، لقد تمخضت هذه الفترة الدامسة من عهد المماليك فى مصر عن اسوا ما تتمخض عنه الايام البائسة ذات المحن الدامية ، والكوارث الشداد !وقد حرص الجبرتى على رسم مناظرها الفانية دون المجاملة الزائفة الى السكوت

عن قوم تربطهم بوالده تارة ، وبنفسه أخرى روابط صداقة والضرورة ، فقد كان على الكبير ومحمـــد أبو الذهب وغيرهما من الامراء على صلة طيبة بأسرة المؤرخ ، وعلائق المودة كانت وما تزال مراد التجاوز والاغضاء ، الا عند من يرصدون انفسهم لتمحيص الحق الجرىء بعيدا عما يكتنفه من ملابسات ذاتية ، والجبرتى ـ بلا ريب ـ فى طليعة هؤلاء !

وحين نسجل للرجل انصافه الدقيق للمماليك ، لانجد مناصا من تسجيل انصافه الصادق لاعضاء الحمـــلة الفرنسية ، اذ أن الخلق العريق يطبع صاحبه بطابعـــه فلا يميل به الى بخس أو تطفيف مهما اختلفت الســلعة فى الكفة رخصا وغلاء ، وكان الظن بعبد الرحمن أن يقصر حديثه على تصوير الكوارث المتلاحقة التى جلبها الاجنبى الدخيل على قوم مسالمين فيميل بالرصد الى ما ارتكبه الغزاة من تدمير ونسف وتقتيل ، وما فرضه المحتلون من ضرائب فادحة تثقل الكواهل وتقصم الظهور ، وما أمطروا به المساجد والمنازل والاسواق من قنابل وصواعق بعثت الموت والهول فى النفوس ، وما انتهكوا به الحـــرمات المقدسات ، اذ هجمت الخيول على أماكن العبادة ،وحلقات العلم ، تلطخها بقاذوراتها الدنسة ، وتزعجها بصهيلهـا المنكر ، وفوارسها المناكيد فوق ظهورها المسرجة يشربون الخمور امعانا فى الكيد ، ومبالغة فى التبجح والاستهتار

اجل ! كان الظن به أن يقتصر على تسجيل هذه الفضائح المخزية دون أن يلمح من زاويته الخاصة موضعا لتقدير

واعجاب ولكن الانصاف يفرض عليه أن يعترف للقوم بانهم بذلوا جهد الطاقة فى مجاملة المصريين وتحسين احوال البلاد ، فوزعوا الصدقات ، واحترموا المواسم الدينية ومنعوا دفن الموتى فى المقابر القريبه ، ورجعوا الى كثير من رجال مصر بالمشورة ذات الاصغاء والتنفيذ، وما اضطرهم الى ما وقعوا فيه من العسف ، غير ما لمسوه من التجمع فالتحرش فالاستفزاز ، وقد اطنب الجبرتى فى وصف الروح العلمية التى اذكتها الحملة الفرنسية فى المجتمع المصرى ، اذ وصف مكتبة المجمع الفرنسى والم بتفصيل ما شاهده من علماء الحملة فى تجاربهم الكيميائية مما كان موضع اندهاش الازهريين من العلماء ، ولنترك الرجل يتحدث بذلك فى فقرات نقتطعها من كتابه بأسلوبه لتكون أبلغ فى الدلالة على دقته وانصافه من ناحية ، وعلى دهشته وتحيره أمام معجزات العلم من ناحية ثانية .

قال الجبرتى : « وفى بيت حسن كاشف جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون يحفظونها، ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من « العساكر » ، واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الى أعز اماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك ، واظهار السرور بمجيئه ولا سيما اذا راوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر والمعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم وقد ذهبت اليهم مرارا واطلعونى على ذلك » .

ثم يقول الكاتب فى وصف بعض التجارب العلمية « ومن أغرب ما شاهدته أن بعض المتقيدين اخذ زجاجة

بها ماء ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، ففعلا الماءان ، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف مافى الكأس ، وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا ، أخذناه بأيدينا ولمسناه ، ثم فعل ذلك بمياه أخرى فجمد حجرا ازرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ، واخذ مرة شيئا دقيقا من غبار ابيض ووضعه على السندال . وضربه بالمنطقة فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه وضحكوا منا ، وهكذا نجد تاريخ الحملة الفرنسية مسطورا بخيره وشره وانت تتلمسه واضحا فيما كتب الجبرتي ، وقد حفظ التاريخ لنا كتابا آخر عن الحملة سطره « نقولا الترك » والفرق مابين الازهرى المصرى والمسيحى اللبنانى واضح !! فالاول مع تسطيره جميع مايعلم عن الفرنسيين قد اهتم بحوادث الشعب فى كتابته اهتماما لم تفته الدقة والانتباه ، والثانى قد سجل ما لمسه عند رجال الحملة الفرنسية والجاليات الاجنبية الاخرى بحكم اتصاله الوثيق بأولئك وهؤلاء ، دون أن يتوسع فى تشخيص التيارات المتجاذبة فى طوائف الشعب المصرى ، وقد اخذ بعض الناقدين على الجبرتى انه هرب من القاهرة الى الغربية عند قدوم الحملة الفرنسية ، فلم ير اذ ذاك ما يسجله عن الحملة الا سماعا ومناقلة دون مشاهدة ومعاينة ، وليس الخبر كالعيان ، وفات هذا الناقد أن سفر الجبرتى حينئذ لم يتجاوز عشرة أيام رجع بعدها الى القاهرة ، وهى مدة ذات حوادث بارزة لا يمكن أن تمر دون أن يتحدث الناس شهورا طويلة ، فاذا سمع الرجل وكتب فانما يتحرى الواقع فى أهله ،

والصدق من ذويه ، وهو لذلك يقول : « ولا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الامور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف » .

مضي الفرنسيون فانقضى برحيلهم عهد باد وتصرم ، واستقبلت مصر عهدا آخر سيطر فيه محمد على على الدولة بعد قلاقل ثائرة أدت الى مبايعته . وقد بدأت متاعب الجبرتى ـ بهذا العهد الجديد ـ تزداد وتتجهم ، فالمؤرخ المنصف كان فى ماضيه يقول الحق دون ان تتبعه الارصاد والعيون ، اما الان فقد تعذر عليه ان يجد متنفسا لقلمه فى امد تتحكم به الفردية الطاغيه تحكما قاهرا ، ولو اغمض عينيه قليلا لخان رسالته وهاجت عليه نوازعه بالتانيب والتقريع ، ماذا عسى أن يصنع ؟ لقد صمم على ان يجتاز طريقه الوعر مهما امتلأ بالاشواك والصخور !! ومهما تعرض الى مهاو سحيقة يكتنفها الويل والثبور !! وبدأ الرجل يسير ، فاعترف أولا ـ جريا وراء انصافه الدقيق ـ بما قام به محمـــد على من أعمال هامة فى استعمار الاراضى البور ، وانشاء المصانع واعداد السفن وتشجيع وسائل التجارة بين مصر وغيرها من الاقطار . واستحضار الات النسيج الحديثة حتى قال فى التعقيب على بعض أعماله « هذه الفعلة من أعظم الهمم الملوكية التى لم يسبق بمثلها » ولكن هذه الحسنات لا يمكن أن تتجرد عما اكتنفها من سيئات ثقال ، فمن المحتم الاكيد عليه كمصور صادق ان ينقد موجة الاغتيال التى غمـــرت الشعب تنفيذا لسياسة ارهابى جرىء !

كما أن واجب المؤرخ الا يغفل الحديث عن اشـتمال

الغلاء اشتعالا كاد يسلم الشعب الى مجاعة دهياء ، وكان اليما ان يغدر الباشا بأولياء نعمته فيقلب ظهر المجن للسيد عمر مكرم ، وطائفة من افاضل العلماء والاعيان ، وقد جعل من مصادرة الاموال سيلا ينحدر دافقا الى خزائنه، مما ضيق الخناق على اصحاب المتاجر والمصانع ، فأخذوا يتنفسون فى جو خانق كريه ، وجنود الباشا المسلحون يجددون مآسى الفرنسيين فينتهكون الحرمات ويتباهون بالمعاصى ، ويعبثون بالمتاجر والاسواق ، بل ان نجل الباشا ابراهيم يقتدى بأبيه فيصب غضبه الظالم على الرعية صبا رهيبا سجله الكاتب حين قال « ثم سافر ابراهيم راجعا الى الصعيد ، ليتم مابقى عليه لاهله من العذاب الشديد ، فقد فعل بهم فعل التتار ، عندما جالوا بالاقطار ، واذل اعزة أهلها ، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاما ، وحضر من بلده ولم ير غير ماهو فيه ، لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ، ولا مأمورات ، ولا منهيات » .

انها الجراة الصادقة تدفع الرجل الى تأنيب القساة الطغاة ولو تضافرت الاقلام على انصاف الحق ، ما وجد طاغية يتبجح بالمظالم ويخوض فى الشهوات دون أن يسمع غير الاطراء الكاذب ، والرياء المقيت ، وقد كان الجبرتى جريئا ، فلم يكتف بتسطير المظالم دون تعقيب ، بل رأى من حق التاريخ عليه أن يشفع مخازى الآثمين بتنديد فاضح يذكى الحفاظ ويلهب الصدور ، فى وقت وجد به اناس يجعلون من هذه المثالب محاسن رائعة ! وجلائل حافلة لا تتعلق بها الآمال وخيال الباطل فسيح مديد .

ذاع نقد الجبرتي ، وتناقل الناس ما سطره عن محمد علي وابراهيم ، ثم عن أشياعهما من الاصهار المتجبرين ، كحمد الدفتردار وسليمان أغا السلحدار وكلاهما بان طاغوتا رهيبا لا يذر من شيء يأتي عليه ، بل طالما استمد من سلطان الوالي رهبة قاتله ، تذل النفوس وتلجم الافواه فما الذي يكافأ به الجبرتي ازاء صراحته في عالم تهون لديه الارواح الانسانية هوانا يلحقها بالحشرات والهوام !

ان النتيجة الرهيبة متوقعة محتومة ، فلا يعقل أن تنكمش الاحقاد المتجبرة عن فريسة عزلاء لا تفزع بقوة او ترهب بنفوذ . ولا ريب ان المؤرخ كان يعلم تمام المعرفة في أي طريق يسير ! والى اى مهوى ينحدر ! وهنا موطن الاسوة ، ومجال العبرة ! هنا مكمن العظمة في افذاذ أماثل ، يقدمون أرواحهم قربانا للعدالة والانصاف، وينصبون اقدامهم مثلا حيا للبطولة والفداء ! ولو لم تكن للجبرتي هذه الروح السامية الرفيعة لعاش كالآلاف من الافراد : يجامل الطغيان ويتملق العدوان ، ويقضي حياة ذليلة ضارعة تنتهي به الى موت آسف لهيف ، ويمر مماته الهين مرورا ساكنا شاحبا ، فما بكت عليه أرض وما تفتحت لاستقباله سماء !

اما كيف تمت المأساة فقد اختلف فيها الكتاب اختلافا لا نرى داعيا له اذا تأملنا منطق الحوادث ، وقارنا الاشباه بالنظائر ، فهناك روايتان متباعدتان ، رواية تقول : ان حكم الاعدام قد نفذ في المؤرخ بعينه عن طريق الاغتيال في طريق موحش بهيم ، بتحريض من محمد علي ، وتنفيذ من سليمان اغا السلحدار .

الغلاء اشتعالا كاد يسلم الشعب الى مجاعة دهياء ، وكان اليما أن يغدر الباشا بأولياء نعمته فيقلب ظهر المجن للسيد عمر مكرم ، وطائفة من افاضل العلماء والاعيان ، وقد جعل من مصادرة الاموال سيلا ينحدر دافقا الى خزائنه ، مما ضيق الخناق على أصحاب المتاجر والمصانع ، فأخذوا يتنفسون فى جو خانق كريه ، وجنود الباشا المسلحون يجددون مآسى الفرنسيين فينتهكون الحرمات ويتباهون بالمعاصى ، ويعبثون بالمتاجر والاسواق ، بل ان نجل الباشا ابراهيم يقتدى بأبيه فيصب غضبه الظالم على الرعية صبا رهيبا سجله الكاتب حين قال « ثم سافر ابراهيم راجعا الى الصعيد ، ليتم مابقى عليه لاهله من العذاب الشديد ، فقد فعل بهم فعل التتار ، عندما جالوا بالاقطار ، واذل اعزة اهلها ، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاما ، وحضر من بلده ولم ير غير ماهو فيه ، لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ، ولا مأمورات ، ولا منهيات » .

انها الجراة الصادقة تدفع الرجل الى تأنيب القساة الطغاة ولو تضافرت الاقلام على انصاف الحق ، ما وجد طاغية يتبجح بالمظالم ويخوض فى الشهوات دون أن يسمع غير الاطراء الكاذب ، والرياء المقيت ، وقد كان الجبرتى جريئا ، فلم يكتف بتسطير المظالم دون تعقيب ، بل رأى من حق التاريخ عليه أن يشفع مخازى الآثمين بتنديد فاضح يذكى الحفاظ ويلهب الصدور ، فى وقت وجد به اناس يجعلون من هذه المثالب محاسن رائعة ! وجلائل حافلة لا تتعلق بها الآمال وخيال الباطل فسيح مديد .

ذاع نقد الجبرتي ، وتناقل الناس ما سطره عن محمد علي وابراهيم ، ثم عن أشياعهما من الاصهار المتجبرين ، كحمد الدفتردار وسليمان أغا السلحدار وكلاهما كان طاغوتا رهيبا لا يذر من شيء يأتي عليه ، بل طالما استمد من سلطان الوالي رهبة قاتله ، تذل النفوس وتلجم الافواه فما الذي يكافأ به الجبرتي ازاء صراحته في عالم تهون لديه الارواح الانسانية هوانا يلحقها بالحشرات والهوام !

ان النتيجة الرهيبة متوقعة محتومة ، فلا يعقل أن تنكمش الاحقاد المتجبرة عن فريسة عزلاء لا تفزع بقوة او ترهب بنفوذ . ولا ريب أن المؤرخ كان يعلم تمام المعرفة في أي طريق يسير ! والى اى مهوى ينحدر ! وهنا موطن الاسوة ، ومجال العبرة ! هنا مكمن العظمة في افذاذ أماثل ، يقدمون أرواحهم قربانا للعدالة والانصاف، وينصبون أقدامهم مثلا حيا للبطولة والفداء ! ولو لم تكن للجبرتي هذه الروح السامية الرفيعة لعاش كالآلاف عن الافراد : يجامل الطغيان ويتملق العدوان ، ويقضي حياة ذليلة ضارعة تنتهي به الى موت آسف لهيف ، ويمر مماته الهين مرورا ساكنا شاحبا ، فما بكت عليه أرض وما تفتحت لاستقباله سماء !

أما كيف تمت المأساة فقد اختلف فيها الكتاب اختلافا لا نرى داعيا له اذا تأملنا منطق الحوادث ، وقارنا الأشباه بالنظائر ، فهناك روايتان متباعدتان ، رواية تقول : ان حكم الاعدام قد نفذ في المؤرخ بعينه عن طريق الاغتيال في طريق موحش بهيم ، بتحريض من محمد علي ، وتنفيذ من سليمان أغا السلحدار .

ورواية تقول : ان الاغتيال قد وجه الى خليل الجبرتى نجل المؤرخ فتفجع والده عليه ، وكف مابقى من بصره حتى لحق بولده بعد ايام ! وقد ذكر الرواية الاولى أكثر المصادر الاجنبية وفى مقدمتها دائرة المعارف الاسلامية ، وايدها الاستاذ احمد حافظ عوض فى خاتمة كتابه القيم عن تاريخ مصر الحديثة ، وهو فى راينا اقرب الروايتين الى المنطق ، اذ أن محمد على قد اعتاد ان يتوجه بشره الناقم الى أعدائه المباشرين والاب هدف أصيل يجب أن يتوجه السهم اليه ، كيلا يظل عاكفا على تسويد صحائفه ، بما يذيع ويشتهر فى دنيا صاخبة ، تتناقل المثالب تناقلا طائرا ، لا يقف فى مكان أو ينتهى عند غاية ولا سيما اذا كان تنفيسا عن صدور مكروبة ، وقلوب ممتلئة فهى تقضى وطرا عاما من اوطارها ، بقراءة صحائف الجبرتى وترى فى نقده انشودة ساحرة تهدأ لها الخواطر ، وتجذب نحوها الاسماع ! وان طاغية كمحمد على بطش بأعدائه المماليك ، على كثرتهم الكاثرة فى ساعة واحدة لهين عليه جدا أن يتخلص من يراع صادق يدون مثالبه وينشر مساويه فى غير تحفظ واكتراث ، ولماذا يترك محمد على فى حياته أمدا فسيحا تنفجر به براكين سخطه متأثرا ابنه الفقيد ـ لو صحت هذه الرواية ـ فيواصل هجومه الثائر عن قلب موتور وصدر ملتهب وكبد ذات تباريح !

ان اغتيال الجبرتى نفسه هو الحل الطبيعى الذى يتجه اليه عقل غاضب متجبر كعقل محمد على دون أن يتطرق الى اغتيال سواه مهما عزت مكانته ، واشتدت آصرته ، وعظمت حرمته لدى المؤرخ الدقيق ، على أن الذين يلحقون الكارثة بنجل الرجل ، يجمعون على أن

والده فقد صوابه ، اذ داهمه الخبر الفاجع وانتفضت عليه علله واوجاعه وكف بصره فما يستطيع أن يخط حرفا واحاطت به النذر الغاشية من تهديد الوالى ووعيده . فأخذ يترقب مصرعه بين آونة وآونة وقضى اياما حائرة مضطربة ، أهون منها السكون الابدى فى حفرة آمنة عزلاء لا يدب اليها كيد ، أو تنصب حولها فخاخ ، مهما كان من اختلاف الروايتين ، وتباعدهما تباعدا تفترق نتيجته ، فقد نزل الشر بالرجل نزولا عاصفا . ثم ودع الحياة توديعا مريرا ، دون أن يجد من معارفه من يزفر عليه زفرة رثاء ، أو يسكب فوق ضريحه عبرة آسفة ، فقد بدد الارهاب الخانق وفاء الاصدقاء وعصف بولاء المخلصين !! الا ماكان من همس الشفاه وتساؤل النظرات وامتد وراء الراحل العزيز ليل حالك دامس تكشفت غياهبه القاتمة عن فجر يومض ثم عن صبح يشرق وينير ، فاذا الرجل بطل خالد ، ومثل يحتذى ، وذكرى تتعطر بها الاجيال !! والعاقبة للمتقين .

جمال الدين الأفغانى
باعث الشـرق

يقول المتنبى :

يقولون لى ما انت فى كل بـلدة

وما تبتغى ؟ ما ابتغى جل ان يسمى

لعل هذا البيت لا يصدق على انسان كما يصدق على العالم المصلح الفيلسوف جمال الدين الافغانى ، فقد كان ذا امل كبير يدفعه الى التنقل فى شتى الممالك القاصية لا لينعم بالرحلة الهادئة ذات البهجة والانتعاش ، بل ليقيم فى كل ارض ثورة ، ويشعل فى كل مملكة ضراما ، وليهدم ما تعفن من الآثار البالية ، ويقيم على انقاضه صروحا عالية من العزة والاستقلال وان رجلا واحدا يمكنه ان يزلزل الشرق الهامد بصيحته العالية لجدير ان يكون رنان الصوت طائر الصيت !

لقد نشأ جمال الدين فى عهد يائس حزين ، كانت فيه الممالك الاسلامية جميعها دون استثناء أشبه بالمريض المنهوك الذى سرى الداء فى كل عضو من أعضاء جسمه ، فالتأخر والجمود والاحتلال تجثم بقيودها الثقيلة على كل دوله . ومن فاتها الاحتلال الظاهرى بالعسكر والجيش

فان الاحتلال المعنوى يطبق عليها بقيود مستترة ، تحس ثقلها الحديدى دون أن تراه العين ، وقد طفت الدول الاستعمارية بما ملكت من القوة والعلم طغيانا مكنها من الشر والبغي والاستغلال ، وليتها اقتصرت على ماتعتصره من الارزاق وتستنزفه من الخيرات . بل اتجهت بمعاولها الهادمة الى الدين الاسلامى تصمه بالرجعية والتزمت والضيق وتنسب الى تعاليمه أسباب التأخر والانحطاط ثم تعرض مفاتن أوربا وما ابتدعته فى عصور النهضة من فنون ، وما وصل اليه العلم العصرى من مستحدثات متخذة من ذلك كله دلائل ساطعة على انحطاط المسلمين بوقوفهم عند دينهم البدوى المتأخر كما يتصور هؤلاء ! وكان الجهل المطبق يدفع الكثير من المسلمين الى القنوط واليأس ويشككهم فى القيمة الحقيقية للشريعة الاسلامية وبقائها الحى على تناسل الاحقاب حتى وجد جمال الدين، فدرس عصره وألم بمعضلات العالم الاسلامى ورأى أن الدين براء مما ينسب اليه ، وأن المسلمين لم يتقهقروا فى مضمار الحضارة والعلم الا لانهم تركوا الدين وراءهم ظهريا فظلموه ظلما فادحا حين انتسبوا اليه بالقول ثم خالوا جميع أوامره ونواهيه ، فحقت عليهم كلمة الله !!

ولو لم يكن جمال الدين من طراز نادر ممتاز لتسرب اليه اليأس فى ظلمات هذا الليل الحالك . ولكن شعاع الايمان فى قلبه قد انتشر وهاجا ساطعا ، فأخذ يشق له الطريق فى احجج هذا الظلام البهيم وصمم على الجهاد العنيف ليحيى الميت ، ويخصب المحل الجديب .

ومن هنا كان تنقله الحثيث فى كل دولة ورحلاته

المستمرة فى كل ارض ، فما يبتغيه اجل من ان يسمى ، وابعد من ان يتطاول اليه انسان سواه !

فهو مثلا فى بلاد الافغان موطن آبائه وأول أرض تنسم بها ريح الحياة ، قد راى الخلاف الداخلى يمزقها شيعا وأحزابا ، وراى الاستعمار يزيد من حدة هذا الخلاف حتى صار الامراء فى حرب لا تنقطع . لكل امير جيش واعوان يتصارعون مع اخوانهم المواطنين ، فيدفعون البلاد الى الدمار الحاصد والفناء المبيد ، فراى على حداثة سنه ان يدخل المعترك السياسى ، وأن ينضم بعزيمته وعقله وايمانه الى من يعتقد فيه الصلاح والخير للاسلام ، فرجحت الكفة به ، وسالمه الدهر حينا ، ولكن الدسائس الاستعمارية لا تسكت عن محاربة الاصلاح ، فالقت بكيدها وسلاحها ومالها الى الميدان حتى تغلب الباطل ، ولاذ جمال الدين بالفرار الى الهند !!

ولم تكن الهند غريبة عن الرجل ، فقد تعلم بها فى صباه ودرس ظروفها السياسية والاجتماعية فعرف ان الاستعمار الانجليزى يرهقها بطغيانه الرهيب ، ومن ثم فقد اخذ ينشر بين الهنود دعوته الى الخلاص والاستقلال وتتبع اساليب الاستعمار ليفضح مساويها الشائنة ، وينزع الثياب عما تضمره من فضائح ومخزيات . وكان طبيعيا ان يضيق به المستعمرون فيجبروه جبرا قاهرا على مغادرة البلاد . والرجل لا يستسلم ولا يستكين بل يلتفت الى المندوب الانجليزى ليقول له فى كبرياء « ان تخوف حكومة بريطانيا من زائر اعزل مثلى يسجل عليها وهن عزيمتها وضعف شوكتها وقلة عدلها ، وعدم امنها ،

وانها فى حقيقة حكمها لهذه الاقطار اضعف بكثير من شعوبها » .

وينظر جمال الدين فيرى المندوب الانجليزى يتكبر ويتضاءل ويلمح الدموع تترقرق فى عيون الآلاف من مودعيه ممن آمنوا بمبادئه ، واستيقظوا على صيحته : فلا يلجأ الى مجاملتهم فى هذا الموقف العاطفى الحزين ، بل ينفجر كالبركان صائحا فيمن حوله ملهبا شعورهم الهامد اذ يقول : « يا أهل الهند ، وعزة الحق ، وسر العدل لو كنتم وانتم تعدون بمئات الملايين ذبابا ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ولو كنتم وأنتم مئات الملايين وقد مسخكم الله وجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر واحطتم بجزيرة بريطانيا لجررتموها الى القعر وعدتم الى بلدكم احرارا »

ثم رحل الرجل الى مصر تاركا وراء كل حرف من هذه الحروف جمرة تشتعل ، ولهيبا يتطاير ليلتهم أوكار البغى والاستبداد !

الى اين يمضى هذا الشجاع الصنديد ؟

لقد اتجه الى مصر ليصل رسالته فى البعث والايقاظ وقد زارها مرتين . فعرف وجوهها واحوالها واتصل بأزهرها الاسلامى ليتخذ من طلابه دعاة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ولم تكن الاحوال فى مصر بأحسن منها فى الهند فقد استدان اسماعيل وبالغ فى القرض والتبذير حتى جر الاستعمار الى وطنه . وقد الف الناس الاستكانة والانصياع ، فأخذ يفتح العيون على مايجرى فى البلاد من أهوال . ويتصدر المجالس ليعلن آراءه فى الحكام وبرامجه

فى الاصلاح . ثم اختار صفوة من تلاميذه ودفعهم الى الكتابة فى الصحف ليصوروا الفساد الداخلى ، ويفضحوا الطغيان الخارجى ، ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام ، واقامة حكومة دستورية تخضع لبرلمان متيقظ ، يحاسب على التبذير والرشوة ، ويحد من الفردية الدكتاتورية فى الحكم والسلطان . وقد عزل اسماعيل فى هذه الظروف التى خلقتها مآسيه المتلاحقة ، وجاء ولده توفيق وكان ذا صلة بجمال الدين فادرك الحاكم الجديد قوة تأثيره ــ واراد ان يلاطفه ليرجع عن مبادئه فى الحرية والاستقلال وهما منه ان الرجل قد يستجيب وينسحب دون ضوضاء . وكان ان هيأ اجتماعا عاجلا فى القصر الخديوى بداه توفيق فقال مداهنا مراوغا : انى احب كل خير للمصريين ، ويسرنى ان ارى بلادى وابناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الاسف ان اكثر الشعب جاهل لا يصلح ان يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة فيلقون انفسهم والبلاد فى تهلكة .

فاعتدل جمال الدين فى مجلسه ثم رفع راسه ليقول فى اعتداد : « ليسمح لى سمو امير البلاد ان اقول له : ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص ، واسرعتم فى اشراك الامة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الامة ، تسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم يكون ذلك اثبت

لعرشكم وادوم لسلطانكم » .

وانتهى اللقاء بعد ان لمس توفيق خيبة مسعاه !

لقد كان جمال الدين يدرك بعد هذه المقابلة ان ايامه فى مصر محدودة فانبعث يشعل اللهب بخطبه وافكاره . وكانت به حدة قاسية تلجئه الى العنف الصريح دون مواربة ، فانشأ محفلا ماسونيا جديدا بلغ اعضاؤه اكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين « وكان فى هذا المحفل مطلق الحرية ، نظم شعبا للاعمال المختلفة : فشعبة للحقانية ، واخرى للمالية وثالثة للاشغال ورابعة للجهادية وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ، تدرس كل شعبة شئون وزارتها ومصلحتها وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الاصلاح فيها . ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها فى أسلوب حازم صريح فكان لذلك هزة فى الاندية والمجتمعات » (١)

وصاحب ثورة كهذه الثورة لابد أن يحارب بعنف ، فقد تعاون الاستعمار الخارجي والطغيان الداخلى على ابعاده فغادر مصر ولكن بعد أن اعد الموقد واشعل الثقاب!

يئس الفيلسوف من متابعة الاصلاح فى بلاد الشرق فرأى ان يتجه الى الغرب ليجد من الحرية فى صحفه وانديته ما يكفل لارائه الذيوع ، وجعل يتنقل مابين روسيا وانجلترا وفرنسا متخذا من صحافتها المنتشرة ميدانا لافكاره الجريئة فى مناوأة الاحتلال ، وتذكر تلميذه الوفى محمد عبده فدعاه من بيروت الى باريس ليصدرا

(١) من كتاب زعماء الاصلاح نقلا عن محمد المخزومى باشا .

معا جريدة العروة الوثقى . فكان لها على قصر مدتهـا الوجيزة من الدوى والصليل ما أرهب الاستعمار ، فتحالف على مناوراتها وحارب انتشارها محاربة قاهرة. واخذ يترصد اعدادها فى مختلف مصارف البريد ليصادر ما يتجه الى الشرق فى حقد واضطغان ، ومع هذا الخطر العارم فقد تسللت الى أيدى الكثيرين ردحا من الزمن . ثم اضطرت الى الوقوف بعد نضال جميد !

وقد شاءت انجلترا ان تسكت الرجل باسلوبها الخاص، فهى تعلم أن القمع لا يجدى معه فى شىء اذ ينتقل الدوار من افق الى أفق دون تعويق ، فرات ان تستميله بالمنصب الخطير ليكون لها من وراء هذه الشخصية الفذة ساعدا قويا يمكن لها من النفوذ والاستعلاء ، وكانت ثورة المهدى بالسودان اذ ذاك قد بلغت قمتها العالية وعجز الاسد البريطانى عن مواجهتها بأسلحته وعتاده فراى أن يبعث بجمال الدين الافغانى الى السودان ملكا رسميا تلتف حوله الجموع ، ليستطيع بمكانته وعلمه أن يجمع حولهالمسلمين قاطبة ، فتخبو نار الثورة : ويصبح السودان لقمة سائغة فى فم انجلترا . يقدمها السيد الافغانى لها طواعية اى وهم قد تمكن فى نفس المستر سالسبرى رئيس وزراء انجلترا اذ ذاك فصور له أن جمال الدين دمية فى يده يرمى بها كيف يشاء .

لقد ظنه أنسانا مريضا يحب الجاه والمنصب كأكثر من يرى ويعامل من الناس ولكنه بوغت منه بداهية عنيد نظر اليه نظرة صاعقة ، ثم صاح فى وجهه بكبرياء وعظمة: هذا تكليف غريب ، وسفه فى السياسة مابعده من سفه ،

هل تملكون السودان حتى تتوجوا عليه ملكا يخضع لارادتكم كما تشاءون ، ان مصر للمصريين والسودان جزء متمم لها وصاحب الحق الخليفة الاعظم حى يرزق ، ولديه من الجيش المادي والمعنوى مايذلل معهما كل صعب فى الكون الاسلامى وأجزاء ممالكه » .

ولم ينتظر أن يطول النقاش ، بل انهى المقابلة سريعا وخرج من دار رياسة الوزراء فى لندن ليتوجه الى باريس من جديد !

على انه لم ينس فى مضمار السياسة أن يحمل القلم فى مجال التاليف والنقد فكتب رسالة طويلة فى تفنيد نظرية الارتقاء والتطور سمى اصحابها بالدهريين كما يسمون فى كتب النحل الاسلامية من قديم ، ونظر فى الصحف الباريسية فرأى الفيلسوف الفرنسى « رينان » يشن حربا طاحنة على الاسلام فأخذ يهرف بما لا يعرف، وينسب الى تعاليمه من الجمود والتزمت ماهو بعيد عنها بعد الارض عن السماء ، فحمل جمال الدين يراعه القوى ليقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وطارت ردود السيد كل مطار فقرأها رينان فى دقة وعقب عليها بما ينبىء عن تراجعه حينا وتخبطه حينا آخر . وعرف الاوربيون عن طريق هذه المناظرة الجهيرة كثيرا من الحقائق الاسلامية الصريحة رائعة باهرة بعد ان ملأ المستشرقون أذهانهم بالفاسد من الآراء عن عمد أثيم . وما كاد المسيو هانوتو بعد ذلك بأعوام يعيد الكرة الظالمة فى حرب الاسلام حتى انبرى له تلميذ جمال الدين الشيخ محمد عبده ، فباغ

مبلغ استاذه من التوفيق والسداد ، وهكذا يجد الحق نصيره في كل زمان ومكان !

وبعد فهل ارتاح السيد في تجواله اللاغب في الشرق والغرب لايقاظ الشعور الديني ، وبعث العملاق النائم من سباته العميق ! هيهات هيهات ، فقد تعرف بشاه ايران وعاهل الفرس في بعض جولاته الاوربية ، ورأى الشاه في جمال الدين طرازا رائعا من العلماء . فصمم على أن يصحبه الي مملكته الفارسية ليكون مستشاره الناصح في ادارة البلاد . وانبعثت في نفس السيد آمال كبيرة تتجه الى الاصلاح والبعث فصارح الشاه بوجوب انشاء حكم دستوري نيابي ، وجمع حوله من رجال فارس من اقتنعوا بمذهبه في الاصلاح ممن ينقمون على الحكم الفردي فظاعته واستبداده ، ونظر الشاه فاذا مستشاره الناصح ينادي بآراء تقيد من طغيانه الفردي فواجهه باللوم وثبت السيد عند رأيه فناقش وافحم ، ومضت شهور قلائل تحرج بها الموقف بين الرجلين تحرجا زاد من هوته اقبال الفارسيين على جمال الدين والتفافهم حول مبادئه الدستورية ، فلم ير الشاه مناصا من القبض عليه في أثناء مرضه العارض ثم رمي به خارج حدود بلاده ليجد المريض المحموم نفسه في العراء تحت سياط البرد والثلج والشتاء !!

لا بأس ! فالشدائد تهون لدى أصحاب الآمال البعيدة والمطامح العالية من الرجال ، وقد هان على السيد مايلقى من الناس ! فلم تفتر له عزيمة واتجه الى الاستانة موطن الحكومة العثمانية ومربض عبد الحميد السلطان ! وكان

فى الخليفة دهاء وحيلة ، فأدرك مايعتمل فى نفس المصلح الكبير ، وعلم من واقع رحلاته وسجل أعمـــاله آماله المخلصة فى اقامة دستور عادل يطيح بحكم الفرد ، فلم يشأ أن يأخذه بالعنف القاهر ، فيؤلب عليه أتبـــاعه الكثيرين فى شتى ممالك الاسلام بل قابله مقابلة الصديق الشفيق وقرر له راتبا ، وأفرد قصرا لاقامته ، ثم عرض عليه منصبا دينيا خطيرا ، ولكن السيد لا ينشد راحته الشخصية حتى يقنع بما أعد له من نعيم ، فطلب مقابلة الخليفة على انفراد وصارحه فى اعتداد بأن الحكم الفردى يحتاج الى تغيير جوهرى وأن الشورى يجب أن تكون أساس هذا الحكم كما هو معروف فى الدول الاوربية ذات القوة والحضارة والازدهار ..

وكظم عبد الحميد غيظه حتى انتقل جمال الدين من مجلسه فأرسل كبير الياوران ليقول له فى كثير من العتاب « ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وانت تلعب بالسبحـة فى حضرته » .

فرد جمال الدين محتدا « سبحان الله ! ان جـلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الامة على هواه ولا يعترضه منهم أحد ! أفلا يكون لجمال الدين الافغانى حق أن يلعب بسبحته كما يشاء » !

واعجبا لو كنا بصدد دراسة نفسية تحليلية لمواقف السيد ، لرأينا فى أمثال هذه الردود المفحمة ما يكشف القناع عن عظمته العالية وكبريائه الرفيعة على الجبابرة والطغاة . ولكن طبيعة هذا البحث تعجلنا عن كل ذلك.

عبد المجيد سليم
بقية السلف الصالح

اكتمل لامام اهل السنة المغفور له الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم (١) من جلال العلم وعظمة الحق وقوة الايمان مالم يكتمل لسواه من النظراء والامثال ، فقد كان رضى الله عنه من اخلاقه المثالية فى هيبة منيعة يصغر دونها أعظم الرؤساء من ملوك ووزراء ! فلا يحاولون ان يصارحوه بما لا يرضى المؤمن المتحرز ، والعالم العيوف . وقد جاءت سيرته الطاهرة كتابا مفصلا للرجولة العالية ، يقرؤه الناس فيجدون المثل الاعلى قد تجسم واقعا ملموسا فى أعمال الرجل واقواله واذا كان من السلف الصالح من شابه الشيخ فى ابائه وترفعه فان معاصرتنا الشاهدة لحقيقته المؤمنة فى القرن العشرين تؤكد لنا ان مصباح الحق دائم الاشعاع ، فهو ينتقل من العصور الغابرة الى العهود الحاضرة دون ان يطفأ له ضياء ، ويأبى الله الا أن يتم نوره !

ولو أردت أن ترجع جميع مواقف الشيخ الى سبب واحد ، ترتكز عليه أفعاله وتصدر عنه أقواله ، ويكون

---

(١) انتقل الى رحمة الله فى ١٠ من صفر سنة ١٣٧٤ هـ .

مفتاح شخصيته الذى تدرك به أسرارها الكامنة ومواهبها المدخرة لوجدت هذا السبب ينحصر فى شىء واحد لا لبس فيه ولا غموض ! انه الثقة بالله وحده تسيطر على نفسه ، فيهون دونه كل جليل يكبره الناس !

لقد وثق بالله حين أقبل على العلم اقبالا مخلصا ، فمنحه ذات نفسه وتفرغ عن رغبة أكيدة لاقتناص شوارده ، واكتناه غوامضه ، ولم يقبل فى عهد التلمذه ان يقتصر على علوم الازهر وحدها بل جمع اليها المنطق والفلسفة حتى عرف بين زملائه بابن سينا . وقد اختار من أساتذته فى حلقات الازهر من آنس فيه البراعة والاستيعاب ، فهو يحضر دروس الاستاذ الامام محمد عبده فى الرواق العباسى لمدة خمس سنوات فيدرس عليه كتب عبد القاهر فى البلاغة حينا وتفسير كتاب الله حينا آخر ، وهو يتلقى شروح المنطق والفلسفة عن استاذه الشيخ حسن الطويل فيلم بأفانين من الجدل والقياس لم تكن مألوفة للداته من الطلاب ، ثم هو يجد فى أستاذه الشيخ أحمد أبى خطوة موردا دافقا فى الفقه الاسلامى فيأخذ عنه التبحر فى المسائل الفرعيةوالتعمق فى الفتاوى الفقهية . ويشهد له بالاطلاع الشامل والصبر الطويل بل انه يقارن غير مرة بين أبى خطوة والاستاذ الامام فيجد الاول أكثر الماما بمسائل الفقه وادلة الاحكام غير أن الامام فى رأى الشيخ يمتاز بسعة الافق وسلامة التعليل وامتداد الصيت ! هذا الى بيان مشرق يجذب اليه الناس فيصبح أقدر العلماء على الافادة والتوجيه .

وقد شاء القدر أن يكون الاستاذ خليفة الامام فى

الافتاء فعالج فى فتاواه الكثيرة معضلات العصر وقضايا المدنية الحديثة كما عالجها الامام فى فقه بصير وفهم مستنير . وقد تحدث رحمه الله فى بعض اعداد مجلة الرسالة عن منهج أستاذه فى الفتوى ومنهجه الخاص الذى يحتذيه فقال نقلا عن العدد الممتاز (٤٤٩) :

«ان الناحية التى تجلت فيها مواهب الاستاذ الامام: هى ادراكه الصحيح لمعانى القرآن الكريم ، وفهمه الدقيق لاغراضه ، وتذوقه لاسلوبه ومعجز بيانه ، مع بصر عظيم بأحوال الناس وعبر التاريخ ، واسرار تقدم الامم والشعوب . يؤزر ذلك قلب جرىء وعقل متصرف .

وكان يعتمد فى فتاواه على ادراك روح الشريعة ، وتبين اغراضها العامة ، لا على مناقشة المذاهب وترجيح آراء الفقهاء ، ولذلك تأتى فتاواه غالبا مختصرة . وقد تثير خلافا بين أهل العلم . ومن امثلة ذلك انه افتى فتواه المشهورة بجواز لبس البرنيطة ، فقامت من أجلها ضجة هائلة . فلما أردت ان افتى فى الموضوع ، انتفعت بموضع العبرة فيه ، فأخرجت فتواى التى تجيز ذلك اخراجا فقهيا مؤيدا بأقوال العلماء ، جاريا على طريقتهم فى الاستدلال والترجيح .

واذا كان الاستاذ الامام لم يتقيد بمذهب معين فى فتواه ، فان خليفته الاستاذ عبد المجيد قد ورث عنه هذه السمة الفسيحة فى قبول الآراء المختلفة مادامت مؤيدة بالدليل ، فأنحى باللائمة على من يعتصمون بقول خاص لا يحيدون عنه . بل ان اثره كان قويا ملموسا فى جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية ، وهى التى تنص

المادة الثانية من قانونها على « العمل على جميع أرباب المذاهب الدينية الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الايمان بها . مع السعي الى ازالة ما يكون من نزاع بين شعبتين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما » .

فقد كان رضى الله عنه وكيل الجماعة فأكسبها جلالا ومقاما ، وجذب اليها الصفوة من اتباعه ومريديه ، وقد تحدث فى أول عدد من مجلتها « رسالة الاسلام » فقال :

« ولقد ادركنا فى الأزهر على أيام طلبنا للعلم عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ، ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد وتطهر الازهر من أوبائه وأوضاره . فأصبحنا نرى من العلماء من يخالف مذهبه الذى درج عليه فى أحكامه ، لقيام الدليل عنده على خلافه ، وقد جريت ــ طول مدة اقامتى بالافتاء فى الحكومة والازهر وهى أكثر من عشرين عاما ــ على تلقى المذاهب بالقبول ، مادام دليلها عندى واضحا ، وبرهانها لدى راجحا » .

وقد اعترف أساطين الفقه وأساتذة القانون بما لآراء الشيخ من قوة وسداد ، فقد كان مرجع الافذاذ الاعلام من ذوى التشريع يسألون فيجيب ، ويترددون فيجزم ، حتى أن اللجنة التى الفت للأحوال الشخصية فى وزارة العدل برياسة الاستاذ الاكبر محمد مصطفى المراغى وعضوية شيوخ المذاهب بالازهر وأساتذة الشريعة بالحقوق ورئيس المحكمة الشرعية العليا ووكيلى وزارتى العدل والمعارف ! هذه اللجنة الممتازة كانت تعتمد

اعتمادا كليا على جهود الاستاذ وبحوثه ! وقــد كتب رئيس محكمة الاستئناف الاسبق الاستاذ محمد محمود يعلن ذلك بجريدة الأهرام عقب وفاة الشيخ فيقول من كلمة مخلصة فى الرثاء :

« وقد كان المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم فى هذه اللجنة النجم اللامع والحركة الدائمة ، اذ كانت تعـرض الموضوعات والمسائل على اللجنة بعد سبق بحثها وفحصها وعند ذلك يأخذ الراحل الكريم الكلمة فيتولى شـرح الموضوعات والمسائل الواحدة بعد الاخرى ، مستعرضا شتى الآراء ومختلف الصور فى كل مذهب من المذاهب. مقررا حكم الشرع ، ذاكرا رأى الائمة المجتهدين والفقهاء المؤلفين ، مسايرا روح العصر ، متنقلا من فن الى فن ، وهو فى ذلك كله كالبحر المتدفق حتى اذا انتهى مـن جولته العلمية ومحاضرته الفقهية ، قامت اللجنة بالبحث والتمحيص واستنباط الحكم الملائم تمهيدا لاعطائه الصفة النهائية » .

على انك لو وجدت من رجال الفقه الاسلامى فى عصرنا الراهن من ماثل الشيخ فى المامه التشريعى كالسـيد محمد رشيد رضا والشيخ محمد بخيت المطيعى ، فلن تجد من فقهائنا المعاصرين من ماثله فى قوة الايمان ومجابهة الباطل والاعتزاز بالله وحده ! وتلك عجيبة الرجل حقا فقد كان حلقة ثمينة فى سلسلة ذهبية تجمع نخبة مؤمنة من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وأوذوا فى سبيله فما ضعفوا وما استكانوا لما أصابهم وارتفعت أصواتهم مجلجلة رنانة تندد بالطغيان السافر وتدعو الى الحـق

الصريح ! فقد قدر على الاستاذ أن يعيش فى زمن منافق لئيم يسوده استعمار خارجى من أوروبا الظالمة ، وداخلى من فساد القصر وتشاحن الحزبية ، وكان الظن بأبناء الازهر ان يناوئوا جميعا ذلك الفساد فى شتى وجوهه ، وان يحاربوا الطغيان فى مختلف صوره ، ولكنهم لم يكتفوا بالسكوت على الباطل بل خب بعضهم ووضع فى الجزبية المتناحرة جنبا عاد على العلماء بالنكبة والخذلان وعلى الطلاب بالخيبة والهوان !

ولم يسكت الشيخ كغيره . بل جاهر بالدعوة الى نبذ الحزبية وعارض فى صراحة واضحة من يرون مشايعة القصر ومسايرته مهما كان لهم من السطوة والنفوذ . ورأى أن واجبه الالزم يفرض عليه أن يكون ممن يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فأعلن رايه فى السياسة الطائشة ، وتزعم فئة من ذوى الاتجاه الصائب والثقافة اللامعة والحفاظ الغيور ، وهى اليوم بفضل الله تسيطر على الازهر وترسم له الطريق للتوثب والنهوض ، فكافح بها البغى ما استطاع ! وقد دفعته رجولته النادرة أن يعلن رأيه الصريح فى القصر الباغى والحزبية العمياء وهو شيخ للأزهر دون أن يحرص على منصب زائل أو يخاف مغبة متربصة ، فقال فى حديث طويل نشرته جريدة الاهرام فى ذكرى الأستاذ المراغى تحت عنوان « امام يحيى ذكرى امام » .

« لقد كنت انا والشيخ المراغى صديقين حميمين ، كلانا يحب صاحبه ، ويقدر فيه مواهبه ، ولم تكن هذه الصداقة عارضة بل كانت أصيلة . ولكننا مع ذلك

اختلفنا بعد لأى من مشيختة الثانية للازهر ، وكان خلافنا معروفا للخاصة والعامة من الازهريين ، وسببه الجوهرى ميله رحمه الله الى ناحية السياسة الحزبية، وشدة نفورى من ذلك ، فانى أرى أن الخير كل الخير أن يتجنب العلماء السياسة الحزبية ومتاعبها التى تفضى الى مالا يحمد من العواقب » .

ومعنى هذا الكلام بصريح العبارة أن الاستاذ المراغى قد دفع بالازهر الى تأييد القصر ومعاونة من يرتضيه من رجال الاحزاب . وليست تلك مهمة رجل الدين فالاجدر به أن ينأى عن مشايعة ذوى المآرب المريضة والاهواء المغرضة من الناس .

ولم يكن القصر يجهل ما للشيخ من صلابة فى الحق . واباء للضيم فقد ذاق فاروق من حملاته السافرة قبل المشيخة وبعدها ما أرق مضجعه وازعج هدوءه . واذكر أن مجلة المصور قد نشرت تحت عنوان « مات الشيخ عبد المجيد سليم » بتاريخ « ١٤ أكتوبر سنة ١٩٥٤ » مقالا منصفا عن الاستاذ الاكبر فألمت بكثير من مواقفه الرائعة .

وكان مما ذكرته أن الشيخ اذ كان مفتيا للديار المصرية تلقى سؤالا عن حكم الشرع فى رجل يراقص النساء ويشرب الخمر فى الحفلات ويرتكب أعمالا يحرمها الاسلام وقد ادرك المفتى أن المقصود بهذا السؤال هو فاروق . فقد كانت الجرائد آنئذ تتحدث عن حفلات ماجنة تقيمها « شويكار » احتفالا بمسرته ، ولكنه لم يتراجع ، بل أصدر فتوى جريئة وصف فيها المسئول عنه وصفا

يشين ويجرح . ويقول المصور : ان الدوائر الرسمية والسياسية قد اضطربت لهذه الفتوى واتصل الملك السابق بالشيخ المراغى فطلب اليه أن يطلع منذ الآن على كل فتوى يصدرها الشيخ عبد المجيد قبل السماح لها بالذيوع !

ولم تكد الايام تمر على تربص حذر من القصر بالشيخ وآرائه حتى حاول فاروق أن يعين المغفور له الاستاذ مصطفى عبد الرازق شيخا للازهر . وكان القانون الرسمى للمشيخة لا يسمح بذلك لان الاستاذ عبد الرازق على جلالة خلقه ووافر علمه وأدبه ، لم يكن عضوا فى جماعة كبار العلماء .

كما أن تعيينه فى هذا المنصب الخطير ، يعتبر دفعا جديدا للازهر فى أتون السياسة الحزبية المتصارعة !! لان الرجل عضو بارز فى حزب الاحرار الدستوريين ووزير ممتاز من كبار وزرائه ، وله فى السياسة هوى خاص يميل مع قوم دون آخرين ، فلابد أن يكون عصره امتدادا محتوما لسياسة الاستاذ المراغى فى الانضمام الى القصر وشيعته !

لذلك نجد الاستاذ عبد المجيد نضر الله وجهه يرفض فى عنف هذا التعيين ! وقد استدعاه النقراشى « باشا » كما ذكرت مجلة المصور وحاول أن يغريه بالمال اذ كان للشيخ عدة آلاف من الجنيهات بوزارة المالية ، مكافأة شخصية على مشيخته للاحتاف بالازهر مدة طويلة ، وقد تجمدت تلك المرتبات بالوزارة لاعتراضها على أن يجمع الشيخ بين مرتبين فى وقت واحد ! فلوح له رئيس

الوزراء بصرف تلك الالوف المتجمعة سريعا اذا وافق على تعيين مصطفى عبد الرازق فغضب الشيخ فى وجهه غضبة ازعجته وصاح به فى انفعال : أتريد أن تساومنى فى الحق ؟ ثم خرج ساخطا دون استئذان ، ولم ييأس القصر بعد ، فأوفد اليه بعض رجاله يهدده بالعاقبة ويقول فى صراحة : ان معارضة الملك خطر عليك ! فقال الشيخ فى ايمان : أسيحول هذا الخطر بينى وبين المسجد ؟! فخجل رسول القصر ولم يجب ! وكان الشيخ جريئا حين أعلن نبأ هذه الحادثة بامضائه فى بيان أصدره للناس ! وهى من الذيوع بحيث لا يجهلها مصرى واحد عاصر هذه الاحداث .

أما حملته على استهتار فاروق ومجونه ، فقد كان شديدة منكرة ، ففى الوقت الذى تسابق فيه الزعماء الى تمجيد فاروق وتقديسه ، كان شيخ الازهر يصبح صيحته الغاضبة :

« تقتير هنا وتبذير هناك » منددا بما ينفقه الملك فى كابرى من الكنوز على الخمور والقمار والنساء ! وكان رجال الحكومة اذ ذاك لا يسالمون الشيخ لاعتراضه الصريح على تدخلهم المنكر فى شئون الازهر وتعيينهم اثنين من انصارهم فى مجلسه الاعلى ليقوما بتنفيذرغباتهم الحزبية مهما أجحفت بالعلم والعدالة والمساواة ! فانتهزوا الصيحة الغاضبة وطاروا بها الى فاروق فأقيل الاستاذ من منصبه . وقد ثبتت محبته فى القلوب ، وما ضره عزل دنىء عن منصب رسمى يسمو بالشيخ دون أن يسمو به فهو من جلالة مكانة فوق المناصب .

فهيهات أن يتسع المقال الواحد لغير السرد السريع ! على انه لا يحيط بكل ما كان ، بل ينتخب من الحوادث المتزاحمة ما يغنى عن سواه . ولن اغفل هنا موقفه الخالد من الملك فؤاد فقد حاول أن يستبدل ببعض ممتلكاته الجديبة ، ارضا مخصبة من املاك الاوقاف . وتلمس الفتوى الميسرة من عبد المجيد فأعلن الاستاذ فى تحمس صادق أن الاستبدال باطل لانه لا يجوز لغير مصلحة الوقف ! وهى هنا مفقودة .

ان الرجل الابى الذى يحتقر الآلاف المتجمدة فى سبيل مبدئه ، ويضحي بالمنصب الرائع اذا جر الى ضياع مثله ليحرص كل الحرص على ان تكون موارد رزقه طاهرة مطهرة ، حتى فيما ضؤل وهان ! فقد ذكر استاذى الكبير احمد حسن الزيات بأحد اعداد الرسالة ان ادارة الترام قد أهدت الى فضيلته تصريحين بالركوب فى الدرجتين الاولى والثانية ، أولهما للشيخ وثانيهما لخادمه ، فحرم الاستاذ على نفسه أن يستبيح شيئا ما دون مجهود متكافىء وقد تسرع خادمه فاستغل التصريح مرة واحدة ! فغضب الشيخ وركب عربته حتى وصل الى محطة الترام واشترى تذكرة ثم مزقها دون استعمال ، ليؤدى عن الخادم ثمن ما استهلك !!وللباحث النفسى أن يجد فى هذا التصرف المتحرز ما يكشف عن أطواء تلك الروح الطاهرة التى تتجنب الشبهات وتحرص على أن تكون مثالا مبرأ للمسلم الورع الابى .

مواقف خالدة
لعلماء الأزهر

يدأب كثير من المغرضين على اتهام الازهر ، واختلاق المقالب الشائنة لرجاله ، وهم اذ يلصقون التهم الآثمة بهم الصاقا يتجافى عن الحق والانصاف ، انما يهاجمون الاسلام نفسه من وراء ستار ليحققوا مآرب خبيثة لا يقدرون على البوح بها علانية ، ولا جرم فقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر .

واعظم تهمة يمهدون لها بالعلل والاسباب هى دعوى تزلف الازهريين للرؤساء من ملوك ووزراء والسير فى ركاب أولى الامر مهما اعتسفوا الجادة وتنكبوا السبيل.

ونحن اذا تصفحنا مواقف تاريخنا الحديث نجد لاعلام الازهر فى الذود عن الحق والوقوف فى وجه الباطل آيات رائعة يفوح منها الشذى العاطر وتؤكد وراثة الانبياء فى قوم يخشون الله حق خشيته ، ومن المؤسف ان هذه المواقف الخالدة ـ على كثرتها المشرفة ـ لم تجد من أحصاها فى كتاب او دونها فى تاريخ ، اذ أن الرهبة المرعبة من أصحاب النفوذ ساعدت على كتمان هذه المجابهات الصريحة ، الا ما تناثر على الافواه

من أحاديث تتخذ الحيطة الكاملة فى ترددها وتداولها بين الناس ، ومع هذا التكتم الصريح فقد وعت ذاكرة التاريخ مثلا رائعا لجماعة مؤمنة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من العلماء الافذاذ !

وها نحن أولاء نسطر فى مقالنا بعض هذه الروائع الغالية ليعلم من لم يكن يعلم أن من علماء الازهـــر من حملوا مشعل الحق فى الدعوة الى الله فاثبتوا لذوى الانصاف أن الروح القرآنية التى الهمت سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعمرو بن عبيد والاوزاعى وابن حنبل والعز بن عبد السلام فى القديم هى نفسها الروح القوية التى سرت فى نفوس علماء الازهر فواجهوا الباطل بلسان صدق مبين ونحن نسجل بعض هذه المفاخر لا لنقــول اولئك آبائى بل لنقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .

لقد حكم محمد على مصر فى فترة عصيبة من تاريخها القريب فمن الذى احصى عليه أخطاءه وسجل نقائصه ، حتى تعرض لاقصى ضروب العسف والاضطهـاد ؟ ان العالم الازهرى عبد الرحمن الجبرتى قد كان أول من سجل على الوالى الغاشم نوائبه واخذ يتنقل بين المدن والقرى فارا من عذاب اليم يتهدده من أولى الامر ، وقد تعرضت اسرته للاغتيال والحبس والاهانة . وظل المؤرخ الكبير يخط للاجيال المقبلة كلمة الحق سافرة حميدة دون أن يقعد به تحرش وارهاب ، ولو اراد الرفعة والجاه لسار فى موكب النفاق يختلق المحامد ويطلق بخور الثناء .

وقد اختلفت الآراء فى خاتمة حياته وارجحها المؤكد

انه لقى مصرعه مستشهدا فى سبيل الراى الصريح ـ مما بسطنا الحديث عنه بالتفصيل فى مقال آخر ـ ومع انه كان فى صدر شبابه صديقا لعلى بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب فقد سجل عليهم فى تاريخه العظيم مارآه من المظالم ، وارتفع بالتاريخ الى مرتبة لا تجنح الى الاهواء والميول .

هذا هو الجبرتى العالم الازهرى ابن العالم الازهرى! وهناك معه عشرات من علماء الازهر جابهوا الباطل علانية دون استخذاء فلم تأخذهم ملامة فى جنب الله وبقيت احاديثهم العاطرة تعبق فى رحاب الاجيال !.

هناك العالم الازهرى الجرىء الاستاذ حسن العدوى وقد شهد له الزعيم احمد عرابى فى مذكراته السياسية شهادة تزن ما على الارض من ثروة ومتاع ! فقد كان وزملاؤه الازهريين فى طليعة رجال المؤتمر الوطنى الذى اصدر قراره التاريخى بعزل توفيق وتكليف الزعيم احمد عرابى بالدفاع عن الوطن بعد أن قرئت على المجتمعين فتوى أزهرية اسلامية بمروق الخديوى وخيانته ، فكان لها أكبر الاثر فى هيجان الشعور المصرى ضد الحاكم الخائن .

وحين انتهت الثورة الى خاتمتها الاليمة تقدم الشيخ العدوى الى المحاكمة بجنان ثابت ووقار مهيب فسأله الرئيس : هل أفتيت بعزل الجناب الخديوى ؟ فاجاب من فوره : لم تصدر منى فتوى بذلك ومع هذا فاذا تقدمتم الى بمنشور يتضمن هذه الفتوى فسأوقعه . وما فى وسعكم وأنتم مسلمون ان تنكروا أن الخديوى يستحق العزل لمروقه عن الوطن والدين ! يقول هذا وقد

شحذ الباطل أسنته وحرابه لينكل بالاحرار الباسلين ، فتتضاءل فى تقديره كل عقوبة ظالمة تتخيلها الاذهان ويرفع هامته فى ساحة المحاكمة عالية شماء !

هذا العالم الازهرى الورع قد طلب منه فى أثناء زيارة السلطان عبد العزيز لمصر ضيفا على اسماعيل أن يقوم بتقليد رسمى كريه فينحنى الى الارض ثلاث مرات يأخذ فيها السلام الى راسه ثم الى فمه ثم الى صدره ويخرج موجها صدره الى الخليفة وظهره الى الباب !

وتوقع ذوو الامر ان يفعل ذلك ولكنه اعتقد فى قرارة نفسه أن هذه التقاليد آثمة لا تنبع من روح الدين بل تعيد الوثنية ثانية في أمة شرفها الاسلام بالتوحيد والمساواة ، فسخر بكل ماسمع ، ودخل الى الخليفة مرفوع الرأس قائلا السلام عليك يا أمير المؤمنين ثم ابتدره بالنصيحة ودعاه الى تقوى الله والخوف من عذابه !

وهاج الخديوى واضطرم الغيظ فى صدره ولكن السلطان يعجب بما يرى ويخلع على الرجل حلة ثمينة ويقول للحاضرين : « ليس لديكم عالم سواه » (١) .

وهناك العالم الجليل الاستاذ حسن الطويل العالم الأزهرى فقد كان من عزة النفس والثقة بالله على جانب رفيع ممتاز ! دخل عليه رياض باشا وهو يدرس لطلابه بدار العلوم فما غير موقفه أو بدل جلسته وحين هم الزائر بالخروج قال له الاستاذ : لماذا لا اكون وزيرا معكم ياباشا فدهش الزائر وقال : اى وزارة تريد ؟ فقال : وزارة

---

(١) من كتاب العدالة الاجتماعية فى الاسلام سيد قطب ص ١٦٨ وقد ألم ايضا بوقف الشيخ حسن الطويل فى مقابلة توفيق .

المالية لاستبيح من اموالها ما تستبيحون (١) !! وكانت لطمة اليمة توجه الى حاكم ارستقراطى لم يألف التهكم والاستخفاف ! فخرج ثائرا مهتاجا واستدعى ناظر المعارف على مبارك ليعجل بفصله من وظيفته ولكن يدا اعلى من يد رياض باشا تقف فى وجهه فيتراجع عن غطرسته العاتية مدحورا وقد آثر الا يزور مدرسة او معهدا بعد ذلك !

هذا الرجل العظيم الشيخ حسن الطويل ، قد طلب منه أن يرتدى ملابس خاصة ليقابل بها الخديو توفيق . وحان الموعد المرتقب فجاء بملابسه المعتادة ومعه منديل يضم الملابس الرسمية ، ثم قدمها للخديو قائلا فى بساطة: ان كنت تريد الجبة والقفطان فها هما ذان ، وان كنت تريد حسن الطويل فهاندا حسن الطويل !! ثم قال الشيخ لجلسائه : كيف اتجمل لتوفيق بلباس لا اتجمل به لربى فى الصلاة ؟ وهذا لعمرى منطق اليقين الجازم والايمان العجيب .

وهناك الاستاذ الانبابى شيخ الجامع الازهر ، دخل عليه اللورد كرومر محييا فصافحه الاستاذ من جلوس فاستعظم اللورد ما صنع وساله : الست تقوم للخديوى؟ فقال : نعم لان الخديوى ولى الامر ، وهو منا ولست مثله لدينا فى شىء (٢) ولم يقل الشيخ ذلك تزلفا للخديوى فهو العالم الجرىء الذى جابه توفيقا وافتى بعزله ومروقه دون تحفظ او اكتراث . ولقد كان

---

(١) من اخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٨١ .

(٢) من اخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٨٢ .

كرومر فى منعة عزيزة يتضاءل معها جاه خلفه الاخير « كلين » ومع الفارق البعيد بين الاثنين فقد رأينا رؤساء الحكومات ينكمشون ويتضاءلون جوار مايلز لامبسون ، ثم لا يجدون من صحافة اليوم غير المديح والتنويه .

وهناك الاستاذ الشيخ النواوى شيخ الجامع الازهر. فقد ارادت حكومة مصطفى فهمى ان تضعف القضاء الشرعي اجابة لرغبة المعتمد البريطانى . فدعت لتعديل اللائحة الشرعية مستندة الى نفوذ المستعمر كعهدها فى حكمها الطويل البهيم ! ولكن الشيخ النواوى يحمل على المشروع بكلمة موجزة فتطير فى الامة كل مطير ويتاهب الكتاب لنقده نقدا جارحا فتتخاذل الحكومة وتؤثر الانسحاب بمشروعها الخطير (١) ولو كان هذا الموقف لزعيم سياسى لظلت صحفنا « المنصفة » تردده بين الحين والحين .

ومن المدهش العجيب ان الذين يكتبون عن الاستاذ الامام محمد عبده يعز عليهم أن يعترفوا بمواقفه الخالدة من الحكام ويكثرون الحديث عن عمله وجهاده فى التربية والاصلاح ونشاطه الاجتماعى بل ربما اتهموه آثمين بمحاباة الانجليز والدعوة الى الاحتلال ، أما موقفه الخالد فى الثورة العرابية ونفيه الى الخارج فلا يحتاج الى تسجيل . واما مواقفه المتكررة من عباس فيجب أن يسحب عليها ذيل العفاء !

لقد اراد الخديوى السابق ان يجعل أموال الاوقاف

---

(١) مجلة الرسالة ص ١٦٣ السنة ١٥ نقلا عن فضيلة الاستاذ فرج السنهورى .

بقرة حلوبا تدر عليه الارباح من أيسر طريق ، فوقف الامام فى وجهه وقفة كشفت مطامعه للعيان . وادت الشحناء دورها فى قلب عباس فتعقب الامام فى كل طريق ناصبا مكايده الخاتلات !

لماذا عارض الخديوى اصلاح الازهر ! ولماذا عارض اصلاح القضاء ؟ السبب واضح ، فالاستاذ الامام قد رسم المنهج ، واعد الخطة ، واثار الرأى العام ، فلابد ان ترجع مشروعاته بالخيبة والاخفاق .

لقد كتب الاستاذ الامام عن « محمد على راس الاسرة الحاكمة » مقالا جريئا يبرزه على حقيقته امام القراء . فكان ثانى كاتب ــ بعد الجبرتى ــ فى مصر يصور بالعربية حقيقة هذا الحاكم السفاح ، وفى الوقت الذى احتفل فيه اساتذة النفاق بالذكرى المئوية « لساكن الجنان » منذ قريب !! كان هناك ازهرى ثالث هو العالم الازهرى الداهية محمد الغزالى ينقل كلام الشيخ محمد عبده عن محمد على فى كتابه « تأملات فى الدين والحياة » ثم يشفعه بالتفسير والتوضيح !

ونحن ندعو القراء الى مطالعة ما كتبه محمد عبده والغزالى عن محمد على ، ثم ليقرءوا الاعداد الخاصة من الصحف والمؤلفات الضخمة من الكتب التى صدرت فى الذكرى المئوية « العزيزة » تملقا لفاروق وارضاء للباطل وحينئذ يعرف القارئون من المتزلف المتملق ، انحن ام هؤلاء !

واخيرا تعالوا بنا الى العهد القريب لتعلموا ما صنع مفتى الديار المصرية السابق الشيخ محمد بخيت المطيعى

رحمه الله فقد لطم الاستعمار لطمة قاسية حين اصدر فتوى دينية وطنية فى مقاطعة الانجليز فسرت مسرى النار في الهشيم وبددت ما نسج من الاحلام والامنيات ولقد كان الشيخ بخيت أكبر مفت للاسلام فى عصره ورفض ثروة مغرية قدمت اليه حين أصدر فتوى اسلامية فى وقف من الاوقاف قائلا كلمته الجليلة « العلم فى الاسلام لا يباع » ولعمرى ان هذه الجملة الصغيرة على ايجازها العجيب ، قانون اسلامى خالد يجب أن يتردد ويذاع ليؤمن به المسلمون ويعملوا به .

هذه بعض المواقف الرائعة فى تاريخ الازهر ، ومن المؤسف أن يعاون المأجورون على طمسها واخفائها ، فيحولوا دون شرف خالد للتاريخ المصرى يوشك ان يندثر بلا تسجيل !! واذا كان منهم من يريد أن يطفىء نور الله فالله متم نوره ، ولن يعدم الحق لسان يقول : « هاؤم اقرءوا كتابيه » .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤/٣٦١١

الترقيم الدولى ٧-٠٩٦-١١٨-٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Al. Miguel Macoul Cury. R. 25 de Maroc. 900
Caixa Postal 7406, Sao Paulo, BRASIL.

اسعار البيع فى الخارج للعدد الممتازة ٥٠٠ مليم :

سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ق.ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلس ، العراق ١٨٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريال ، السودان ١٠٠٠ م.س ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠٠ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠سنت ، اليمن الشمالية ٧ ريال ، اديس ابابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠فرنكات ، لندن ١٠٠ بنى ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهاجن ١٥كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠سنت ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٤٠٠ فلس

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤/٣٦١١
الترقيم الدولى ٧-٩٦-٠-١١٨-٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

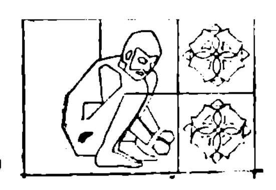
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Al. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 800
Caixa Postal 7406, Sao Paulo, BRASIL.

اسعار البيع فى الخارج للعدد الممتاز ٥٠٠ مليم :

سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ق.ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلس ، العراق ١٨٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريال ، السودان ١٠٠٠ م.س ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠٠ ليرة ، الصومال ٨٠ بني ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بني ، اسمرة ٦٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٧ ريال ، اديس أبابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بني ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ سنت ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٤٠٠ فلس



هــذا الكتــاب

يقدم هــذا الكتاب صورا نادرةمــن بطـولة الــراى فى التــاريخ الاسلامى ، اذ يعـــــرض مواقفساطعة لنفر من القــــادة صدعوا بكلمـــــة الحق دون ان يرهبهمبريق السيف ، او يسحرهم رواء المنصب والمال ، وفيهم مـــن قدمبه فداء للحق الصـريح دون ان تاخذه لومة لائم ، فلقى الله شهيداكريما .

وفى هـــــذا الكتاب صـفحاتمشرقة توالت منذ القرن الاول من تاريخ الاسلام ، لتثبت ان العقيدةالصحيحة قد خلقت ابطالا يحملون الراية الكريمة على مر العصـــورالمتتابعة ، ففى عهـود بنى اميـة وبنى العبــــاس والفــــاطميين والاندلسيين والمماليك ، وفى هــذا العصر الذى نعيش فيـــــه امثلتكريمة لاعــلام عز عليهم ان يروا الحق مهضوما ، فسارعوا بنصرتهطــائعين ، وهم يدركون مدى ما يتعرضون له من خطر ماحق حينيواجهون الاعصار القاصف بناره وحديده وجبروته .

يرى القارىء صورا من نضالائمة الاسلام من امثـــــال سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وابىحنيفــــة ، ومالك ، والاوزاعى ، ويحيى بن يعمر ، وعمرو بن عبيدويعقوب بن السكيت والبهلول وابن بشير والمنذر بن سعيد والعــز بنعبد السلام ومحيى الدين النووى وابن دقيق العيد ، وابن تيميـة ،وعبد الرحمن الجبرتى وجمـــال الدين الافغانى ، وعبد المجيــدسليم ، وكلهـــا حقيقة واقعيـــة لا اثر فيها للخيال ، اذ وجدت منواقعها المــــريح ما يغنى عن الخيال ، وكل سيرة من هـــــذهالسير تصلح ان تكون كتابا مستقلا بما توجز من معـــانى الكرامة ،وتضم من روائع البطولة فجاء هذا الكتاب ليضمهـــــا فى اصــفحاتيسيرة ، ذات ايحاء جاذب ، وتاثير نفاذ ، وسيجد القـــارىء بين يديهما يقنع عقــــله ، ويمتع فؤاده ، ويرضى ايمانه بتـــاريخه الحى ،واعلامه الافذاذ .

٥٠ قـرشـا


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين